تاريـخ المعتـزلة

فكرهم وعقائدهم

دراسة فى إسهامات المعتزلة
فى الأدب العربى

دكتور فالح الربيعى

الدار الثقافيـة للنشـر

Tareekh AL Mo'atzela
Dr. Faleh Al - Robaie
17 x 24 cm.160 p.
ISBN: 977-339-025-X

عنوان الكتاب : تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم
اسم المؤلف : دكتور فالح الربيعي
17 x 24 سم . 160 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2000/17299
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

الطبعة الأولى
1421 هـ/ 2001 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما أكتوبر 11811 - تليفاكس 4027157 - 4172769
Email: sales @thakafia.com

إهــــــــداء

أقدّم هذا الجهد المتواضع إلى روح الوالد المرحوم الذى علّمنى دومًا أن للحياة هدفًا ورسالة يجب على الإنسان أن يسعى ويكرّس حياته من أجل تحقيقهما ، والذى أدين له ولدعواته الخالصة بهذه المرحلة العلميّة التى وفّقنى الله تعالى للوصول إليها .

فالح الربيعى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد فقد كان دافعي الأول لتأليف هذا الكتاب هو أن موضوع أدب المعتزلة، وإسهاماتهم في الأدب العربي، وانعكاسات وآثار التفكير الاعتزالي على مؤلفاتهم ومصنفاتهم وآثارهم، يعد من المواضيع التي تشكل فراغًا كبيرا في الدراسات الأدبية المتعلقة بالأدب العربي القديم رغم أن الكثير من المعتزلة عرفوا كأدباء كبار ومعروفين في تاريخ الأدب العربي، ورغم أنهم لعبوا دورًا كبيرًا في إغناء الدراسات الأدبية وخصوصا الدراسات المتعلقة بالعلوم البلاغية، وأسرار الإعجاز القرآني، وفي تطوير النثر العربي شكلا ومضمونًا، وإدخال موضوعات وأغراض جديدة عليه، وإغنائه من ناحية الأسلوب والمحتوى إلى آخر ذلك من خدمات جليلة دان لهم بها الأدب العربي بفضل طريقة تفكيرهم، والثقافة الخاصة التي تميزوا بها والقائمة في الأساس على التفكير العقلي والمنطقي والفلسفي، صحيح أن أدباء المعتزلة حظوا - كأفراد - بنصيب وافر من الاهتمام الأدبي، إلا أن دراسة آثارهم ونتاجاتهم جاءت بمعزل عن بيان تأثيرات مذهبهم الاعتزالي على هذه الآثار والنتاجات، وتسليط الأضواء على دورهم - كأشخاص اعتنقوا مذهب الاعتزال - في إغناء وتطوير الأدب العربي، وترك لمساتهم، وبصماتهم الواضحة عليه، أي أن الموضوع لم يطرح ولم يعالج - على حد علمنا واطلاعنا - من وجهة النظر هذه ولذلك فقد جاء كتابنا هذا كمحاولة لسد هذا الفراغ، وإعطاء المعتزلة حقهم من الدراسة الأدبية لمؤلفاتهم ومصنفاتهم وما أثر عنهم من روايات، وأخبار، وأقوال تناثرت في مصادر وكتب الأدب والتاريخ العربي.

ونظرًا إلى أنه من الثابت تاريخيًا أن بداية ظهور المعتزلة كمذهب مستقل له أصوله ومبادؤه وأسسه الخاصة به كانت في أوائل القرن الثاني الهجري، فقد امتدت الفترة الزمنية

التى حللتُ ودرستُ فيها أدب المعتزلة (من ناحية الأعلام والشخصيات) اعتباراً من هذه البداية وحتى القرن السابع الهجرى رغم أن الباحثين والمؤرخين يعتبرون نهاية القرن الرابع الهجرى الفترة التى أفل فيها نجم المعتزلة، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، إلا أننا وبعد أن رأينا أن وجود المعتزلة على صعيد العقيدة، والأدب، استمر - وإن كان على نطاق ضعيف ومحدود - بعد نهاية القرن المذكور وامتد حتى مرحلة متأخرة من العصر العباسى (القرن السابع الهجرى) متمثلا فى ظهور بعض من أعلامهم البارزين على صعيد المذهب، والأدب كالزمخشرى، وابن أبى الحديد، والجبائى والقاضى عبد الجبار وغيرهم ممن لعبوا دوراً كبيراً فى الأدب العربى، ومتمثلا أيضا فى بقاء مذهبهم مزدهرا فى شرق العراق، وإيران، وبلاد ما وراء النهر حتى بعد نكبتهم الثانية على يد أهل السنة بعد موت عضدهم، ودعامتهم الكبرى المتمثلة فى الصاحب ابن عباد وزوال الدولة البويهية فى بغداد، فقد رأينا أن من المناسب لموضوع هذا الكتاب أن نغطى فى دراستنا نتاجات وشخصيات المعتزلة بعد القرن الرابع الهجرى وحتى الفترة التى سبقت بقليل سقوط بغداد سنة (٦٧٨هـ - ١٢٥٨م).

إلى هذه العوامل والأسباب وغيرها، فقد رأينا أن من الأفضل والأنسب أن نتجاوز بدراستنا لأدب المعتزلة حدود الفترة الزمنية التى دأب المؤرخون والباحثون على اعتبارها الفترة التى يجب أن تتوقف عندها الدراسات المتعلقة بنشاط المعتزلة، لنوغل إلى ما بعدها من عصور امتدت إلى ما يقرب من سقوط بغداد، حيث شهدت هذه العصور ظهور بعض الشخصيات المعتزلية الكبيرة التى لم يقل دورها، وإسهاماتها فى الأدب العربى عن الشخصيات التى ظهرت قبل تلك الفترة إن لم تتفوق عليها فى بعض الحالات كما نلاحظ ذلك فيما يتعلق بالزمخشرى صاحب أعظم وأغنى تفسير أدبى وبلاغى للقرآنِ الكريم، وابن أبى الحديد الكاتب المُفلق والشاعر المُجيد، ومؤلف أفضل شروح نهج البلاغة.

وبطبيعة الحال فإن اختيار موضوع كهذا يتميز بكونه جديداً وبكراً، تكتنفه الكثير من المصاعب والمشقات، فمن أولى المشاكل والصعوبات التى واجهتنى، عدم وجود كتب مستقلة تناولت المعتزلة من ناحية دراسة نتاجاتهم الأدبية وبيان آثار التفكير الاعتزالى فيها، وتقصى إسهاماتهم ودورهم فى الأدب العربى، ولذلك فقد اضطررت والحالة هذه إلى أن أعتمد على نفسى فى جمع واستقراء واستقصاء آثارهم، ونتاجاتهم الأدبية من الكتب والمصادر التاريخية والأدبية ا لتى اهتمت بالترجمة لهم وذكر أخبارهم ورواياتهم وأقوالهم

والتى ذكرتها فى قائمة مستقلة فى نهاية الكتاب عدا الكتب الأدبية المستقلة التى وصلتنا من أدبائهم، ومن ثم تحليل تلك الآثار والنتاجات وإخضاعها للبحث والدراسة على أساس الهدف الذى توخيناه من تأليف هذه الرسالة.

ومما زاد هذه المشكلة تعقيدا وتشابكا أننا اضطررنا فى معظم الأحيان إلى الاعتماد على المصادر والكتب التى ذكرت أخبارهم فيها من قبل غيرهم، ذلك لأن من الثابت تاريخيًا أن القسم الأكبر من مؤلفات ومصنفات المعتزلة (ومن ضمنها المؤلفات والمصنفات الأدبية) قد جار عليها الزمن فضاعت من جملة ما ضاع من تراثنا الأدبى والفكرى، وهذه المشكلة تتأكد لنا أكثر بالنسبة إلى المعتزلة خصوصا إذا علمنا أنهم تعرضوا لنكبات وانتكاسات كثيرة من قبل أعدائهم وخصوصا أهل السنة الذين يعتبرون الأعداء والألداء للمعتزلة، والذين - على الأرجح- لم يألوا جهدا فى حرق مؤلفات المعتزلة وكتبهم وإتلافها فى الفترات التى ضعف فيها النفوذ السياسى للمعتزلة مقابل سيادة أهل السنة على صعيد السلطة والنفوذ السياسى، كما نلاحظ ذلك فى عصر المتوكل الذى نكب المعتزلة وأطلق يد السنة فيهم، وكذلك بعد سقوط الدولة البويهية فى بغداد.

وعلى أية حال فإن من المؤكد أن المعتزلة تركوا لنا تراثا فكريا، وعقيديا، وأدبيا ضخما خلال فترة حياتهم الطويلة (ثلاثة قرون على أقل التقادير) تحدثنا عنه الكتب والمصادر التى أرخت لهم (مثل الفهرست لابن النديم)[1] من خلال ذكر أسماء الكتب والمصنفات التى ألفوها، ومن خلال الإشارة إلى أن العالم، أو الأديب، أو الشاعر الفلانى منهم له مؤلفات غزيرة فى هذا الفرع من المعرفة أو ذاك، إلا أننا - للأسف- نسمع بهذه المؤلفات ولا نراها، للسبب السابق الذى ذكرناه، دون أن ننفى أن هناك احتمالا بوجود بعض النسخ الخطية لهم متفرقة فى البلدان والمكتبات المختلفة لم تنلها لحد الآن يد العناية، والتحقيق التى توصلها إلى مرحلة النشر والطبع لكى يتسنى للباحثين الاستفادة منها فى تسليط الأضواء على هذا الجانب الهام من الفكر الإسلامى.

ومن بين الصعوبات الأخرى التى واجهتها، هى أن معظم الكتب التى تحدثت عن المعتزلة لم تبد كبير اهتمام بدراسة الجانب الأدبى من تراثهم، بل ركزت اهتمامها على

---

(١) (انظر: إرجاعاتنا لهذا الكتاب فى الفصل السادس من الباب الأول).

دراستهم من الناحية العقيدية، والمذهبية، والفكرية، ذلك لأن المعتزلة حظوا دائما من قبل الباحثين المسلمين، والمستشرقين، بالدراسة باعتبارهم يمثلون مدرسة فكرية وفلسفية وكلامية، كان لها الأثر الأكبر فى نقل الثقافة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية، والدفاع عن الإسلام باستخدام الأساليب والقواعد العلمية والمنطقية للجدل والمناظرة، وإغناء التراث الفلسفى والعقلى للمسلمين، وهذا هو الجانب الذى يلفت النظر أكثر من غيره فى نشاط المعتزلة، ولذلك فقد تركزت الدراسات على إشباع هذا الجانب دون الاهتمام بالجانب الأدبى لهم والذى لم يخضع للدراسة والتحقيق بشكل مستقل، بل طُرِحَ ممزوجا بالأدب العربى ككل.

وعلى أية حال، فإن موضوع دور المعتزلة فى إغناء الأدب العربى، وتوسيع موضوعاته وأغراضه، وتقصى واستقراء آثار الاعتزال فيه يعد - كما قلنا - من جملة المواضيع التى مازال يكتنفها الغموض والإبهام، والتى هى بحاجة إلى إشباع أكثر من ناحية جمع المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، وإخراجها من حالة التشتت والتبعثر فى بطون المصادر التاريخية والأدبية المختلفة، ومن ثم التوفر على دراستها وتحليلها لكى يتسنى لنا من خلال ذلك إلقاء المزيد النثرى وبالأخص العوامل الفكرية والعقيدية.

وتتأكد لنا أهمية هذا الموضوع أكثر عندما نعلم أن تلك العوامل كان لها القسط الأكبر من التأثير على هذا الأدب شكلا ومضمونا اعتبارا من العصر الأموى وحتى نهاية العصر العباسى، ففى هذه الفترة اتسع نطاق الفتوح الإسلامية، واضطر العرب إلى أن يتعاملوا مع الكثير من أصحاب الحضارات، والثقافات، والديانات والمعتقدات الأخرى، ومما لاشك فيه أن التعامل الفكرى والحضارى والعقيدى يشكل الجزء الأكبر من مظاهر التأثير والتأثر، ومن المسلم به - أيضًا- أن الأدب شعرا كان أم نثرًا كان أكثر مجالات حياة المسلمين تأثرا، واستجابة لظاهرة التفاعل تلك، فكانت النتيجة أن مارست المؤثرات الحضارية والثقافية الأجنبية تأثيرها على الجانب الأدبى من الحضارة الإسلامية وطبعته فى بعض الجوانب بطابعها، فطرأت على أثر ذلك تغيرات وتطورات على الأدب العربى من الناحيتين الشكلية والمضمونية تركت آثارها وبصماتها الواضحة على هذا الأدب، وجعلته يدخل مجالات جديدة، ويتأطر بأطر أخرى بما يتناسب ومتطلبات الحياة الجديدة التى دخلها العرب.

وكانت الحضارة اليونانية من بين تلك الحضارات التى امتزجت وتفاعلت مع الحضارة الإسلامية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت صاحبة القسط الأوفى والأكبر من هذا

الامتزاج والتفاعل وخصوصا فى الجانب الفكرى، ونقصد بالجانب الفكرى هنا، أساليب وطرق التفكير والبحث العلمى والتوصل إلى النتائج من خلال الاستناد إلى المقدمات وبالطبع فإننا لا نقصد أن هذه الأساليب والطرق كانت منعدمة الوجود لدى المسلمين، بل نريد أن نقرر حقيقة أن الحضارة الإسلامية مدينة إلى الحضارة اليونانية فى ظهور بعض العلوم بمفهومها العلمى الدقيق، ونقصد بالتحديد، الفلسفة، والمنطق، والكلام، والأساليب العلمية للجدل والبحث دون أن ننفى اتباع مصادرنا الإسلامية لبعض من تلك القواعد والأساليب، كما نلاحظ ذلك فى القرآن الكريم، والأحاديث والسيرة النبوية الشريفة، إذ أن المواقف التى مرت بها الدعوة الإسلامية فى بداية أمرها كانت تقتضى مواجهة أعدائها بما يحملونه من معتقدات وقناعات وأدلة وبراهين، ولذلك نرى فى القرآن الكريم الكثير من الآيات التى كانت توجه خطابها إلى أولئك الأعداء من خلال اعتماد مبدأ المناقشة والجدال لإثبات حقانية أطروحاتها المختلفة، ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة النبى ﷺ ومواقفه المختلفة مع أهل الكتاب والمشركين.

ومع ذلك فإن تلك القواعد والأساليب ظلت على حالتها البدائية البسيطة البعيدة عن الإطار العلمى، والمنهجية المستقلة حتى بدأت الحضارة الإسلامية تتفاعل وتتلاقح مع الحضارات الأخرى المحيطة بها فى جانبها الإيجابى، والعلمى وحينئذ تعرف المسلمون على أساليب وقواعد جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل، أو كان لهم عهد بها ولكن بشكل غير منهجى.

ونحن نريد أن نقرر فى هذا المضمار أن المتكلمين - وبالتحديد المعتزلة - كانوا السباقين فى مجال تعريف المسلمين بتلك الأساليب والقواعد، فمثلوا فى هذا المجال حلقة الوصل بين الحضارتين الإسلامية واليونانية من خلال دراستهم، وتمثلهم الدقيق والعميق لمعطيات اليونانيين فى مجال الفلسفة والمنطق، ثم توظيفهم لهذه المعطيات فى إغناء الفكر الإسلامى فى جانبه العقيدى، والدفاع عنه إزاء المعتقدات، والأديان، والمذاهب الأخرى التى أصبح المسلمون يواجهونها بعد اتساع حركة الفتوح الإسلامية خصوصا إذا علمنا أن هذه المعتقدات والأديان كانت تستخدم بشكل رئيس وعلى نطاق واسع ما زخرت به حضارتها من أساليب وقواعد متطورة فى النقاش والجدال.

ومما لا شك فيه أن النشاط الذى مارسه المتكلمون عموما، والمعتزلة بشكل خاص كان على صلة وثيقة بالأدب إلى درجة أن مؤرخى ونقاد الأدب قرروا أن علوم البلاغة نشأت

أول ما نشأت بين أوساط المتكلمين، وإن البذرة الأولى لهذه العلوم نمت وترعرعت بين حلقاتهم، ومجالس دروسهم، ومواقف مناظراتهم، ومجادلاتهم مع أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة، ذلك لأن علم الكلام - كما يدل على ذلك اسمه - كان يصب اهتمامه الأكبر على أساليب وقواعد المناقشة، والمناظرة والجدال الصحيحة وما يستتبعه هذا الاهتمام من عناية قصوى بفنون القول، وطرق إيراد الكلام، ومراعاة مقتضيات الحال المختلفة، ومن المعلوم أن هذه المواضيع تتصل اتصالا وثيقا بعلوم البلاغة وخصوصا البيان والمعانى.

على أن تأثير المعتزلة وأهل الكلام عموما لم يقتصر على الجانب البلاغى من الأدب العربى فحسب، بل اتسع نطاقه ليشمل الأدب العربى ككل وخصوصا الجانب النثرى منه، أى الكتابة والتأليف، فجاء تأثير الثقافة العقلية والمنطقية التى آمنوا بها واضحًا على أعمالهم ونتاجاتهم، كما سنرى ذلك من خلال الشواهد، والأمثلة، والتحليلات المختلفة التى تضمنتها رسالتنا هذه، والتى استهدفت - بالدرجة الأولى - تسليط الضوء على هذا الجانب الهام، والظاهرة الملفتة للنظر فى الأدب العربى.

فلقد حاولت أن أخرج بنتيجة معقولة من هذا الكتاب من خلال الاستناد إلى المعلومات التى جمعناها فى هذا الصدد من مصادر الأدب والتاريخ، وهى: بيان وتحديد الإسهامات الأدبية للمعتزلة، وتقصى آثار الاعتزال فى آثارهم ونتاجاتهم وبيان ما لهذه الآثار من دور فى ازدهار ونمو وتميز أدبهم بشكل خاص، والأدب العربى بصورة عامة، للأسباب التى ذكرناها آنفا والمتمثلة عموما فى أن الجانب الأدبى من نشاط المعتزلة لم يحظ بالاهتمام الذى يستحقه كما حظت الجوانب الأخرى وخصوصا العقيدية والفكرية.

وهنا أود أن أذكر أننى لا أدعى أن هذا الكتاب قد استوعب جوانب وتفاصيل وجزئيات موضوع إسهامات المعتزلة فى الأدب العربى وآثار العقيدة الاعتزالية فى أدبهم خصوصا وأن هذا الموضوع البكر لم يسبق أن خضع للدراسة والتحليل والتقصى بشكل مستقل ومستفيض، فمن المؤكد أن هناك الكثير من الجوانب الأخرى التى تحتاج إلى إشباع أكثر من ناحية استيعاب الأمثلة والنماذج على صعيد الشخصيات والنصوص، فنحن واثقون من أن هناك نصوصا أدبية أخرى للمعتزلة لم تتم دراستها وتحليلها فى هذه الأطروحة، كما توجد شخصيات معتزلية أخرى كان لها إسهامات من نوع مافى الأدب العربى لم نذكرها، أو لم نتحدث عنها بشكل أكثر تفصيلا تاركين إشباع هذه الجوانب إلى دراسة أكثر استفاضة واستيعابا للتفاصيل ربما تمتد إلى أكثر من مجلد.

وعلى أية حال فإذا لم يكن بإمكاننا أن ندعى أن المباحث المطروحة فى هذه الدراسة قد أعطت هذا الجانب الهام من جوانب الأدب العربى حقه فى بيان مسيرة تطوره، والعوامل والمؤثرات التى أسهمت فى إغنائه، وتوسيع موضوعاته وأغراضه، وتكيفه مع متطلبات ومقتضيات فترة ازدهار الحضارة، والفكر الإسلامى، فإننا نستطيع – على الأقل – أن نعتبر الموضوع الذى أثارته هذه الأطروحة الخطوة الأولى أو من بين الخطوات الأولى فى طريق تقديم دراسات وبحوث أكثر غزارة، وأوسع نطاقا فى هذا المجال الحيوى والهام الذى من شأنه أن يسلط المزيد من الأضواء على الدور الذى أدته واحدة من أكبر وأخطر المدارس الفكرية التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى ألا وهى مدرسة المعتزلة وخصوصا فى مجال الأدب الذى يعتبر المرآة التى انعكست عليها بوضوح وشفافية التطورات والتحولات الفكرية، والثقافية التى غمرت حياة المسلمين اعتبارا من عصر صدر الإسلام، وحتى العصور الإسلامية المتأخرة.

ومهما يكن من شىء فإننا نأمل أن نكون قد أسهمنا من خلال هذا الكتاب فى لفت الأذهان إلى هذا الموضوع الحيوى والهام، وأن تكون النتائج التى توصلنا إليها بشأن دور المعتزلة فى الفكر الإسلامى عموما، والأدب العربى خصوصا فاتحة عهد لمزيد من الدراسات والبحوث على هذا الطريق من قبل الباحثين والمهتمين بدراسة القضايا والظواهر المتصلة بالأدب العربى وخصوصا تلك المتعلقة بتشخيص وتحديد العوامل والمؤثرات الثقافية والفكرية التى قامت بدور مؤثر فى تشكيله، وإلقاء ظلالها وطوابعها عليه كما هو الحال بالنسبة إلى المؤثرات الفكرية الاعتزالية التى تشكل الموضوع الرئيسى لكتابنا.

وأخيرا أدعو الله أن يكون قد وفقنى إلى تحقيق الأهداف والمقاصد التى كنت أرجوها من تأليف هذا الكتاب، وأن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم، ونافعا لغيرى إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

طهران فى ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠

دكتور

فالح الربيعي

تاريخ المعتزلة وفكرهم وعقائدهم

مقدمة عن بداية ظهور
الاختلافات فى التاريخ الإسلامى

لا ريب فى أن الاختلافات الفكرية والعقيدية التى ظهرت بين المسلمين وبرزت بشكل واضح ليست وليدة العصر الذي بدأت تتخذ فيه طابع المذاهب والفرق، أى أنها لم تظهر دفعة واحدة، بل إن جذورها تمتد إلى فترة مبكرة من التاريخ الإسلامى، وإذا شئنا الدقة قلنا إن هذه الاختلافات بدأت بالظهور اعتباراً من وفاة النبى ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، ففى زمان حياته كان وجوده ﷺ ومبادرته إلى حل المشاكل التى قد تنجم بين المسلمين، وسد الفراغ وحل الإشكالات الفكرية والعقدية التى قد تتبادر إلى أذهانهم، أضف إلى ذلك نزول الآيات القرآنية وتسليم المسلمين بحكمها، وانشغالهم بمهمة نشر الدعوة الإسلامية، كل ذلك وغيره كان يحول دون ظهور أى اختلاف فكرى أو عقائدى بين المسلمين، بل لم يكن هناك أى داع أصلاً للاختلاف.

وفى الحقيقة فإن الاختلاف بدأ بالبروز بعد وفاة النبى ﷺ مباشرة وبالتحديد حول مسألة الخلافة، أى تحديد من هو الأحق بأن يخلف رسول الله ﷺ فى قيادة المسلمين، وإدارة شئونهم، فظهرت على ذلك أهم الفرق الإسلامية فى القرن الهجرى الأول وهى الخوارج، والشيعة، والمرجئة(١).

وبذلك فقد كانت مسألة الإمامة والخلافة هى المحور الذى دارت حوله الخلافات بين المسلمين، كما يشير إلى ذلك الشهرستانى فى قوله: (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سُل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة)(٢).

(١) فجر الإسلام.

(٢) الملل والنحل جـ١. وللتوسع فى معرفة قصة خلاف المسلمين حول خلافة رسول الله ﷺ ومارافق ذلك من أحداث يراجع تاريخ الطبرى جـ٢، والكامل لابن الأثير جـ٢، والملل والنحل للشهرستانى جـ١، والفرق بين الفرق للبغدادى.

• **الأحزاب التى تمخضت عنها الاختلافات:**

• **الشيعة:**

وهو الحزب الذى يضم الموالين لأهل البيت رضى الله عنهم، وفى مقدمته الإمام على رضي الله عنه وذريته من فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

ويمكننا استنادًا إلى الشواهد والقرائن التاريخية أن نقرر أن الحزب الشيعى يعد أول حزب سياسى وفكرى ظهر فى الإسلام[١]، ويميل إلى هذا الرأى أيضًا الأستاذ (أحمد أمين) حيث قال فى معرض حديثه عن نشوء الأحزاب السياسية فى الإسلام فى كتابه (فجر الإسلام):

(وكانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه)[٢].

وذهب إلى هذا الرأى أيضًا الأستاذ (ماكدونالد) حيث أشار إلى ظهور أربعة أحزاب أثناء حادثة السقيفة ذكر منها الشيعة[٣].

• **الخوارج:**

ويعتبر هذا الحزب من ضمن الأحزاب التى ظهرت فى مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامى بعد الحزب الشيعى، وكانت حادثة التحكيم فى حرب صفين بين الإمام على رضي الله عنه ومعاوية هى العامل الأول لظهور هذا الحزب[٤].

وعلى ما تذكر المصادر التاريخية فإن السبب المباشر لظهور هذا الحزب هو اضطرار على رضي الله عنه أخيرًا إلى القبول بمبدأ التحكيم بينه وبين معاوية بعد أن كاد جيش على يحقق الانتصار على جيش معاوية فى وقعة صفين المعروفة، إلا أن خدعة التحكيم التى لجأ إليها معاوية لكى ينقذ نفسه من الانحدار الأكيد، ورفعه لشعار (حسبنا كتاب الله) واستغلاله لسذاجة البعض من الذين أيدوا فكرة التحكيم، كل هذه العوامل وغيرها اضطرت أمير المؤمنين إلى القبول بهذا الاقتراح مكرهًا على أثر الضغوط التى واجهها فى هذا المجال، فما كان من

---

(١) انظر: مختصر تاريخ الشيعة.

(٢) كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين.

(٣) انظر: Mac Doneeld, Development of Muslim The Theology ology p. 8-10

(٤) انظر: وقعة صفين لنصر بن مزاحم، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ٢، وتاريخ أبى الفدا، وتاريخ الطبرى جـ٥.

بعض من أصحابه وجنوده إلا أن أعلنوا رفضهم لهذه الفكرة، فانشقوا على الإمام على وكان عددهم يبلغ اثنى عشر ألفًا معلنين احتجاجهم عليه لقبوله فكرة التحكيم بعد أن أوشكوا أن يلحقوا الهزيمة بجيش معاوية، وينتصروا للمبدأ الذى آمنوا به(١) .

● مبادئ ونظريات الخوارج:

ورغم أن الخوارج انقسموا فيما بعد إلى فرق كثيرة، إلا أنهم اتفقوا على ثلاثة مبادئ ونظريات رئيسية آمنوا بها وميزتهم عن غيرهم من الأحزاب، وهى :

١ - الحكم على الأئمة والخلفاء وأعمالهم .

٢ - وجوب الخروج على السلطان الجائر

٣ - أن الخلافة ليست حكرا على عشيرة أو طائفة معينة، بل إن أمرها يخضع لاختيار المسلمين، وأن الشخص الذى يقع عليه الاختيار هو خليفة المسلمين وإن كان عبدًا حبشيًا (متأثرين فى ذلك بمبدأ الشورى)، وليس من حقه أن يتنازل عن الخلافة، وعليه أن يطبق الأوامر والأحكام الإلهية بحذافيرها، وإلا وجب عزله(٢) .

هذا من الناحية السياسية ونظام الحكم، أما من الناحية العقيدية والتى لم تكن منفصلة بحال من الأحوال عن الناحية السياسية، فقد كان الخوارج يرون فيما يتعلق بماهية الإيمان والكفر والتى تعتبر أهم قضية عقيدية أثيرت بعد الفتن الكبرى التى حدثت بعد مقتل عثمان، وحادثة التحكيم وأدت بشكل مباشر إلى ظهور الفرق ذات الطابع الفكرى والعقيدى كالمرجئة والمعتزلة، كان الخوارج يرون أن العمل جزء من الإيمان، فالإنسان الذى ينطق بالشهادتين ثم لا يؤدى فرائض الإسلام من حج وصوم وزكاة وصلاة كافر ولا يشفع له نطقهُ بالشهادتين، كما اتفق رأيهم على تكفير مرتكب الكبيرة .

● المرجئة :

ويمثلون الفرقة التى وقفت موقفًا وسطًا بين الشيعة الذين رأوا أن الخلافة والإمامة حق شرعى معين من قبل الله - تعالى - ورسوله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه وأبنائه من فاطمة، وأن من نازعهم فى هذا الحق وسلبه منهم ظالم وبين الخوارج الذين كَفَّروا عليًا

---

(١) راجع الملل والنحل ج١ ص ١١٤ - ١١٥، فجر الإسلام ص ٢٥٦ .

(٢) انظر : فجر الإسلام ص ٢٥٧، وانظر أيضًا : الفرق بين الفرق ص ٥٥ .

ﷺ، وعثمان، ومعاوية، وذهبوا مذهبًا متطرفًا فى الحكم على مرتكب الكبيرة ومن لم يجسد الإيمان فى عمله فحكموا بكفره.

وقد أجاد ابن عساكر فى تاريخه تلخيص فكرة المرجئة والعوامل التى أدت إلى ظهورهم فى قوله:

(هم الشكاك الذين شكوا، وكانوا فى المغازى، فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف، قالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول: قُتل عثمان مظلومًا وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقولُ: كان على أولى بالحق وأصحابه، كلهم ثقة، وكلهم عندنا مصدَّق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما)(١).

وبذلك فقد كان ظهور المرجئة بمثابة صدى للاختلافات السياسية والعقيدية بين المسلمين بعد الفتن التى عصفت بالكيان الإسلامى عقب مقتل عثمان، فقد فضَّل أصحاب هذه الفرقة أن يتخذوا مرقفًا وسطًا بين المختلفين وهو إرجاء أمر الناس إلى أصحاب هذه الفرقة أن يتخذوا موقفًا وسطًا بين المختلفين وهو إرجاء أمر الناس إلى يوم القيامة، وترك الحكم عليهم لله وحده دون تخطئة فريق من المسلمين وتصويب فريق آخر، والحكم بكفر طائفة منهم دون طائفة أخرى، ومن هنا سموا بـ(المرجئة)، أى الذين قالوا بإرجاء أمر الناس إلى الله تعالى.

وعلى ضوء ذلك، فقد اتفق معظم المرجئة من الناحية العقيدية - على أن حقيقة الإيمان هى الاعتقاد القلبى، والمعرفة بالله ورسوله، وأن أعمال الجوارح الظاهرة ليست جزءًا من الإيمان، فمن اعتقد بقلبه وصدق فهو مؤمن، ولا يضر إيمانه ما يُقارف من معاصٍ أو يرتكب من كبائر كما لا تنفع مع الكفر طاعة(٢).

وقد لخص شاعرهم (ثابت قطنة) مبادئهم ومعتقداتهم خير تلخيص فى قوله:

يا هندُ فاستمعى لى إن سيرتنا
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ٢٠ ص ٥٧٧.

(٢) انظر: الملل والنحل جـ١ ص ١٣٩ وما بعدها، ومقالات الإسلاميين جـ١ ص ١٩٧.

نرجى الأمـور إذا كـانت مـشـبّـهـة
ونصـدق القـول فـيـمن جـار أو عَنَدا[1]
المسلمـون علـى الإسـلام كـلهـم
والمشـركـون اسـتـووا فى دينهم قِـدَدَا[2]
ولا أرى أن ذنبـا بـالـغ أحـدًا
من الناس شـركـًا إذا مـا وحّـد الصـمـدا
لا نسـفـك الـدّم إلا أن يـراد بـنا
سـفكُ الدمـاء طريقًـا واحـدًا جـددَا[3]

وهكذا مهدت تلك الاختلافات، وتلك الأحزاب التى ظهرت على أثر هذه الاختلافات الأرضية لظهور الفرق، والمذاهب، والتيارات، والاتجاهات الفكرية المختلفة فى الفكر والعقيدة الإسلامية، وكان مذهب الاعتزال الذى يعتبر من أكبر وأضخم المذاهب الفكرية والفلسفية الإسلامية التى عرفها التاريخ الإسلامى، من بين تلك المذاهب التى نشأت وترعرعت فى ظل تلك البيئة المشحونة بالاختلاف فى المبادىء ووجهات النظر، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) مشبهة: ملتبسة ومختلطة.

(٢) القدة: الفرقة من الناس تختلف أهواؤهم.

(٣) الأغانى جـ١٣ ص ٥٠ (يوجد النص الكامل للقصيدة فى هذا المصدر). والجدد: جمع أجداد: الأرض الغليظة المستوية، يريد ليقول: إن صراطنا مستقيم مستوٍ.

بالإضافة إلى الاختلافات السياسية والعقيدية بشأن تعيين الأصلح لتولى منصب الخلافة، والتى ظهرت بعد وفاة النبى ﷺ والتى ذكرنا فيها أنها هيأت الأرضية لبروز الاختلاف العقيدى، والسياسى بين المسلمين الذى أدى فى النهاية إلى ظهور المذاهب، والتيارات الفكرية المختلفة وخصوصًا فى العصور الإسلامية التى تلت عصر صدر الإسلام، وعصر الخلفاء الراشدين ، بالإضافة إلى كل ذلك فإن هناك حادثة تاريخية شهيرة ذكرها أغلب المؤرخين كنقطة انطلاق لظهور حركة الاعتزال كمذهب مستقل له مبادؤه وأسسه الخاصة به، وقد نقل هذه الحادثة أكثر من مؤرخ ومنهم صاحب الملل والنحل الذى روى قائلا[١] :

(دخل واحدٌ على الحسن البصرى، فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج بها عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادًا؟ فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة).

وفي هذه الرواية دلالة واضحة علي ما ذهبنا إليه فيما سبق من أن (الاعتزال) لم يظهر مباشرة ودونما مقدمات بل نتيجة لتفاعل عوامل عديدة تقف فى مقدمتها الاختلافات السياسية والفكرية بشأن قضية تعيين الخليفة الشرعى للأمة وما تمخض عن ذلك من فتن عصفت بكيان المسلمين، وخلطت الحق بالباطل، فظهرت نتيجة لذلك مذاهب وآراء حاول أصحابها من خلالها تحديد الموقف الصحيح إزاء تلك الفتن والملابسات، كان ضمنهم الخوارج، والمرجئة اللذين أشرنا إليهما فيما سبق، ثم المعتزلة الذين آثروا

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٨ وما بعدها.

-ممثلين في واصل بن عطاء - أن يتخذوا موقفا وسطًا بين الفريقين السابقين فقالوا بالمنزلة بين المنزلتين(١) .

وفيما يتعلق بتحديد التاريخ الدقيق الذى ظهرت فيه حركة الاعتزال لكى يتسنى لنا دراسة الأوضاع والظروف المختلفة (وخصوصًا ما يتعلق منها بالفكر) التى سادت الفترة الزمنية التى نشطت فيها حركة الاعتزال، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين يكادون يتفقون على أن حركة الاعتزال نشأت بمفهومها العلمى الدقيق اعتبارًا من بداية القرن الثانى الهجرى كما أشار إلى ذلك المقريزى(٢) إذ أنه قرر أن المعتزلة ظهروا بعد المائة الأولى من الهجرة فى زمن الحسن البصرى، وأكد ذلك أيضًا (هاملتون) فى دائرة المعارف الإسلامية، إذ قال إن مدرسة المعتزلة بدأت بمواطنَيْن من البصرة هما واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وكانت فترة نشاطهما أثناء خلافة هشام وخلفائه الأمويين، أى من سنة ١٠٥ هـ إلى سنة ١٣١ هـ(٣) .

وأما بالنسبة إلى المكان الذى انطلقت منه حركة الاعتزال فهو بلا شك (البصرة) نظرًا إلى أن تلك الحادثة التى رويناها كان وقوعها فى مدينة البصرة، كما أكدت ذلك المصادر التى روتها، ونظرًا إلى أن الحسن البصرى، وواصلاً كان مركز نشاطهما البصرة .

وأما بالنسبة إلى سبب تسميتهم بالمعتزلة، فإن الرأى التقليدى الشائع فى هذا المجال والذى ردده أغلب المؤرخين هو أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا أصحاب الرأيين اللذين كانا سائدين بشأن حكم مرتكب الكبيرة فاعتزلوا أو استقلوا عنهم بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، أو لاعتزالهم أستاذهم الحسن البصرى واستقلالهم عنه بالرأى .

يقول المسعودى فى هذا الصدد :

(سموا معتزلة، وسمى مذهبهم بالاعتزال لقولهم بالمنزلة بين المنزلين- وهو الأصل الرابع - وهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقًا على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه، وبهذا الباب سميت المعتزلة وهو الاعتزال، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام مع ما تقدم من الوعيد فى الفاسق من الخلود فى النار)(٤) .

---

(١) انظر : Hamilton. A. R. Mohammedanism. P. 88

(٢) خطط المقريزى جـ ٤ .

(٣) Shorter. Incyclo Pcadia of Islam. P. 422 .

(٤) مروج الذهب جـ٣ (طبعة إيران).

وبالطبع فإن هناك آراء أخرى وردت حول سبب تسميتهم بهذا الاسم وما يتعلق بهذه التسمية مثل نشأتها، ومن الذين أطلق عليهم هذه التسمية، وهل هناك تسميات أخرى لهم[1].

أثر المعتزلة فى الفكر الإسلامى بصورة عامة

لا يمكن لأحد أن ينكر أثر المعتزلة ودورهم الإيجابى الفاعل فى تحرير الفكر الإسلامى من حالة الجمود على النص، واتباع الأساليب التقليدية فى النقاش والحوار، والاكتفاء بالنصوص القرآنية والأحاديث وحدها فى الرد على معارضى الفكر الإسلامى من مشككين، وزنادقة وملاحدة، وأصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى الغريبة عن روح الدين الإسلامى ومبادئه، والذين كان المجتمع الإسلامى يعج بهم أثناء فترة الحكم العباسى نتيجة لاختلاط المجتمع الإسلامى بعناصر عديدة من الأمم والشعوب الأخرى التى حملت معها معتقداتها، ومبادئها، وأفكارها، ونشاط حركة الترجمة من تراث تلك الأمم والشعوب.

وإلى ذلك لم يكن التفكير السنى السلفى وحده كافيًا بأساليبه التقليدية، وبنزعته الميالة إلى التهرب من الجدل والحوار، والاستعانة بالأساليب العقلية والمنطقية، والفلسفية التى دخلت المجتمع الإسلامى من الثقافات والحضارات الأخرى.

ويروى فى هذا المجال أن أحمد بن حنبل قال للخليفة حين نوقش فى مسألة خلق القرآن وسدت المذاهب عليه: (أعطونى شيئًا من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أقول بها)[2]، كما كان الشافعى يقول: (إذا وجدتم السنة فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى أحد)[3].

---

(١) وإذا أراد القارئ أن يتوسع فى هذا الموضوع فليراجع كتبًا مثل خطط المقريزى، والملل والنحل، والمنية والأمل، والانتصار، وفجر الإسلام. والمعتزلة لزهدى جار الله، والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (ص١٧٣-١٩٨) البحث الخاص بالمعتزلة الذى كتبه المستشرق (نينو) فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) مناقب الإمام أحمد.

(٣) الصواعق المرسلة جـ ٢.

• دور المعتزلة فى التوفيق بين السنة والعقل:

وهنا بالذات برز دور المعتزلة الكبير فى التوفيق بين السنة والعقل، وبين الفكر الإسلامى الأصيل وبين المعطيات الفكرية للثقافات والحضارات الأخرى وخصوصًا الحضارة اليونانية الهيلينية، فلقد اكتشفوا أن الطريق الأمثل للدفاع عن المعتقدات الإسلامية إزاء أصحاب المعتقدات الأخرى الذين كانوا يحاولون دومًا النيل من تلك المعتقدات، هو الاطلاع على الأساليب العقلية، والمنطقية، والكلامية، والفلسفية التى تتبعها تلك الثقافات والحضارات فى إثبات صحة أسسها ومبادئها، وتمثل تلك الأساليب وتوظيفها فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتقديمها فى صورة مقبولة ومقنعة إلى حملة المعتقدات والديانات الأخرى(١) .

• جهاد المعتزلة فى نشر العقيدة الإسلامية:

وتروى لنا كتب التاريخ صوراً كثيرة عن جهاد المعتزلة فى نشر العقيدة الإسلامية من خلال استخدام نفس السلاح الفلسفى والمنطقى الذى كان يتسلّح به أعداء الدين الإسلامى آنذاك من الزنادقة والملحدين، ويروى فى هذا الصدد أن أبا الهذيل العلاف كان من أشد رجال المعتزلة صلابة عود وقوة حجة، وكان من أكثرهم دأبًا للرد على المعاندين، ومناظرة المخالفين، فقد روى عنه أنه ألّف ستين كتابًا يبطل فيها حججهم، ويفند أقاويلهم(٢) ، وأنه ألزم الحجة يهوديًا قدم إلى البصرة فناظر طائفة من مشايخ المتكلمين فيها فقطعهم وأفحمهم(٣) ، وشهد له صالح بن عبد القدوس والزنديق الثنوى المعروف بالبراعة، وقوة الحجة حينما ناظره وقطعه، فقال فى حقه:

أبا الهذيل جزاك الله من رجل ... فأنت حقًا لعمرى مفصلٌ جدل(٤)

وهكذا كان الحال بالنسبة إلى زعماء المعتزلة الآخرين، مثل واَصل بن عَطاء، وثمامة ابن أشرس، وبشر بن المعتمر، والجاحظ، والنظّام وغيرهم(٥) .

---

(١) (انظر ؛ Hamilton. A. R. Mohammedanism).

(٢) المنية والأمل.

(٣) أمالى المرتضى جـ ١ .

(٤) المنية والأمل ، المفصل : يفصل بين الحق والباطل بمنطقه وبيانه، حدب : متمكن من الجدال.

(٥) راجع فى هذا المجال المنية والأمل، وأمالى السيد المرتضى جـ١ .

• **خدمات المعتزلة للفكر الإسلامى :**

وبذلك يمكننا أن نلخص الخدمات التى قدّمها المعتزلة إلى الفكر والحضارة الإسلامية والتأثيرات التى تركوها فيها فى النقاط التالية :

١ - إنهم أسهموا بشكل فاعل فى نقل التراث والثقافة اليونانية فى جانبها الفلسفى والعقلى إلى الحضارة الإسلامية، وذلك من خلال اطلاعهم على تلك الثقافة، وتمثلهم لمعطياتها العقلية والفلسفية(١) .

٢ - وبذلك فقد كان لهم الفضل الأكبر فى الجمع بين الدين والفلسفة فى حين كان يبدو أن من المستحيل الجمع بينهما وخصوصًا من وجهة نظر أهل السنة الذين كانوا يرون فى النزعة الفلسفية نوعًا من الزندقة والإلحاد والخروج عن قواعد الدين.

٣ - وبفضل تسلّح المعتزلة بسلاح الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وأساليب الجدال والمناظرة فإنهم قد أدوا دورًا كبيرًا وبارزًا فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء المعتقدات والديانات الأخرى السماوية المحرّفة منها كالمسيحية واليهودية، والمشركة والإلحادية كالمجوسية، والثنوية، والمانويّة، وقد تمثّل هذا الدور إما فى مناقشة وإبطال حجج أصحاب تلك المعتقدات والديانات أو فى دعوة غير المسلمين الطالبين للحقيقة إلى الإيمان بالعقيدة الإسلامية.

٤ - وأخيرًا، فقد أرسى المعتزلة دعائم حركة عقلية واسعة كان لها أكبر الأثر فى صياغة الحضارة الإسلامية، نظرًا إلى أن مذهبهم كان يقوم فى الأساس على احترام العقل وتمجيده، والتعويل عليه فى استنباط واستنتاج الكثير من الأحكام الشرعية من جهة، وأساليب التفكير السليم من جهة أخرى(٢) .

يقول جولد تسيهر (Goldzher) فى هذا الصدد : (نحن لا نستطيع نكران أنه كان لنشاط المعتزلة نتيجة نافعة، فقد ساعدوا فى جعل العقل ذا قيمة حتى فى مسألة الإيمان، وهذا هو الفضل الذى لا يجحد والذى له اعتباره وقيمته، والذى جعل لهم مكانًا فى تاريخ الدين والثقافة الإسلامية)(٣) .

٥ - وعلى أثر اعتماد المعتزلة على العقل كمرجع أساس فى استنباطاتهم، وتقريراتهم،

---

(١) راجع شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ، والبخلاء - المقدمة.

(٢) راجع الفصل الذى عقدناه للحديث عن أصول مذهب الاعتزال.

(٣) العقيدة و الشريعة فى الإسلام - جولدتسيهر - ترجمة حسن عبدالقادر وآخرين.

ونتيجة لعدم جمودهم على النصوص، وتعبّدهم بها بشكل مبالغ فيه، فقد لعبوا دوراً كبيراً في إشاعة أجواء حريّة التفكير، والعقل، ونحن نلاحظ هذا الاتجاه بشكل واضح في عصر المأمون، وفي القرن الرابع الهجري.

وقد بلغت هذه النهضة العقلية الجديدة التي أرسى المعتزلة دعائمها حدّاً من العمق والتأثير والاتساع بحيث إنها تركت آثارها حتى على أهل السنة أنفسهم[1]، وقد تجلى هذا التأثير بشكل خاص لدى الأشاعرة رغم عدائهم للمعتزلة، وحربهم الفكرية ضدّهم وانضمام الكثير من أهل السنّة إلى صفوفهم، فقد آمنوا مع المعتزلة بأنّ البرهان المؤسس على العناصر النقلية لا يعطينا أيّ يقين[1]، وكانوا في بحوثهم الكلامية متأثرين بالمعتزلة إلى حدّ كبير[2].

تطوّر المعتزلة في القرنين الثاني والثالث

سبق وأن قررنا أن نشأة المعتزلة كانت في بداية القرن الثاني الهجري، وهنا نقرّر أن حياة هذه الفرقة من المسلمين استمرّت مع شيء من التقلّبات، قوّة وضعفًا، حتى نصل إلى القرن الرابع الهجري، حيث بلغوا ذروة تطوّرهم وازدهارهم وانتشار مذهبهم وخصوصًا في عصر المأمون (١٧٠-٢١٨هـ) حيث أصبح مذهبهم المذهب الرسمي للدولة كما ستأتي الإشارة إلى ذلك في الفصل الذي عقدناه لدراسة تطوّر حركتهم في القرن الرابع الهجري[3].

وبصور عامة يمكننا القول إن المعتزلة لم يكونوا على وئام تام مع السلطة أثناء العصر الأموي، ولذلك فإن مذهبهم لم يكتب له كبير انتشار وتوسع في هذا العصر فكان حالهم في ذلك كحال سائر المذاهب الإسلامية الأخرى، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة التي انتعش فيها مذهبهم وشهد فيها بعض التطور والمكنة نتيجة لبعض المحاولات الفردية التي كانت نتيجتها عقد بعض العلاقات الودية مع بعض الخلفاء الأمويين، وهو ما كان يسعى إليه دومًا زعماء المعتزلة لكي يضمنوا لمذهبهم الانتشار والتمكن.

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام.

(٢) انظر: المعتزلة زهدي جار الله.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان جـ٤، وأيضًا: تاريخ العرب لفيليب حتي، وأيضًا: نيكلسون ترجمة د. صفاء خلوصي.

ومن أولئك الخلفاء الأمويين الذين جمعتهم علاقات ودية مع المعتزلة إلى حد اعتناق آرائهم الوليد بن يزيد (٨٨-١٢٦هـ)[١] ، ومروان بن محمد (٧٢-١٣٢هـ) آخر الخلفاء الأمويين الذى قيل إنه كان تلميذاً لأحد أعلام المعتزلة وهو (الجعد بن درهم) وإنه كان يذهب مذهبه فى القول بخلق القرآن[٢] .

ومع ذلك فإن مسيرة التطور الحقيقى الذى كان من نصيب المعتزلة فى التاريخ الإسلامى لم تكن إلا مع بداية العصر العباسى (١٣٢هـ)، حيث كانت الحكومة العباسية - كما نعلم- منفتحة أكثر من الحكم الأموى من الناحيتين السياسية والفكرية؛ فمن الناحية السياسية أشرك الخلفاء العباسيون فى الحكم العناصر غير العربية وخصوصًا الفرس فولوهم بعض المناصب فى الحكم، ومن الناحية الفكرية فسح العباسيون المجال للمذاهب والفرق الإسلامية وغير الإسلامية المختلفة لأن تمارس نشاطاتها، وتدعو إلى مبادئها وأفكارها كما رأينا فيما سبق.

مثل هذه الأجواء المنفتحة، والتى يسودها شيء من الحرية النسبية هيأت الأرضية المناسبة لتطور المعتزلة من خلال ممارستهم لنشاطاتهم الفكرية المتمثلة فى التأليف، والمناظرات، والمجادلات، والنقاشات على أوسع نطاق.

وتروى لنا الكتب التى أرخت للمعتزلة فى هذه الفترة - أى الفترة التى سبقت القرن الرابع الهجرى وعصر المأمون (١٧٠-٢١٨هـ) - أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يقربون إليهم علماء المعتزلة وزعماءهم، مثل أبى جعفر المنصور الذى عُرف عنه أنه اتخذ من عمرو ابن عبيد صديقًا حميمًا له، فكان يطلب منه الموعظة ويستزيده منها[٣] ، وهكذا الحال بالنسبة إلى (هارون الرشيد) الذى روى عنه أنه كان يقرب رجال المعتزلة، ويولى بعضهم مناصب رفيعة فى الدولة[٤] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥، (سنة خمس وعشرين ومائة).

(٢) سرح العيون.

(٣) أمالى المرتضى جـ ١ .

(٤) انظر : ميزان الاعتدال للذهبى.

المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى

بعد ذلك الانكماش والانحسار اللذين فُرضا على مذهب المعتزلة أثناء فترة حكم المتوكّل، دبت الحياة مرة أخرى إلى هذا المذهب مع حلول القرن الرابع الهجرى رغم أنه لم يستطع أن يبلغ سابق ما بلغه من نفوذ سياسى وازدهار وانتشار على غرار ذلك النفوذ الذى حظى به طيلة مدّة حكم المأمون وولديه المعتصم والواثق (١٧٠-٢٣٢هـ).

ومع ذلك فإن المعتزلة استطاعوا أن يستعيدوا شيئًا من أمجادهم السابقة وذلك من خلال اتباعهم لأسلوب ذكى تمثّل فى استمالة السلطة الحاكمة المتمثلة آنذاك فى حكومة بنى بويه الشيعية عبر الاتحاد مع الشيعة[١]، وقد كان هدفهم من الائتلاف مع الشيعة استمالة الحكام البويهيين أولاً لكى يضمنوا لأنفسهم النفوذ السياسى ووقوف الدولة إلى جانبهم، وتقوية وتعزيز جبهتهم أمام أهل السنة[١].

وبالفعل فقد استطاع المعتزلة من خلال اتباعهم لهذا الأسلوب أن ينشروا مذهبهم فى مناطق واسعة من العالم الإسلامى منها العراق، وخراسان وما وراء النهر[٢]، كما اعتنق فريق من مشاهير الفقهاء هذا المذهب[٣].

● المعتزلة فى عهد الصاحب بن عبّاد (٣٢٦- ٣٨٥هـ)[٤]:

لعب الصاحب بن عبّاد فى تاريخ المعتزلة دوراً يشبه إلى حدّ كبير الدور الذى سبق وأن أداه المأمون، والمعتصم، والواثق فى دعم مذهب الاعتزال، والتحمّس فى الدفاع عنه، وفرضه على الخاصة والعامة من المسلمين.

كان الصاحب بن عبّاد يعمل وزيراً لمؤيّد الدولة ثم لأخيه فخر الدين البويهى، ومن خلال دعمه لمذهب المعتزلة استطاع أن يعيد لهم قدراً من هيبتهم ونفوذهم وسلطانهم الذى كان لهم أيام المأمون وولديه، خصوصًا وأنه كان صاحب قوّة عظيمة، ونفوذ شديد لدى الدولة البويهية[٥].

---

(١) (انظر: المعتزلة لزهدى جار الله، وخطط المقريزى جـ٤).

(٢) (انظر: خطط المقريزى جـ٤، والصواعق المرسلة جـ٢).

(٣) للاطلاع على مدى الانتشار والنفوذ الذى أصابه المعتزلة فى القرن الرابع، يراجع كتاب شمس الدين المقدسى (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم). وأيضًا ميزان الاعتدال جـ٢. وطبقات الشافعية للسبكى جـ٣.

(٤) تراجع ترجمته فى معجم الأدباء جـ٦.

(٥) انظر: معجم الأدباء جـ٦.

وقد أورد ياقوت في معجمه الكثير من أخبار الصاحب بن عبّاد بشأن نصرته لمذهب الاعتزال، وحرصه على نشر أفكارهم ومبادئهم، وحمله الناس على الإيمان بهذا المذهب لكي ينالوا القرب والحظوة لديه، حيث يحدّثنا ياقوت قائلاً:

(جدّ الصاحب في نشر الاعتزال والدعوة له بكل وسيلة ممكنة، فقد كان يعقد المجالس في حضرته ويسأل الناس رأيهم في القرآن: أمخلوق هو أم غير مخلوق، وتجري بينهم وبينه مناظرات في ذلك، فإن استجابوا لرأيه فقد نالوا الحظوة عنده ونعموا بما لديه... وأن الناس قد دخلوا في مذهب ابن عبّاد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه، وإن لم يستجيبوا فلهم منه الويل والثبور..)[1].

ويروي ياقوت أيضًا أن الناس اجتمعوا يومًا في مجلس الصاحب وكان بينهم رجل من أعداء المعتزلة يسمى الزعفراني، فنظر إليه ابن عبّاد وقال: (أيها الشيخ سرّني بقاؤك، وساءني عناؤك ولقد بلغني عَدْوَاؤك[2]، وما خيله إليك خيلاؤك، وأرجو ألا أعيش حتى يُردَّ عليك غلواؤك[3]، ما كان عندي أنك تقدم على ما أقدمت عليه، وتنتهي في عدوانك لأهل العدل والتوحيد إلى ما انتهيت إليه، ولي معك إن شاء الله نهارٌ له ليلٌ، وليلٌ يتبعه ليلٌ، وثبورٌ[4] يتصل به ويل، وقطرٌ يدفع ومعه سيلٌ[5] وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار، فقال له الزعفراني: حسبنا الله ونعم الوكيل»[6].

وكما هو معلوم فإن الصاحب بن عبّاد نفسه يعد أحد الأدباء والشعراء، والكتاب المعروفين في القرن الرابع الهجري، ولذلك فقد اعتبرناه في كتابنا هذا أحد أدباء المعتزلة وسيكون لنا عنه حديث مستقل في الباب الذي خصصناه لترجمة أعلام وشخصيات المعتزلة.

ويبدو أن فترة الرخاء التي نعم بها المعتزلة بعد انحسار نفوذهم كانت قصيرة جدًا، وأنها كانت مرتبطة بفترة حياة الصاحب بن عبّاد، ففي أخريات القرن الرابع الهجري (سنة

---

(١) معجم الأدباء جـ٦.

(٢) العدواء: العداوة.

(٣) الغلواء: المغالاة والغلو، الخيلاء: الغرور والتبختر.

(٤) الثبور: الهلاك والويل والحزن.

(٥) القطر: المطر.

(٦) معجم الأدباء، جـ٦.

٣٨٥) توفى الصاحب ليتعرّض المعتزلة مرّة أخرى لنفس النكبة التى كانوا تعرضوا لها أيام حكم المتوكل، بسبب تنكر فخر الدولة[١] .

ويبدو أن هذه النكبة التى تعرض لها المعتزلة كانت بمثابة الضربة شبه القاضية لحركتهم التى سادت ساحة التفكير الإسلامي لما يقرب من ثلاثة قرون (عدا فترة حكم المتوكل ٢٠٦-٢٤٧هـ) فلم تقم لهم قائمة يعتدُّ بها بعد ذلك على الصعيد السياسى رغم المحاولات الكبيرة التى بذلوها نظراً إلى رجحان كفّة الحزب السنى سياسيًا منذ ذلك الوقت فصاعداً بعد حكم البويهيين، وضعف وتلاشى الائتلاف الشيعى المعتزلى.

المعتزلة فى عصر المأمون ١٧٠-٢١٨هـ

صادف المذهب الاعتزالى القائم على العقل والفلسفة، والجدل، والمناظرة، هوى في نفس الخليفة العباسى المأمون الذى كان شغوفًا بالفلسفة، محبًا للمجادلات والمناظرات، ممجداً للعقل[٢] ، ومثل هذا التطابق بين وجهات نظره وميوله، وبين أفكار المعتزلة ومبادئهم دفعه إلى أن لا يتردد في اعتناق مذهبهم، وتبنى آرائهم، والتحمس فى الدفاع عنها، وجعلها المذهب الرسمى للدولة، وتأتى عقيدة القول بخلق القرآن فى مقدمة العقائد التى آمن بها المأمون، و تحمس فى الدفاع عنها، وحرص على فرضها على جميع القضاة والفقهاء إلى درجة أنه أنشأ مجلسًا قضائيًا عرف باسم (ديوان المحنة) لكى ينتزع موافقة رجال الدين والقضاء والقانون على القول بخلق القرآن، ومن كان يعارض ذلك يجلد ويهدد بالسيف[٣] .

ويمكننا أن نكون صورة واضحة فى أذهاننا عن مدى تحمس المأمون لآراء المعتزلة وخصوصًا فيما يتعلق بعقيدة خلق القرآن من خلال الاطلاع على الكتاب المسهب الذى وجهه المأمون إلى رئيس شرطته في بغداد بشأن تبرير تشدده وحرصه على أن يأخذ المسلمون عامتهم وخاصتهم بهذه العقيدة، وقد أورد الطبرى فى تاريخه النص الكامل لهذا الكتاب[٤] .

وهذه مقتطفات منه:

(أما بعد فإنّ حق الله على أئمة المسلمين الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم،

---

(١) راجع ذيل تجارب الأمم، للاطلاع على مظاهر الاضطهاد الذى تعرض له المعتزلة على يد فخر الدولة.

(٢) (انظر: خطط المقريزى جـ٤، والصواعق المرسلة جـ١، عصر المأمون جـ١.

(٣) (Nichoison. P 368 - 369).

(٤) تاريخ الطبرى جـ٧، (أحداث سنة ثمان عشرة ومائتين). (وكذلك. عصر المأمون جـ٣).

ومواريث النبوة التى أورثهم، وأثر[1] العلم الذى استودعهم، والعمل بالحق فى رعيتهم والتشمير[2] لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته[3] والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنّه، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر من حشو الرعية[4]، وسفلة[5] العامة ممن لا نظر له ولا روية[6] ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة[7] بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به . . وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين[8] على أنه قديم أولُ لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، وقد قال الله عزوجل فى محكم كتابه الذى جعلهُ لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى: ﴿إنّا جعلناهُ قرآنًا عربيًا﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقهُ . .).

ثم يأمر بعد ذلك عامله (إسحاق بن إبراهيم) أن يبلغ الولاة فى إلزام الناس والقضاة والفقهاء فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن. فيقول:

(. . . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص[9] من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة

---

(١) أثر: نقل ونشر.
(٢) التشمير: الجد وعقد الهمة.
(٣) الصريمة والجمع صرائم: العزيمة
(٤) الحشو: والجمع المحاشى: ما حشى به الشيء، فضل وزيادة الكلام.
(٥) السفلة: واحدتها السافل: النذل والوضيع.
(٦) الروية: التدبر والتأنى.
(٧) (أهل جهالةٍ) خبر مبتدؤه (الجمهور الأعظم).
(٨) تعاجم الرجل: تنكر وتظاهر بالعجمه، وتعاجم القوم: كنّوا وورّوا، والمراد هنا أن أهل الجهل والضلالة اتفقوا فيما بينهم على أن القرآن قديم غير مخلوق وكان اتفاقهم هذا فى الإعلان لا فى الخفاء مشيرًا إلى وقاحتهم وتجرئهم.
(٩) النص: والجمع نصوص: الكلام المنصوص، والنص من الكلام: هو ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا أو لا يحتمل التأويل. والنص من كل شيء: منتهاه.

أهل عملك فى مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله..).

هذا التحمس من قبل المأمون للدفاع عن آراء المعتزلة، وتبنى أصولهم ومبادئهم، ومحاولة فرضها على الرعية، يدلنا على مبلغ النفوذ الذى حظى به المعتزلة فى عصره فلقد حظوا بالمنازل الرفيعة فى بلاطه، ووضع المأمون نفسه موضع التلميذ المتلقى من علمائهم مثل أبى الهذيل العلاف، وثمامة بن أشرس(١)، ويروى البغدادى أن ثمامة كان أستاذ المأمون فى الاعتزال(٢).

ولعل الشخصية الرئيسية التى لعبت الدور الأكبر فى نشر مبادئ الاعتزال وازدهارها فى عصر المأمون والمعتصم والواثق هى شخصية القاضى أحمد بن أبى دؤاد الإيادى(٣)، الذى استمر نفوذه ودامت حظوته فى البلاط العباسى حتى مدة خلافة الواثق، والأخبار التى جاءت فى الكتب التاريخية حول مبلغ النفوذ والتأثير الذى حققه هذا الرجل فى البلاط العباسى أثناء حكم المأمون والمعتصم والواثق، إلى الفترة الممتدة بين ١٧٠ وحتى ٢٣٢هـ، كثيرة ومتواترة، حتى أن لازون بن إسماعيل الذى كان من المقربين لبلاط الواثق يحدثنا قائلاً:

(ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد، وكان يسأل الشىء اليسير فيمنعُ منه، ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله وفى أهل الثغور، وفى الحرمين، وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب، فيجيبه إلى كل ما يريد)(٤).

وأما الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) فلم يكن بأقل من سابقيه تحمساً فى نشر مذهب المعتزلة، وحمل الناس على القول بخلق القرآن حتى أن اليعقوبى يروى لنا أنه كان يعمد إلى زج من لم يذعن لهذه العقيدة فى السجن حتى سجن خلقاً كثيراً(٥).

وقد استغل المعتزلة هذا النفوذ غير العادى الذى تأتى لهم خير استغلال فعملوا خلال تلك الفترة من خلال بذل جهود متواصلة ومكثفة على نشر مذهبهم على نطاق واسع، ولم

(١) سيأتى ترجمتهما فى الباب الأخير من الكتاب.
(٢) الفرق بين الفرق، وأيضاً عصر المأمون جـ٢.
(٣) توجد ترجمته فى وفيات الأعيان جـ١، وفى الباب الأخير من الكتاب.
(٤) الوفيات - المصدر السابق.
(٥) تاريخ اليعقوبى جـ٢.

يروا بأسًا من التوصل بالعنف والقوة فى حمل الآخرين على الأخذ بآرائهم، ولعل هذا هو الخطأ القاتل الذى ارتكبه المعتزلة، والذى أدى فيما بعد وخصوصًا فى عصر المتوكل (٢٠٦-٢٤٧هـ) إلى أن يتعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد، والملاحقة وخصوصًا من قبل أهل السنة من رجال الحديث بزعامة (أحمد بن حنبل) الذى تعرّض للسجن والتعذيب والاضطهاد فى زمن المأمون نتيجة لرفضه اعتناق مبدأ خلق القرآن[١] .

وهكذا آل سلطان المعتزلة الفكرى والسياسى إلى الخفوت والأفول والضعف اعتبارًا من خلافة المتوكل سنة (٢٣٢هـ) فى حين أخذ فى المقابل السلفيون المتعبدون بالنصوص بالبروز والظهور بعد أن تسلط المعتزلة على الساحة الفكرية فى العالم الإسلامى زهاء قرنين ونصف، وقد زاد من ضعف المعتزلة، وانحسار نفوذهم الفكرى خروج أبى الحسن الأشعرى عليهم، وانشقاقه عنهم بعد أن كان زعيمًا من زعمائهم[٢] .

ويقول فيليب حتى فى تاريخه: (إن حركة الاعتزال انتهت على يد أبى الحسن الأشعرى البغدادى، وأنه كان قد قرأ فى حداثته على فقيه معتزلى اسمه الجبائى، ولكنه تاب بعد حين عن القول بالعدل وبخلق القرآن، وأقلع عن آراء أهل الاعتزال ونشط للرد على تعاليم شيوخه منهم، وهو مؤسس علم الكلام فى الإسلام)[٣] .

وقد ذكرنا فى المقدمة أننا لا نؤيد هذا الرأى القائل بانتهاء نشاط المعتزلة مع نهاية القرن الرابع الهجرى، بل أن نشاطهم استمر إلى فترة متأخرة من التاريخ الإسلامى وبالتحديد إلى سقوط بغداد سنة (٦٦٧هـ) .

يقول (كارل بروكلمان) فى هذا المجال: (. . . ولكن الخليفة المتوكل الثالث بعد المأمون أزال سلطان المعتزلة المطلق تحت تأثير الشافعية، ولم يكد يمضى جيل حتى ظهر الرجل الذى وضع السلاح الفلسفي للمعتزلة فى خدمة السنة النبوية وهو أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، ولد سنة (٤٦٠هـ) بالبصرة من أسرة عربية عريقة شريفة، وظل تابعًا للجبائى المعتزلى حتى الأربعين من عمره)[٤] .

---

(١) انظر: وفيات الأعيان جـ١، والطبرى جـ٧، ومناقب الإمام أحمد.

(٢) انظر: خطط المقريزى جـ٤ .

(٣) انظر: تاريخ العرب، ونحن لا نتفق مع (حتى) فى أن علم الكلام تأسس على يد أبى الحسن الأشعرى فلقد ظهر علم الكلام قبل الأشعرى بفترة طويلة تمتد إلى بداية القرن الثانى الهجرى على يد المعتزلة وغيرهم من المتكلمين فى حين أن الأشعرى ظهر فى فترة متأخرة عن ذلك (٢٦٠ - ٤٢٣هـ) [راجع الفصل المتعلق بنشأة المعتزلة].

(٤) كارل جـ٤ .

وبطبيعة الحال فإن هذا الانشقاق جاء نتيجة طبيعية لتطرف المعتزلة فى الاعتماد على العقل فى استنباط الأحكام الشرعية، ومبالغة أهل السنة فى التعبد بالنصوص واستبعاد دور العقل فى الاستنباط وإصدار الأحكام، وماتبعه ذلك التطرف وهذه المبالغة من صراع احتدم طويلاً بين المعتزلة وأهل السنة، فانشق أبو الحسن الأشعرى عن المعتزلة ليتخذ منهجًا وسطًا بين المنهجين السابقين(١).

وبظهور وبروز أهل السنة والأشاعرة خبا وهج الحركة الاعتزالية لفترة من الزمن امتدت من خلافة المتوكل (٢٣٢هـ) إلى بداية القرن الرابع الهجرى، وفى خلال هذه الفترة تعرّض المعتزلة لهجوم عنيف، واضطهاد شديد من قبل خصومهم السلفيين والأشاعرة، فألّفت الكتب والرسالات للرد عليهم، وتسفيه آرائهم، واستقصاء عيوبهم وخصوصًا من قبل علماء أهل السنة، ولعل أبا منصور البغدادى المتوفّى سنة (٤٢٩هـ) يقف فى مقدمة هؤلاء العلماء الذين تصدوا دون هوادة للرد على المعتزلة وذلك فى كتابه المعروف (الفرق بين الفرق)، وكثيرًا ما كان البغدادى يتجاوز الحدود العلمية للنقد ليتحول نقده إلى مجرد هجاء مقذع لأعلام المعتزلة، كقوله فى النظام أنه لم يكن نظامًا للكلام المنثور والشعر الموزون، بل كان مجرد ناظم للخرز فى السوق(٢)، وفى موضع آخر يقول عن الجاحظ: (ولو عرضوا جهالاته فى ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم إياه إنسانًا فضلا عن أن ينسبوا إليه إحسانًا)(٣).

ومن العلماء الآخرين الذين نشطوا للرد على المعتزلة والطعن فيهم، ابن قتيبة الدينورى (سنة ٢٧٦هـ) فى كتابه [تأويل مختلف الحديث فى الرد على أعداء أهل الحديث]، وأبو الفرج بن الجوزى (سنة ٥٩٧هـ) فى كتابه [مناقب الإمام أحمد بن حنبل]، والشهرستانى فى كتاب [الملل والنحل]، وابن حزم فى كتاب [الفصل].

وذهب أهل السنة إلى أبعد من ذلك عندما كفروا المعتزلة، واستباحوا دماءهم وأموالهم وقرروا أن لقاتليهم القربة والزلفى عند الله، وقد روى عن محمد بن يحيى أحد علماء أهل السنة أنه أفتى قائلاً: (من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وخرج من الإيمان وبانت منه امرأته(٤)، يُستتاب(٥)، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجعل ماله فيئًا بين المسلمين ولم يدفن فى مقابرهم).

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع. (٢) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى، و دى بور.
(٣) الفرق بين الفرق. (٤) أى: حرمت عليه. (٥) يستتاب: يطلب منه أن يظهر التوبة.

خلاصة عن الأوضاع الفكرية والثقافية من بداية القرن الثانى الهجرى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى

(١٠٠ - ٣٩٩هـ)

بالنظر إلى أن الاعتزال عُرف فى التاريخ الإسلامى كمدرسة ومذهب فكرى وفلسفى بحت وأنه ظهر كنتيجة مباشرة للاختلافات الفكرية بين المسلمين أولاً وامتزاج الحضارة الإسلامية بالثقافات الأخرى كاليونانية، والفارسية، والهندية وغيرها ثانيًا، هذا الامتزاج الذى تمثل فى اختلاط العرب بالأمم الأخرى من جهة، وحركة الترجمة من جهة أخرى، فإننا سوف نركز حديثنا فى هذا الفصل على بيان واستعراض الأوضاع الفكرية والثقافية التى سادت المجتمع الإسلامى خلال الفترة التى نشطت فيها حركة الاعتزال.

بدأ اختلاط الأعاجم بالعرب يمارس تأثيراته الفكرية على المجتمع الإسلامى بعد أن استقرت وهدأت حركة الفتوح عندما آل السلطان إلى بنى أمية (٤١-١٣٢هـ) (٦١١-٧٥٠م)، فظهرت على أثر ذلك شريحتان رئيسيتان هما العرب والأعاجم، أى غير العرب.

وعلى أثر هذا الاختلاط بدأت الثقافات والحضارات الأخرى التى نقلها الأعاجم معهم إلى الفكر الإسلامى تمارس تأثيرها على الحياة الفكرية والثقافية.

- **حركة الترجمة:**

وقد كانت حركة الترجمة التى بدأت فى العصر الأموى تمثل المظهر الرئيس من مظاهر تلك التأثيرات الأجنبية على الحضارة الإسلامية، ورغم أنها كانت فى بداية أمرها ذات نطاق محدود من حيث السعة والتأثيرات، إلا أن هذه التأثيرات بدأت بالظهور بشكل بارز وواضح مع مجيء العباسيين إلى الحكم وإفساح المجال للعناصر غير العربية وخصوصًا الفرس لممارسة دور أكبر على الصعيد السياسى، والاجتماعى، والفكرى.

- **حركة الترجمة فى العصر الأموى:**

ولذلك فإن العصر الأموى يكتسب أهميته فى تأثر الحضارة الإسلامية بالثقافات والحضارات الأخرى من ناحية كونه يمثل البيئة التى وضعت فيها الأسس الأولى لعوامل هذا التأثر والمتمثلة - كما قلنا - فى عاملين رئيسيين نقل الأعاجم لذهنياتهم وأطوار تفكيرهم وموروثاتهم الثقافية والفكرية والسلوكية إلى العلوم، وضروب المعرفة الإسلامية

والدينية التى تخصصوا وبرزوا فيها فيما بعد، وإسهامهم الفاعل فى ترجمة الكتب التى جادت بها حضاراتهم، وما تركته الأفكار والمناهج التى تضمنتها هذه الكتب من تأثيرات عميقة فى العلماء المسلمين ومن بينهم المعتزلة(١) .

● حركة الترجمة فى العصر العباسى:

وعلى هذا فإن من المناسب هنا أن نستعرض حركة الترجمة فى العصر العباسى والتى ظهرت ونشطت كنتيجة طبيعية لاتساع وتنوع مجالات ومتطلبات الحياة، وإحساس المسلمين بأنهم فى حاجة ماسة إلى التزود من معطيات الحضارات والثقافات الأخرى من أجل بناء وتشييد حضارتهم الجديدة خصوصًا بعد اتساع حركة الفتح، وانضواء مناطق وأقطار شاسعة تحت لواء الخلافة(٢) .

وهكذا شهد العصر العباسى نشاطًا واسعًا ومنظمًا فى مجال الترجمة من خلال إقبال العلماء، وطلاب العلم على قراءة ودراسة المترجمات، وتشجيع الخلفاء العباسيين وخصوصًا المأمون ودعمهم لحركة الترجمة(٣) .

وقد قامت هذه الحركة على نقل ثلاث ثقافات رئيسية إلى الفكر الإسلامى، والعربى، وهى: الثقافة الفارسية، والثقافة الهندية، والثقافة اليونانية.

١ - الثقافة الفارسية ومظاهر تأثيرها

لعب الفرس دورًا مزدوجًا فى التأثير على الثقافة الإسلامية، فقد قاموا من جهة بنقل الثقافة الفارسية الأصيلة إلى الحضارة الإسلامية، ومن جهة أخرى أسهموا فى نقل الفكر اليونانى إلى الإسلامى والعربى عبر نقل مازخرت به ثقافتهم من تأثيرات يونانية.

ويلوح لنا فى هذا المجال ابن المقفع كواحد من أبرز الذين أسهموا بنصيب وافر فى نقل الثقافة الفارسية إلى العربية، فقد ترجم فى مجال التاريخ كتاب (الأدب الصغير) و(اليتيمة فى الرسائل) و(كليلة ودمنة) الذى هو فى الأصل كتاب هندى نقل إلى الفارسية، وفى مجال الأدب ترجم (عهد أردشير) و(كتاب أردشير فى التدبير) وكتاب (أدب وتوقيعات

---

(١) (انظر: فى هذا المجال كتاب مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب - اوليرى- ترجمة الدكتور تمام حسان).

(٢) (انظر: Nichlson. Literary History of the Arabs P. 376)

(٣) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية- ترجمة عبدالرحمن بدوى، وأيضًا عصر المأمون جـ١ .

كسرى) وكتاب (هزار افسانه) الذى يعتبر الأساس الذى قام عليه كتاب (ألف ليلة وليلة)(١) .

وقد نسج على منوال هذه الكتب الكثير من الأدباء والعلماء المسلمين، كابن الهبّاريّة الذى ألف كتاب (الصادح والباغم) وعبدالله بن أبى القاسم القريشى الذى ألف كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الطباع) على غرار كتاب (كليلة ودمنة)(٢) .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى مؤلفات الفرس بالعربية والتى يمكن اعتبارها من جملة مظاهر تأثيرهم فى الحضارة الإسلامية من حيث إنهم ألفوها متأثرين بثقافتهم الأصيلة، ونذكر هنا – على سبيل المثال – سهل بن هارون الذى ألف بوحى من تأثره بثقافته الفارسية العديد من الكتب، منها (ديوان الرسائل) و(ثعلة وعفرة) و(تدبير الملك والسياسة)(٣) .

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الثقافة الفارسية مدخلاً واسعًا دخلت عبره المؤثرات الثقافية الأجنبية الأخرى إلى الثقافة العربية وفى مقدمتها المؤثرات اليونانية والهندية، ويرى (اوليرى) فى كتابه مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، أن المادة العلمية للرياضة والفلك من المحتمل أن تكون قد انتقلت إلى الحضارة الإسلامية من اليونان والهند عبر إيران(٣) ، وهو يشير فى هذا المجال إلى كتاب (السند والهند) الهندى الأصلى، ويحتمل أن تكون ترجمته إلى العربية قد تمت بمساعدة نسخة فارسية(٣) .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال مدرسة (جنديسابور) التى تعتبر معهداً علميًا للدراسات الفلسفية والطبية أسسه كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٦م) وما لعبته من دور رئيسى فى نقل التراث اليونانى إلى العربى، وفى مقدمته كتاب (منطق أرسطو) الذى يعتبر من جملة الكتب التى مارست أكبر التأثير فى تشكيل العقلية الإسلامية، والذى تأثر به المعتزلة إلى حد كبير فى نزعتهم الكلامية ومناظراتهم(٤) .

- **تأثير الديانات والمعتقدات غير الإسلامية على المعتزلة:**

ومن المعلوم – كما أشرنا – أن عقيدة المعتزلة تمثل فى التاريخ الإسلامى مدرسة فلسفية وفكرية وكلامية، كان مجال نشاطها يتركز بشكل رئيسى فى الجانب العقائدى من الدين

---

(١) للاطلاع أكثر على أسماء المترجمين والكتب التى ترجمت من الفارسية يراجع كتاب الفهرست لابن النديم، ويراجع أيضًا ضحى الإسلام جـ١ .

(٢) (انظر : ضحى الإسلام جـ١) . (٣) (انظر : الفهرست)

(٤) (انظر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام دى بور) .

الإسلامى، وقد أسهمت الديانات والمعتقدات التى كانت سائدة آنذاك في البلدان والأقطار التى شملتها الفتوحات الإسلامية، أو العناصر غير العربية وغير المسلمة التى امتزجت مع المجتمع الإسلامى، أسهمت إلى حد كبير فى ترك تأثيراتها الواضحة على الدراسات والبحوث العقيدية لدى المسلمين عمومًا، والمعتزلة خصوصًا.

ولقد كانت الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف تضم فى داخلها أقطارًا وبلدانًا عديدة منها العراق، حيث غلبت المجوسية بفرقها المتعددة والصابئة والسمنية، ومنها أيضًا سورية ومصر حيث المسيحية واليهودية، والثقافة اليونانية(١).

ومما لاشك فيه أن أتباع تلك الديانات أو من أسلم منهم أسهموا فى إثارة مسائل وموضوعات لاهوتية بين المسلمين تتصل بالعقائد وأصول الدين، وأن الكثير من علماء المسلمين (ومنهم المعتزلة بشكل خاص) اطلعوا على هذه المسائل والموضوعات، ودرسوها بعناية فائقة ليقابلوها بالتعاليم الإسلامية.

• تأثيرات الديانة اليهودية:

وبالنسبة إلى الديانة اليهودية فإنها مارست بعض التأثير فى ظهور النزعات الكلامية الجديدة لدى المسلمين، ومنها القول بخلق القرآن، فقد روى ابن الأثير فى هذا المجال، أن لبيد بن الأعصم اليهودى كان يقول بخلق التوراة، وأن ابن أخت طالوت صنف فى خلق القرآن، فكان أول من فعل ذلك فى الإسلام(٢)، وذكر ابن الأثير أيضًا أنه كان زنديقًا أفشى الزندقة(٢).

وذكر الخطيب البغدادى أن بشر المريسى (ت٢١٨هـ) المرجىء المعتزلى وأحد كبار الدعاة إلى خلق القرآن كان أبوه يهوديًا صباغًا بالكوفة(٣).

• تأثيرات الديانة المسيحية:

تعتبر الديانة المسيحية الديانة الأكثر تأثيرًا من الناحية العقيدية والكلامية فى ظهور المعتزلة، فمن المعلوم أن المسيحيين (نظرًا إلى أنهم نشؤوا بين أحضان الثقافة اليونانية) كانوا أكثر أتباع الأديان إثارةً للمسائل اللاهوتية التى كانت تحظى باهتمام علمائهم أنفسهم.

ومما يؤكد التأثير الكبير الذى مارسته الديانة المسيحية على مدرسة الاعتزال أن أتباعها

---

(١) انظر: الملل والنحل جـ٢، وفجر الإسلام، وعصر المأمون جـ١.

(٢) ابن الأثير جـ٧. (٣)تاريخ بغداد جـ٧.

وجدوا المجال للنفوذ فى المجتمع الإسلامى اعتباراً من العصر الأموى، فالمصادر التاريخية تذكر لنا فى هذا المجال أن الأمويين كانوا يقربون المسيحيين، ويستعينون بهم، ويسندون إليهم بعض المناصب الرفيعة؛ وعلى سبيل المثال فقد جعل معاوية بن أبى سفيان سرجون ابن منصور الرومى المسيحى كاتبه وصاحب أمره[١]، ثم ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقى (٨١-١٣٧هـ) الذى كان عالمًا كبير القدر من علماء الدين المسيحيين، وقدّيسًا محترمًا فى الكنيستين الشرقية والغربية، وآخر علماء اللاهوت الكبار فى الكنيسة الشرقية، وأعظم علماء الكلام فى الشرق المسيحى[٢].

ويقول ميكفرت: (إن اللاهوت المسيحى وصل ذروته فى زمن يحيى الدمشقى الذى وضع فى كتبه خلاصة ما بلغه الفكر المسيحى فى الشرق)[٣].

وقد وضع يحيى كتابًا فى تفسير اللاهوت المسيحى طبقه على فلسفة أرسطو المنطقية[٤].

ويتجلى لنا تأثير المسيحية بشكل أكثر وضوحًا عندما نعلم أن المناظرات بين المسلمين والمسيحيين كانت قائمة على قدم وساق فى المسائل العقيدية كما تشير إلى ذلك كتابات يحيى الدمشقى وتلميذه ثيودور أبى قرة (ت ٢١١هـ)[٥].

وأشار (ميكفرت) أيضًا إلى هذه المناظرات، وذكر أنّ من جملة الكتب التى صنفها يحيى الدمشقى كتاب فى الدفاع عن النصرانية وضعه على شكل محاورة بين عربى ومسيحى[٦].

وقد كانت هذه المحاورات ناشطة أبان عهد الأمويين الذين لم يمنعوا قيام مثل هذه المناظرات ثم توقفت لتعود إلى النشاط فى عصر المأمون، فقد جاء فى نفح الطيب أن مناظرة جرت بين العتابى وأبى قرة حول المسيح (عليه السلام) فى بلاط المأمون[٧]، وكذلك جرت لأبى قرة هذا محاورة فى حضرة المأمون بينه وبين بعض العلماء من العراق والشام[٨].

---

(١) الطبرى جـ٤، وابن الأثير جـ٤.

(٢) A.C. MC Giffert, A history of Christian P. 308 Early and Eastern.

(٣) MC Giffert P.330.

(٤) مقالة (John of Damascus) فى الموسوعة البريطانية جـ١٣.

(٥) (انظر: Mac Donald P.131-132.

(٦) Mc Giffert P310. (٧) نفح الطيب جـ٣.

(٨) مجلة المشرق جـ٦، مقال عن ثيودور أبى قرة بقلم الخورى قسطنطين باشا الراهب، وعصر المأمون جـ١.

وهكذا يمكننا القول أن هذا التأثير المسيحى قد شمل المعتزلة بصورة عامة متمثلاً بآراء يحيى الدمشقى، وخلفه (ثيودور أبى قرة)، فقد كانت - كما أشرنا - تجرى مجادلات دينية بينه وبين علماء المعتزلة فى حضرة المأمون ذلك لأن أبا قرة كان يتكلم العربية ويكتب بها[١]، ومن كتاباته التى وصلت إلينا بالعربية مقال وردت فيه بعض مسائل تشبه كثيراً مذاهب المعتزلة كقوله فى خير الله الفياض وفضله الذى لا يتناهى[٢]، وكذلك تعظيمه للعقل البشرى واعتقاده أن الإنسان قادر بالعقل على أن يعرف الخالق، وأن الإنسان إذا كان يستطيع بالعقل أن يعرف الخالق، ويبصر صفاته، فهو قادر كذلك أن يدرك به الحسن والقبح، ويفرق بين الخير والشر[٣].

٢ - تأثيرات الثقافة الهندية:

مارست الثقافة الهندية تأثيرها على الحضارة الإسلامية فى مختلف فروعها، ففى مجال الأدب نُقلت الكثير من القصص الهندية إلى العربية، ونحن نجد هذه القصص مبثوثة فى المصادر التاريخية والأدبية العربية، فكثيراً ما تصادفنا فى هذه المصادر عبارات من مثل (ومما نقل عن الهند) أو (ومما جاء فى كتب الهند)[٤].

وقد سبقت الإشارة إلى كتاب (كليلة ودمنة) الذى يغلب الظنّ أنه كتب بالهندية فى الأصل ثم نقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية، ولاريب فى أن هذا الكتاب ترك أعظم الأثر على الأدب العربى، ونسج على منواله الكثير من الأدباء العرب كما مرّ.

وإذا ما راجعنا الفهرست لابن النديم لوجدنا أسماء الكثير من الكتب الهندية التى تضمنت الكثير من القصص، والأسمار، والخرافات ومنها كتاب السندباد الكبير، والسندباد الصغير، وكتاب (ديك الهند) وكتاب (ملك الهند)[٥].

ومن المرجح أن تكون هذه الكتب قد تركت أثرها على كتاب القرن الرابع وما بعده وخصوصًا كتاب القصص والأخبار والأساطير والمقامات مثل أبى حيان التوحيدى، وأبى على التنوخى، وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم، وفى هذا المجال يذهب (أحمد أمين) إلى أن الكثير من قصص (ألف ليلة وليلة) يرجع إلى أصول هندية[٦].

---

(١) المشرق جـ٦.
(٢) ميمو مقالة فى وجود الخالق والدين القويم لثيودور أبى قرة.
(٣) ميمو أبى قرة.
(٤) انظر: فى هذا المجال كتاب الوزراء والكتاب، وعيون الأخبار جـ١.
(٥) انظر: الفهرست.
(٦) ضحى الإسلام جـ١، وعصر المأمون جـ٣.

ومن بين المجالات الأخرى التي تركت فيها الثقافة الهندية أثرها على الحضارة الإسلامية مجال الحكمة نظرًا إلى غنى الحضارة الهندية بهذا الفرع من المعرفة، حيث عُرف الهنود بصياغتهم لخبراتهم وتجاربهم وتأملاتهم فى الحياة فى عبارات وجمل قصيرة جاءت على شكل حكم وأمثال، كما نلاحظ ذلك فى كتاب (كليلة ودمنة) مثلاً، وقد تمت ترجمة الكثير من تلك الأمثال والحكم في عهد المنصور والرشيد[1]، وذكر ابن قتيبة فى عيون الأخبار مجموعة كبيرة من الأمثال والحكم الهندية.

وكما تأثرت الثقافة الإسلامية بالثقافة الهندية فى مجال الحكمة، فقد تلقت التأثير منها أيضًا فى مجال البلاغة، ذلك لأن الهنود عرفوا بامتلاكهم لآراء ووجهات نظر بلاغية يعتد بها لاهتمامهم بالكلام وفنون القول والمنطق السليم، ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال ما نقله الجاحظ فى البيان والتبيين من ترجمة للصحيفة الهندية فى البلاغة والتى جاء في مقدمتها:

(أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة، ولا يدقق المعانى كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا أو فيلسوفًا عظيمًا..)[2].

ونقل الجاحظ لمقاطع من هذه الصحيفة وهو علمٌ من أعلام المعتزلة ليدل على تأثر المعتزلة وخصوصًا الأدباء والكتاب منهم بالثقافة الهندية بالإضافة إلى الثقافات الأخرى.

وفى مضمار الفلسفة كان للثقافة الهندية تأثير عميق على الحضارة الإسلامية وخصوصًا بين أوساط المتكلّمين.

ومن بين العقائد التى عُرفت بها الفلسفة الهندية وانتقلت إلى بعض المذاهب الإسلامية القول بتناسخ الأرواح[3].

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة فى الإسلام دى بور.

(٢) البيان والتبيين جـ١، رابط الجأش: مطمئن مستقر، متخير اللفظ: يختار ألفاظه بعناية، السوقة: عامة الناس، قليل اللحظ: قليل النظر إلى جانبيه.

(٣) (انظر: ما كتبه البيرونى فى كتاب ما للهند من مقولة حول هذه العقيدة).

والذى يهمنا من ذلك أن البعض من المتكلّمين ومن بينهم متكلمو المعتزلة خضعوا لتأثير هذه العقيدة مثل (أحمد بن حابط) الذى تنسب إليه فرقة الحابطية من المعتزلة[1] .

ويشير صاحب الأغانى إلى أن البعض من المتكلّمين ومنهم جرير بن حازم الأزدى اعتنقوا مذهب (السمنية) الذى يعتبر أحد المذاهب الهندية[2] .

وفى مجال التصوف يمكن القول أن التصوف الإسلامى لم يسلم من تأثيرات المذاهب الفلسفية الهندية فى مجال التصوف والرياضات الروحية التى عُرفت بها الثقافة الهندية[3] .

٣ - تأثيرات الثقافة اليونانية:

سبق الحديث عند تعرضنا لذكر الديانات السائدة فى عصر المعتزلة ومنها المسيحية عن تأثير الثقافة اليونانية متمثلة فى الديانة المسيحية على علم الكلام فى الإسلام، وسنتحدث تحت هذا العنوان عن المجالات الأخرى التى تهمنا لتأثير الثقافة اليونانية على الحضارة الإسلامية وخصوصًا مدرسة الاعتزال .

قبل كل شىء علينا أن نقول إن نصارى السريان هم الذين لعبوا الدور الأكبر فى نقل التراث اليونانى إلى الحضارة الإسلامية، حيث كانوا ينتشرون فى مناطق مختلفة من العالم الإسلامى وخصوصًا الرها ونصيبين وحرّان وجنديسابور .

وقد بدأ هؤلاء النصارى نشاطهم هذا اعتبارًا من القرن الرابع الميلادى وامتد حتى القرن العاشر الميلادى، ويذكر (دى بور) أن أحد القساوسة الأطباء السريانيين القادمين من أنطاكية، واسمه (بروبوس) قام لأول مرة بنقل مجموعات من الحكم اليونانية[4] ، وقد وصلت أول ترجمة إلينا فى هذا المجال من عصر المأمون، أى القرن الثالث الهجرى، علمًا أن هناك ترجمات أخرى تمت فى القرن الثانى الهجرى ضاعت معظمها[4] .

ويعتبر عصر المأمون العصر الذى تمت فيه أغلب الترجمات من اليونانية إلى العربية، بل إننا نستطيع أن نقول إن دار الحكمة التى أنشأها المأمون تحولت إلى مركز هام من مراكز نشر الثقافة اليونانية بين العلماء .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ١ .　　(٢) الأغانى جـ٢ .

(٣) للتوسع فى هذا الموضوع يراجع كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) للبيرونى، فقد استفاض فى بيان مظاهر تأثر التصوف الإسلامى بالتيارات الفكرية الفلسفية الهندية .

(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام دى بور .

ويتأكد لنا تأثر المعتزلة العميق بالثقافة اليونانية عندما نعلم أن المأمون جعل مذهب الاعتزال المذهب الرسمي للدولة، وأنه هو نفسه كان معتنقًا لمذهب الاعتزال، ومؤمنًا بالثقافة العقلية وحرية التفكير إلى حد بعيد[1].

ومع ذلك فإن تأثر المعتزلة بالفكر اليونانى لم يبدأ من عصر المأمون، بل إن أغلب الظن يتجه إلى أن تأثرهم بهذا الفكر بدأ قبل هذا العصر خصوصًا إذا علمنا أن حركة نقل التراث اليونانى إلى العربية كانت قد بدأت فى عصر المنصور، ثم هارون الرشيد حيث كان البرامكة يبعثون الرسل لشراء المخطوطات الإغريقية من روما[2]، وخصوصا إذا علمنا أيضًا أن منطق (أرسطو) كان قد ترجم قبل عصر المأمون من الفارسية على يد ابن المقفع[3]، وهذا ما يجعلنا نرجح أن تأثر المعتزلة بالثقافة اليونانية يعود جذوره إلى مراحل مبكرة من العصر العباسي.

ولا ريب فى أن المعتزلة كانوا أكثر المدارس الفكرية الإسلامية تمثلاً للفلسفة والمنطق اليونانى، واستخدامًا لهما فى جدلهم، ومناظراتهم الدينية، وبصورة عامة يمكننا القول أن الفلسفة والمنطق كانا المنفذ الرئيسى الذى نفذت من خلالهما الثقافة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية، فقد كانت مناهج وأساليب البحث العلمى لدى المسلمين بدائية وبسيطة فى بداية أمرها حتى اطلع المسلمون على الثقافة اليونانية ومعطياتها المتطورة فى مجال البحث العلمى، فاتسعت العلوم الإسلامية على أثر ذلك، واتخذت الطابع العلمى والمنطقى حتى فى المجالات التى تبدو فى الظاهر بعيدة الصلة بالفلسفة والمنطق كالفقه والنحو والأصول والبلاغة والخطابة والشعر.

وفيما يتعلق بالمعتزلة فقد رأوا أن خير سلاح للدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء الديانات والمعتقدات الأخرى هو الإقبال على المنطق والفلسفة اليونانية ودراستهما بعمق للاستفادة من قواعدهما، وقوانينهما، وأساليبهما فى مناظرة، ومجادلة، ومناقشة أصحاب تلك العقائد والديانات تمامًا كما كان يفعل هؤلاء فى مناظراتهم مع المسلمين، حيث يحدثنا المقريزى فى هذا المجال قائلاً: (إن المأمون قد بعث إلى بلاد الروم من عرَّب له كتب الفلاسفة، فتلقاها المعتزلة، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها فاشتد ساعدهم بها)[4].

---

(١) انظر: عصر المأمون ج٢. (٢) أوليرى

(٣) انظر: ضحى الإسلام جـ١، وبرو كلمان جـ٢، وعصر المأمون جـ١.

(٤) خطط المقريزى جـ٤ وانظر أيضا: المنية والأمل للمرتضى.

ويروى لنا صاحب المنية والأمل رواية تدل على مدى إلمام المعتزلة بالثقافة اليونانية، تقول: (أن جعفر البرمكى ذكر أرسطاليس[1]، فقال النظام: قد نقضْتُ عليه[2] كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تُحسن أن تقرأه؟ فقال: أيما أحبُّ إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله؟! ثم اندفع يذكر شيئًا فشيئًا، وينقضه عليه، فتعجب منه جعفر)[3].

● **خلاصة ونتيجة:**

وبعد، فهذه هى باختصار البيئة التى نشأ فيها المعتزلة اعتبارًا من بداية القرن الثانى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى، وقد كانت - كما رأينا - بيئة نشطة، حافلة بالتيارات الفكرية والعقيدية المختلفة التى كان منشؤها - بشكل رئيس - اختلاط العرب بالأمم والشعوب الأخرى من حملة الحضارات، واتساع نطاق حركة الترجمة والنقل من الثقافات الأخرى وخصوصًا الثقافة الفارسية والهندية واليونانية، فجاء على أثر ذلك مذهب الاعتزال مذهبًا متطورًا يعتمد على الثقافة العقلية، وأساليب وأصول البحث العلمى والمنطقى والفلسفى فى صياغة مبادئه، وفى تعامله مع الأديان، والمعتقدات، والمذاهب الأخرى.

(١) هو الفيلسوف اليونانى المعروف (أرسطو)(٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م).
(٢) أى أسقطت حججه وبراهينه.
(٣) المنية والأمل.

بما أن المذهب المعتــزلى القـائم فى الأسـاس على العـقل، وعلم الكلام، والجـدل، والفلسفـة، قـد ترك آثاره ولمساته الواضحـة والعميـقـة على التـراث الفكرى للمعـتـزلة وخصوصًا الجانب الأدبى منه، والذى نحن بصدد دراسته واستعراضه فى كتابنا هذا، فقد ارتأينا أن نخصص فصلاً نستعرض فيه بشكل مختصر الأصول والمبادئ التى ارتكز عليها مذهب الاعتزال، وبيان الخصوصيات الفكرية التى امتاز بها المعتزلة عن أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى.

قام مذهب الاعتزال على خمسة أصول أساسية لابد أن تتوافر جميعها فى الشخص لكى يكون معتزليًا دون زيادة أو نقصان[1].

وفيما يلى نذكر أصول المذهب الاعتزالى مع شيء من الشرح:

١ - التوحيد:

ويعد هذا الأصل من أهم الأصول التى قام عليها هذا المذهب، - أى المعتزلة - فهم يعتبرون أنفسهم أشد الطوائف الإسلامية إيمانًا بالتوحيد ودفاعًا عنه إزاء الديانات والمذاهب المشركة التى تعتقد بوجود أكثر من إله واحد وذلك من خلال مناظراتهم، وكتبهم ورسائلهم المتعمقة والواسعة التى ألفوها فى هذا المجال للرد على أصحاب تلك العقائد والديانات.

ونتيجة لتشددهم فى أصل التوحيد فقد نفوا أن يكون لله - تعالى - صفات غير ذلك[2] لأن ذلك يقتضى القول - حسب رأيهم - بالتعدد، وعلى هذا الأساس فقد خالفوا العقيدة التقليدية للسلف والقائلة بقدم القرآن، فقالوا بخلقه[3]، كما أولوا الآيات القرآنية التى يفيد ظاهرها بأن الله - تعالى - يتجسد فى يوم القيامة[4] ونفوا الرؤية نفى استحالة وحكموا بكفر من يقول بها[5].

وقد أجاد الشهرستانى فى وصف عقيدة المعتزلة بشأن التوحيد ونفى الصفات عن الذات الإلهية، ونظرًا إلى شمولية هذا الوصف ودقته واشتماله على الخطوط الرئيسية لعقيدة المعتزلة بخصوص التوحيد، فقد رأينا أن من المناسب أن ننقله، وهو:

---

(١) راجع الفصل لابن حزم جـ٢. (٢) راجع مقالات الإسلاميين جـ١.

(٣) الفرق بين الفرق، والملل والنحل جـ١ (٤) انظر: الإبانة فى أصول الديانة للأشعرى.

(٥) نهاية الأقدام فى علم الكلام للشهرستانى، والفرق بين الفرق.

(. . . فالذى يعمُّ طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً، فقالوا هو عالم بذاته، قادر بذاته، حى بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هى صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخصّ الوصّف لشاركته فى الإلهية، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محلٍ، وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه، فأينما وجد فى المحل عرضٌ فقد فنى فى الحال، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته، لكن اختلفوا فى وجوه وجودها، ومحامل معانيها . . واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكانًا وصورة وجسمًا وتميزا وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسموا هذا النمط توحيدًا)[1] .

٢ - العدل:

ويأتى هذا الأصل فى الدرجة الثانية من الأهمية بعد التوحيد من ناحية اهتمام المعتزلة به، وتوسعهم فيه، وكتابتهم للدراسات والبحوث المستفيضة حوله، صحيح أنهم يتفقون فى هذا الأصل مع سائر الفرق الإسلامية، إلا أن هناك مسائل وموضوعات كثيرة ومتشعبة طرحوها حول أصل التوحيد وكان لها أثر كبير فى مجادلاتهم ومناظراتهم.

ومن تلك المسائل والقضايا التى أثارها المعتزلة فيما يتعلق بمبدأ العدل وأدلوا بدلوهم فيها مسألة القدر، وهل الإنسان مخير فى أفعاله أم مجبر، فقالوا بأن الله - تعالى - ليس له فى أكساب العباد ولا الحيوانات صنع ولا تقدير لا بإيجاد ولا بنفى[2] ، وأن الإنسان يمتلك الاختيار وحرية الإرادة فى أفعاله، ذلك لأن القول بأن الإنسان مجبر فى أفعاله يستلزم - حسب رأيهم - نسبة الظلم إلى الله - تعالى -، فما كان تعالى ليحاسب ويعاقب العبد على فعل شىء أجبره على فعله[3] .

يقول ثمامة بن أشرس أحد زعماء المعتزلة فى بيان هذه العقيدة:

(لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه؛ إما كلها من الله ولا فعل لهم، لم يستحقوا ثوابًا ولا عقابًا ولا مدحًا ولا ذمًا، أو تكون منهم ومن الله، وجب المدح والذم لهم جميعًا، أو منهم فقط كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم)[4] .

---

(١) الملل والنحل جـ١ . (٢) الفرق بين الفرق.

(٣) راجع الفصل لابن حزم جـ٣. (٤) المنية والأمل.

ولعل من أهم القضايا التى أثارها المعتزلة فيما يتعلق بأصل العدل الإلهى قضية الحسن والقبح وهل هما ذاتيان أم أنهما أمران نسبيان يحدّدهما الشرع؟ فعلى ضوء إيما ن المعتزلة المطلق بالعقل، وتعويلهم عليه فى تحديد الكثير من الأحكام، فقد قرروا أن تحديد الحسن والقبح هو أمر موكول إلى العقل، فهو باستطاعته أن يصدر القول الفصل فى هذا المجال، وبناءً على ذلك فقد آمنوا بأن حسن وقبح الأشياء أمران ذاتيان وأن دور الشرع فى هذا المجال هوتقرير وإثبات هذا الحسن أو القبح، وعلى هذا فإن لهما وجودًا مستقلاً قبل أن يقرره الشرع[1] .

والذى يهمنا من ذلك إيمان المعتزلة المطلق بدور العقل فى استنباط الأحكام، واعتمادهم عليه فى مجادلاتهم ومناظراتهم، وانعكاس هذه النزعة العقلية على نتاجاتهم النثرية ومن بينها النتاجات الأدبية التى تميزت بطابع عقلى ومنطقى قوى استطاعوا من خلاله أن يمزجوا مزجًا رائعًا بين الأساليب العلمية و المضامين والموضوعات الأدبية كما سنرى ذلك بوضوح فى الفصل الذى خصصناه لدراسة وبحث واستعراض أدب المعتزلة وتأثير الاعتزال عليه، يقول شوقى ضيف فى هذا المجال :

(أفاد المعتزلة من الفلسفة أن نظمت عقولهم تنظيمًا منطقيًا دقيقًا وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، كما جعلتهم يقدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعانى وتفريعها حتى ليقول بشر بن المعتمر أنهم «فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من الخطباء»)[2] .

٣ - الوعد والوعيد:

وهذا الأصل متفرع من الأصل الثانى (العدل)، وهم لا يختلفون فى تفسير هذا الأصل عن سائر فرق المسلمين، سوى أنهم ينفون الشفاعة على اعتبار أنها تتنافى مع (الوعيد)، ولذلك فقد أولوا جميع الآيات التى ظاهرها إثبات الشفاعة، وتمسكوا بالآيات التى تفيد نفيها[3] .

وأما بالنسبة إلى مرتكب الكبيرة وحكمه الأخروى، فقد قرروا أنه مخلد فى النار

---

(١) راجع المستصفى من علم الأصول للغزالى، والملل والنحل ج١، ونهاية الأقدام.
(٢) البلاغة تطوراً وتاريخًا - شوقى ضيف.
(٣) راجع الفصل لابن حزم ج٤.

استناداً إلى أصل الوعيد الإلهى، إلا أن عذابه أخف من عذاب المشرك أو الكافر نظراً إلى أنه يعتبر فاسقًا من وجهة نظرهم وليس بمشرك ولا كافر[١] .

٤ - المنزلة بين المنزلتين:

وكما مرَّ فإن هذا الأصل هو الذى ميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق، وهو الذى ارتبط بظهورهم ونشأتهم، إذ اتخذوا من خلاله موقفًا وسطًا بين الخوارج والمرجئة.

ولعل المناظرة التى حدثت بين واصل وصديقه عمرو بن عبيد والتى نقلها المرتضى فى أماليه تسلّط لنا الكثير من الأضواء على طبيعة الموقف الوسط والمحايد الذى اتخذه المعتزلة بهذا الخصوص، ولذلك فقد آثرنا نقلها فيما يلى نظراً إلى أهميتها:

(قال واصل: سمى مرتكب الكبيرة فاسقًا[٢] لاتفاق أهل الإسلام على هذه التسمية؛ فالخوارج يسمونه مشركًا فاسقًا، والشيعة يسمونه كافرا بنعمة فاسقًا، والحسن يسميه منافقًا فاسقًا، والمرجئة تسمية مؤمنًا فاسقًا، فاجتمعوا على تسميتهً فاسقًا واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه، فالواجب أن يُطلق عليه الاسم الذى اتفقوا عليه وهو الفسق، ولا يُسمى بما عدا ذلك من الأسماء التى اختلفوا فيها، فيكون صاحب الكبيرة فاسقًا، ولا يقال إنه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر، فهذا أشبه بأهل الدين..)[٣] .

٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

هذ الحكم اتفق على وجوبه جميع المسلمين، إلا أن المعتزلة افترقوا فيه عنهم فى الارتفاع به من ناحية الوجوب إلى مرتبة أصول الدين فى حين ترى فرق المسلمين الأخرى أنه يمثل فرعًا من فروع الدين مع اختلاف فى وسائل تطبيق هذه الفريضة بين اللسان فقط، وبين اللسان واليد والسيف، فأما المعتزلة فيرون وجوب استعمال السيف فى تطبيق هذه الفريضة بالإضافة إلى الوسائل الأخرى[٤] .

---

(١) (انظر: الملل والنحل جـ١).

(٢) الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، وطريق الحق والصواب.

(٣) أمالى المرتضى جـ١ .

(٤) راجع مقالات الإسلاميين جـ١ .

الاعتزال فى الأدب العربى

مقدمة عن دور المعتزلة فى الأدب العربى

يتسع الحديث عن الدور الإيجابى، الذى لعبه المعتزلة فى دفع مسيرة تطور الأدب العربى إلى الأمام وخصوصًا فى مجال النثر، فإليهم يعزى الفضل الأول فى نضج وتطور الدراسات البلاغية بما يشتمل عليه من الأساليب المثلى فى المجادلة والمناظرة، والموضوعات الخاصة بعلم البيان، والمباحث البلاغية المتعلقة بإعجاز القرآن، والدراسات النقدية، أضف إلى ذلك إسهاماتهم فى تطوير أسلوب الكتابة، وإضفاء اتجاهات جديدة عليها لم تعهدها من قبل.

يقول الدكتور (طه حسين) فى هذا الصدد:

(لقد أثرت الهيلينية فى الأدب العربى البحث عن طريق غير مباشر لتأثيرها أولاً فى متكلمى المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين والذين كانوا بتضلعهم فى الفلسفة مؤسسى البيان العربى حقًا، نعم لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليونانى لعهدهم، ولكن لاشك أن تفكيرهم الفلسفى قد أعدهم لأن يتصدروا صناعة البيان، كما كان يتصدرها اليونانيون من بعض الوجوه)(١).

ومما لاشك فيه أن العامل الأول الذى جعل المعتزلة يبرزون فى مجال فن الكتابة والنثر، ويسهمون فى تطويره، وإغناء مواضيعه هو نزعتهم الكلامية، واتباعهم لمبدأ الحوار والمناظرة والجدل فى التعامل مع أصحاب المذاهب والعقائد والديانات الأخرى، هذه النزعة حدت بهم إلى أن يصبوا اهتمامهم فى صياغة الكلام، ويولوا أساليبه وطرقه، ومناهجه عناية فائقة لكى يكون كلامهم مقنعًا، تتوافر فيه شروط وأسس الجدل الصحيح.

وقد روى صاحب كتاب (محاضرات الأدباء) فى هذا المجال رواية معبرة ولطيفة تدلنا على مدى الدور الكبير الذى أداه المتكلمون بصورة عامة، والمعتزلة بشكل خاص فى

---

(١) البخلاء، المقدمة نقلاً عن حديث الشعر والنثر.

تأسيس علم البلاغة والبيان وما يتصل بهما من وضع الأسس العلمية الصحيحة لأداء الكلام والمعانى، فقد روى قائلاً:

(اجتمع متكلمان فقال أحدهما: هل لك فى المناظرة؟ فقال على شرائط؛ ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب[1]، ولا تحكم، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا إذا جوزت لى تأويل مثلها على مذهبى، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلا منا يبنى مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته)[2].

هذه الرواية وغيرها من الروايات تدلنا بوضوح على عظم الدور الذى لعبه المتكلمون بصورة عامة، والمعتزلة بصورة خاصة فى تأسيس وظهور علوم اللغة، وخصوصًا العلوم البلاغية ومن بينها علم البيان، والمعانى، والدراسات المتعلقة بأسرار الإعجاز القرآنى، (فهناك فضل للكلام على الفن الأدبى عند العرب كما كان فضله عظيمًا فى نشأة البلاغة العربية وتطورها واتخاذها صورة علمية ذلك أنها نشأت أول ما نشأت بين المعتزلة ثم ظلت بعد ذلك وثيقة الصلة بالنزعة الكلامية فى أدوارها المختلفة.. فقد كان أسلوب المتكلمين من أجمل الأساليب وأسمحها وأكثرها مرونة وطواعية وهم الذين فتحوا باب علم البيان فى الأدب العربى...)[3].

هذه الخدمات التى قدمها المعتزلة إلى الأدب العربى والتى امتدت من أواخر العصر الأموى أو بدايته (٦٠هـ) وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى (وبشكل متفرق بعد ذلك سقوط بغداد سنة ٦٦٧هـ) تجلت أكثر ما تجلّت على صعيد النثر نظرًا إلى طبيعة التوجّه الذى كان يغلب عليهم وهو التوجه الكلامى والفلسفى والجدلى، ومن المعلوم أن القالب الطبيعى لمثل هذه الموضوعات هو النثر بفنونه المختلفة.

وعلى أثر ذلك أنجب المعتزلة الكثير من الكتاب والأدباء والمصنفين الذين أغنوا الأدب العربى من الناحيتين الكمية والنوعية؛ فمن الناحية الكمية[4] أسهم المعتزلة فى رفد الأدب

---

(١) شغب: هيج الشر. مال عن الطريق. (٢) محاضرات الأدباء جـ١ (٣) البخلاء.

(٤) راجع للاطلاع على المؤلفات الغزيرة التى كتبها المعتزلة؛ مرآة الزمان جـ٣، ومعجم الأدباء جـ١٦، ولسان الميزان جـ٤، ومروج الذهب جـ٤، والمنية والأمل، ومقالات الإسلاميين، والفرق بين الفرق، وكتاب الانتصار من أوله إلى آخر هذا الكتاب، فهرست بأسماء هذه الكتب، وشرح نهج البلاغة، ولسان الميزان جـ١، والمنية والأمل، ووفيات الأعيان جـ٥.

العربى فى عصوره المختلفة بالعديد من المؤلفات والمصنفات فى فروع المعرفة المختلفة تقف الدراسات الكلامية، والبيانية، والبلاغية، والنقدية فى مقدمتها، ومن الناحية النوعية لا يخفى ما كان للأدباء ومتكلمى المعتزلة من دور ضخم فى تطوير فن الكتابة والنثر، وإضفاء اتجاهات، وأساليب، وطوابع جديدة عليه، وفى هذا المجال تتبادر إلى الأذهان أسماء لامعة من رجال المعتزلة وأدبائهم مثل الجاحظ[1]، وأبى حيان التوحيدى، والزمخشرى، وابن أبى الحديد، بالإضافة إلى رجال المعتزلة الأوائل أمثال واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظّام (ت ٨٤٥هـ)، والجبائى، وبشر بن المعتمر، وأبى هذيل العلاف، وعلى الأسوارى.. وغيرهم ممن شهد لهم المؤرخون وعلماء الأدب واللغة ومعاصروهم بالفصاحة، والبلاغة، والتبحر فى علوم اللغة والأدب.

ولعل الخدمة الكبرى التى أسداها المعتزلة إلى الأدب العربى وخصوصًا فى جانبه النثرى تتمثل فى إضفاء العمق والتشعب عليه من خلال ذلك المزج الرائع الذى قاموا به بين الأسلوب الكلامى والعقلى والفلسفى فى تناول وطرح القضايا والموضوعات المختلفة، وبين النثر الأدبى بطابعه الفنى كما نرى هذا الاتجاه بوضوح لدى الجاحظ وأبى حيان التوحيدى[2] وكما يشير إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فى قوله:

(أفاد المعتزلة من الفلسفة أن نظمت عقولهم تنظيمًا دقيقًا وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعانى وتفريعها...)[3].

وهكذا فبفضل المعتزلة وغيرهم من المتكلمين سادت النزعة العقلية والكلامية النثر العربى وخصوصًا فى القرن الرابع الهجرى، فجاء نثرًا نزاعًا إلى الإطناب والتفصيل معتمدًا على القوانين والقواعد المنطقية فى طرح وبسط المواضيع التى تناولها، ومشفوعًا بالأدلة والبراهين، والمقدمات والنتائج المنطقية (ففى هذا العصر غلبت النزعة العقلية على الخيال، وارتفع شأن النثر على شأن الشعر وكثر الكتّاب وقلّ الشعراء)[4]

وثمة خدمة أخرى قدمها المعتزلة إلى الأدب العربى فى جانبه البيانى والبلاغى، وهى أنهم لعبوا الدور الأكبر فى نقل الثقافة اليونانية فى مجال علم البيان والبلاغة إلى الأدب العربى، فقد أسهموا بشكل فاعل من خلال اطلاعهم الواسع على هذه الثقافة عبر

(١) انظر: البيان والتبيين جـ١.
(٢) راجع الفصلين اللذين خصصناهما لهما فى الباب الثالث.
(٣) البلاغة تاريخًا وتطورًا.
(٤) طه حسين - من حديث الشعر والنثر.

محاوراتهم مع النصارى والسريانيين فى نقل آراء اليونانيين فى مضمار العلوم البلاغية إلى علماء البلاغة المسلمين، فكان لهم فضل كبير فى معرفة آراء الأمم الأجنبية فى البيان والبلاغة لكى يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب فى بلاغة الكلام محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية[١] .

وبالفعل فإن هناك شبه إجماع بين مؤرخى الأدب على أن علمى البيان والبلاغة إنما وضعت أسسهما، ونميا وترعرعا فى مدرسة المعتزلة الكلامية، والدليل على ذلك أن الغالبية العظمى من المبرزين فى هذين العلمين، وواضعى المؤلفات والمصنفات فيهما، ومشيدى أسسهما هم من المعتزلة كالجاحظ فى كتابه الذى شاد به أساس علم البلاغة (البيان والتبيين)، وقبله بشر بن المعتمر المعتزلى فى صحيفته الشهيرة، وقد وُصفت هذه الصحيفة بأنها خير ما أثر عن المعتزلة فى البلاغة حتى أواخر القرن الثالث، وقد نقلها الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين[١] ، وصاحب الصناعتين[١] ، وهى تدلنا على مدى استغلال المعتزلة للاحظات العرب والأجانب فى البلاغة وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذ من ملاحظات الطرفين إلى تبين قواعدها السديدة محتكمين فى ذلك إلى عقولهم الناضجة، وبصائرهم النافذة[٢] ، التى ألفها فى بيان أسس ومبادئ البلاغة وطرق إيراد المعانى والكلام، والعتابى، والرمانى، والزمخشرى صاحب التفسير البلاغى والأدبى الشهير (الكشاف)، وكتاب (أساس البلاغة)، والقاضى عبدالجبار المعتزلى الذى خصص جزءاً كاملاً من كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لبحث إعجاز وأسرار البلاغة القرآنية، وأبى حيان التوحيدى فى كتابيه (المقابسات)، و(الامتناع والمؤانسة) ورسالته فى علم الكتابة .

---

(١) شوقى البلاغة .

(٢) شوقى البلاغة . وسيأتى الحديث مفصلاً عن هذه الصحيفة فى الفصل الذى خصصناه للحديث عن بشر كأحد أدباء وأعلام المعتزلة

نظرًا إلى الدور الكبير الذى أداه المعتزلة عمومًا وأدباؤهم خصوصًا فى نشوء، وتطور الدراسات البلاغية في الأدب العربى، فقد ارتأينا أن نخصص موضوعًا لاستعراض جهودهم وإسهاماتهم فى هذا المجال الهام من مجالات الأدب العربى.

ويمكننا أن نقسْم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين هما؛ دور المعتزلة فى تطوير علوم البلاغة عمومًا، ثم دورهم في تطوير وإغناء الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن الكريم والتى يقف فى مقدمتها موضوع بلاغة القرآن وإعجازه، فمما لاشك فيه أن علماء المعتزلة وأدباءهم كان لهم النصيب الأوفر فى هذا الميدان من بين العلماء والأدباء الآخرين.

وفيما يرتبط بموضوع دور المعتزلة فى ظهور العلوم البلاغية وتطورها يمكننا القول أن النواة الأصلية لهذه العلوم نشأت أساسًا بين أوساط المتكلمين الذين كانوا يعنون عناية فائقة باكتشاف الطرق والأساليب الصحيحة لإيراد الكلام لكى تكون مناظراتهم لأصحاب المذاهب الأخرى قائمة على أسس بلاغية ومنطقية صحيحة فظهرت على أثر ذلك اهتمامات تتعلق بأساليب البيان الصحيح، وطرق اختيار المعانى والألفاظ، والمواصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى المتكلم أو الخطيب أو البليغ على الصعيدين الظاهرى والمضمونى لكى يكون كلامه مؤثرًا، ومقبولاً لدى المخاطبين، وفى الواقع فإن مثل هذه الاهتمامات، والاتجاهات تمثل النواة الأصلية للعلوم البلاغية.

وفى الحقيقة فإننا نستطيع أن نقول إن نهضة بلاغية وبيانية واسعة وناشطة حدثت بفضل المتكلمين - وعلى رأسهم المعتزلة - اعتبارًا من بداية القرن الثانى الهجرى، فلقد نشط أتباع كل مذهب فى محاولة استقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع الآخرين إلى مذهبهم، وكانت الحلقات الدراسية والعلمية قائمة على قدم وساق آنذاك فى المساجد كل حلقة منها تجمع أتباع مذهب ما يتدارسون، ويحللون ويستنتجون الأساليب الصحيحة للكلام والمجادلة، ويدعون من خلال تطبيق هذه الأساليب الناس إلى اعتناق مذهبهم.

وقد وصل بهم أمر الحرص على تعلم أساليب وفنون القول، وأسرار ومهارات إقناع الخصوم إلى حد أن زعماء تلك المذاهب كانوا يعمدون إلى تدريب تلامذتهم على أساليب المناظرة الصحيحة؛ فالتاريخ يحدثنا فى هذا المجال أن الحسن البصرى دعا تلميذه عمرو بن عبيد إلى مناظرة واصل بن عطاء بشأن حكم مرتكب الكبيرة وإثبات هل أنه مؤمن منافق أو

فاسق، فما كان من واصل إلا أن استطاع بفضل مهارته، وتمكنه فى الجدل والمناظرة أن يقنع عمراً برأيه وهو أن مرتكب الكبيرة بين منزلتى المؤمن والكافر(١) .

ومن جملة المواضيع التى حظيت باهتمام المعتزلة والتى تتصل اتصالاً مباشراً ووثيقًا بعلوم البلاغة والبيان موضوع مخارج الحروف، وضرورة أن يكون المتكلم والخطيب ممتلكا للقدرة على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة وأن لا تكون فيه عيوب فى النطق.

ويخصص الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) فصولاً مطولة فى بيان محاسن النطق السليم وأثره فى نفس المستمع، وعيوبه والإشارة إلى أثرها السلبى فى أذهان المخاطبين، وإيراد جملة من الأخبار والروايات المتعلقة بالخطباء والمتكلمين وما اشتهروا به من عيوب أو محاسن فى النطق، ومنها الأخبار المتعلقة بواصل بن عطاء وما كان يعانى من لثغة فى الراء ثم تخلصه منها بفضل مكابدته لنفسه، ومغالبته إياها حتى استطاع أخيراً الاستغناء عن حرف الراء فى كلامه(٢) .

ومن بين الأخبار التى يرويها الجاحظ بشأن سلامة النطق وأثره فى وقوع الكلام الموقع الحسن فى النفوس، قوله: (خطب الجمحى خطبةً أصاب فيها معانى الكلام، وكان فى كلامه صفيرٌ يخرج من موضع ثناياه(٣) المنزوعة، فأجابه زيد بن على بن الحسين (المتوفى سنة ١٢١هـ) بكلام فى جودة كلامه، إلا أنه فضله بحسن المخرج، والسلامة من الصفير، وذكر عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ذلك، فقال فى كلمة له يذكر فيها خطبة زيد:

صحت مخارجها وتمَّ حروفها ... فلهُ بــذاكَ مــزيةٌ لا تُنكــر(٣)

وهكذا فإن المعتزلة - من أمثال واصل، والنظّام، وثمامة، وبشر، وعمرو بن عبيد وغيرهم - يعتبرون المؤسسين الأوائل لعلوم البلاغة والبيان إلى درجة أن أقدم تعريف للبلاغة وصل إلينا من قبل علم من أعلامهم هو عمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ) إذ عرف البلاغة بقوله أنها (تخير اللفظ فى حسن الإفهام)(٤) .

ومن ضمن مظاهر إسهام المعتزلة فى تطوير الدراسات البلاغية وإغنائها ودفعها أشواطًا بعيدة إلى الأمام مساهمتهم الفاعلة فى نقل آراء الأمم الأخرى - وخصوصًا اليونانيين - إلى

(١) أمالى المرتضى جـ١.
(٢) البيان والتبيين جـ١، وأيضًا الفصل الذى خصصناه لواصل فى الباب الثالث.
(٣) الثنايا: الثنية إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من تحت.
(٤) البيان والتبيين جـ١.

البلاغة العربية، ونحن نلاحظ فى كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ نقلاً واقتباسًا غزيرًا من الآراء البلاغية للحضارات الأخرى، كقوله:

(قيل للفارسى: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليونانى: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومى: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندى: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسنُ الإشارة)[١]

وفى موضع آخر من كتابه، ينقل الجاحظ صحيفة فى البلاغة لدى الهنود جاء فيها: (.. واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا[٢]، وتلك الحال له وفقًا[٣]، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا فضولاً ولا مقصرًا ولا مشتركًا ولا مضمّنًا.. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحملُ عليهم على أقدار منازلهم، وأن تؤاتيه آلاته، وتتصرف معه أداته...)[١].

ومن بين مظاهر إسهامات المعتزلة محاولة تقديم تعريف للبلاغة، وبيان خصائص البليغ ومواصفاته ويعتبر العتابى بالإضافة إلى عمرو بن عبيد[٤] من بين أوائل العلماء المسلمين الذين حاولوا تقديم تعريف للبلاغة، وبيان حدودها، وشروطها، وقد نقل عن الجاحظ فى (البيان والتبيين) جملة من آرائه ووجهات نظره فى البلاغة، منها قوله فى تعريف البليغ:

(كلُّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة[٥] ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق...)[١].

ومنها أيضًا قوله فى ضرورة المواءمة بين الألفاظ والمعانى والعلاقة الوثيقة بينهما والتى يصفها بأنها كالعلاقة بين الجسد والروح:

(الألفاظ أجساد والمعانى أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها موخرًا أو أخرت منها مقدمًا أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجلٍ لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية...)[٦].

---

(١) البيان والتبيين جـ١.　(٢) أى: مطابقًا.　(٣) موافقة.

(٤) راجع فى ترجمته الأغانى، ومعجم الأدباء، والشعر والشعراء، وطبقات الشعراء، لابن المعتز.

(٥) الحبسة: ثقل فى اللسان يمنع من الإبانة.　(٦) الصناعتين.

وقد أوردنا في الفصل الذى خصصناه للحديث عن بشر بن المعتمر المعتزلى فى الباب الثالث مقاطع من صحيفته الشهيرة فى البلاغة، وسلطنا الأضواء على أهميتها، ومنزلتها فى الدراسات البلاغية وتطويرها[1].

● **دور المعتزلة فى إغناء وتطوير دراسات الإعجاز القرآنى:**

نشط المعتزلة وغيرهم من المتكلمين فى هذا المجال، وأسهموا فى إغناء الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن الكريم، فقدموا فى هذا الصدد مباحث ودراسات واسعة.

وتبرز لنا فى هذا المجال أسماء عديدة من علماء ومتكلمى المعتزلة أدلوا بدلوهم فى هذا المضمار أى مضمار دراسة أسرار الإعجاز القرآنى، ومنهم الزمخشرى المفسّر المعروف للقرآن الكريم، وصاحب تفسير (الكشاف) الشهير الذى بلغ من الروعة والكمال والقيمة حداً حمل خصوم المعتزلة أنفسهم (ومنهم الأشاعرة وأهل السنة) على الاعتراف بقيمته، والاستناد إليه كمصدر هام من مصادر التفسير البلاغى للقرآن الكريم، يقول الدكتور (شوقى ضيف مشيراً إلى قيمة تفسير الكشّاف البلاغية والأدبية بين التفاسير الأخرى:

(نال - الزمخشرى - شهرة مدويّة فى العالم الإسلامى منذ عصره بسبب الكشّاف إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تُعينه فى ذلك بصيرة نافذة تتغلغل فى مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه كما يعينه ذوق أدبى مرهف يقيس الجمال البلاغى قياساً دقيقًا وما يطوى فيه من كمال وجمال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق فى تاريخ التفسير، بل لقد بذّ[2] الأوائل والأواخر حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره على الرغم من اعتزاله ومخالفتهم له فى عقيدته الاعتزالية...)[3].

ومن علماء المعتزلة الآخرين الذين ألفوا فى البلاغة والإعجاز القرآنى على بن عيسى الرمانى فقد كتب رسالة سماها (النكت فى إعجاز القرآن) والقاضى عبدالجبار[4]، فقد خص الجزء السادس عشر من كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لبحث مسألة إعجاز القرآن.

---

(١) راجع ترجمتهما فى الباب الثالث.

(٢) بذه بذاً: غلبه، وفاقه، وسبقه

(٣) شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ.

(٤) ستأتى ترجمتهما فى الباب الثالث.

اشتهر المعتزلة فى التاريخ الإسلامى كناثرين أكثر من شهرتهم فى مجال الشعر، ذلك لأن طبيعة مذهبهم، وكفاحهم المستمر والدؤوب من أجل نشره، ومقارعة الخصوم بحججه وبراهينه، كل ذلك وغيره كان يتطلب منهم أن يبرزوا فى ميدان النثر أكثر من ميادين الأدب الأخرى كالخطابة، والمناظرة والجدل، والكتابة، والتأليف، فظهر منهم على أثر ذلك أدباء وكتاب وبلغاء أفذاذ اشتهروا فى تاريخ الأدب العربى، وتركوا أبلغ الآثار عليه، ولونوه (وخصوصًا فى القرن الرابع الهجرى) بطابعهم فى التفكير وهو الطابع العقلى الميال إلى الإطناب، وإيراد الحجج والبراهين، والمناقشة، واستطاعوا بفضل مقدرتهم الأدبية والفنية أن يدخلوا الموضوعات العلمية، والعقلية، والجدلية نطاق الأدب، ويطوعوها للأسلوب الأدبى الفنى، كما نلاحظ ذلك بشكل جلى فى مؤلفات الجاحظ، وأبى حيان التوحيدى على ما سنرى.

وفيما يلى نتحدث عن أنواع الفنون النثرية التى برز فيها المعتزلة، وتجلّت فيها نزعتهم الفلسفية والكلامية، وأسهموا فى إغناء وتطوير الأدب العربى من خلالها:

١ - الجدل :

وهو أحد الفنون النثرية التى أبدع فيها المعتزلة وتفننوا أيما افتنان نظرًا إلى أن مذهبهم كان يقوم أساسًا على الجدل والمناظرة، وأنهم وظفوا كل الأساليب والمهارات والفنون الجدلية فى مناظراتهم مع أصحاب المذاهب الأخرى.

ونعنى بالجدل هنا القدرة على إفحام الخصم، والتصرف فى فنون الكلام والقول بما يقنع هذا الخصم أو يفحمه استنادًا إلى أصول وقواعد وأساليب الجدل والمناظرة التى اقتبسها المعتزلة من اليونانيين وبرعوا فى تطبيقها، بعد أن تمثلوها وهضموها جيدًا.

وقد روت لنا كتب التاريخ وخصوصًا تلك التى اهتمت بنقل أخبار المعتزلة الكثير من أخبارهم ونوادرهم بشأن مقدرتهم الجدلية على إفحام الخصوم مثل كتاب الانتصار، وأمالى المرتضى، وتاريخ بغداد، والمنية والأمل وغيرها، وفيما يلى ننقل نماذج من تلك الأخبار:

- نقل المرتضى فى أماليه: (قال أبو الهذيل لمجوسى: ماتقول فى النار؟ قال: بنت لله. قلت: فالبقر؟ قال: ملائكة الله قص أجنحتها وحطها على الأرض يحرث عليها.

فقلت: فالماء؟ قال: نور الله. قلت: فما الجوع والعطش؟ قال: فقر الشيطان وفاقته. فقلت: فمن يحمل الأرض؟ قال: بهمن الملك، قلت: فما في الدنيا شر من المجوس؛ أخذوا ملائكة الله فذبحوها، ثم غسلوها بنور الله، ثم شووها ببنت الله، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته، ثم سلخوها على رأس بهمن أعز ملائكة الله، فانقطع المجوسي وخجل مما لزمه)[(١)]

وفي الحقيقة فإن هذا النموذج الذي أوردناه يدل على ثقافة واسعة كان المعتزلة يسلحون بها أنفسهم قبل أن يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى كما أنه يدل على أنهم كانوا يعدون العدة أولاً لمناقشة الخصم من خلال وضع خطة محكمة وطرح أسئلة معينة تنتهي بهذا الخصم إلى لزوم الصمت في نهاية المناظرة، وسلب القدرة منه على الاستمرار في المجادلة؛ فالأسئلة التي طرحها أبو الهذيل على خصمه المجوسي تدلنا بوضوح على انه يعرف الأجوبة مسبقا، ولكنه استهدف من وراء طرح هذه الأسئلة الوصول إلى نتيجة معينة حسب لها حسابها سلفًا.

- وروى عن النظام، أحد أبرز زعماء المعتزلة، ومجادلتهم، ومتكلميهم، نماذج كثيرة من قدرة المعتزلة على إفحام خصومهم بالحجة، والدليل، وفنون الجدل، ومن ذلك ما رواه أبو الحسين الخياط في كتاب الانتصار:

(اعلم - علمك الله الخير - أن المنانية تزعم أن الصدق والكذب مختلفان متضادان وأن الصدق خيرٌ وهو من النور، والكذب شر وهو من الظلمة، فسألهم إبراهيم (أي النظام) عن مسألة ألزمهم فيها أن الفاعل الواحد يكون منه شيئان مختلفان: خير وشر وصدق وكذب، وفي هذا هدم القول بقدم اثنين أحدهما خَيِّر، والآخر شرير وهي مسألة مشهورة، قال لهم: حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه: من الكاذب؟ قالوا الظلمة، قال: فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب، وقال: (قد كذبت وقد أسأت) من القائل (قد كذبت)؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون، فقال لهم إبراهيم: إن زعمتم أن النور هو القائل (قد كذبت وأسأت) فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله، والكذب شرٌ، فقد كان من النور شرٌ وهذا هدم قولكم، وإن قلتم: إن الظلمة قالت: (قد كذبت وأسأت) فقد صدقت، والصدق خير فقد كان من الظلمة صدق وكذب، وهما عندكم

(١) أمالي المرتضى جـ١.

مختلفان، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان، خيرٌ وشرٌّ على حكمكم، وهذا هدمُ قولكم بقدم الاثنين، فإذا كانا على ما وصفتم فكيف امتزجا وتداخلا، واجتمعا من تلقاء أنفسهما وليس فوقهما قاهرٌ قهرهما، ولا جامعٌ جمعهما ومنعهما من أعمالهما كما يمنع الحجر مما فى طبعه من الانحدار، وكما يمنع الماء مما فى طبعه من السيلان، بل ينبغى أن يكونا لا يزدادان إلا تباينًا ومفارقة على قولكم)(١) .

وهكذا ينتصر النظّام على خصومه الملحدين بفضل دقة ملاحظته، وتدرجه فى إيراد الحجج والبراهين استنادًا إلى مذهبهم هم أنفسهم، وإلى الأساليب المنطقية فى الجدل والمناظرة، وبراعته هو نفسه فى الاستخدام الصحيح لهذه الأساليب، وهى ظاهرة جديدة فى النثر العربى الذى كان قبل دخول الثقافة اليونانية عليه نثرًا بسيطًا يعتمد على الأساليب والقواعد العقلية البسيطة والبدائية، ولكن ماإن ظهر المعتزلة، وما إن قاموا بدورهم التاريخى فى نقل الثقافة اليونانية فى جانبها المنطقى والفلسفى إلى الحضارة الإسلامية حتى دخلت النثر العربى ظواهر جديدة لم يكن له عهد بها قبل ذلك.

- وروى صاحب المنية والأمل لثمامة بن أشرس(٢) قائلاً:

(قال ثمامة يومًا للمأمون: أنا أبين لك القدر بحرفين وأزيد حرفًا للضعيف، قال: ومن الضعيف؟ قال: يحيى بن أكثم(٣) ، قال: هات، قال: لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه، إما كلها من الله ولا فعل لهم، لم يستحقوا ثوابًا ولا عقابًا ولا مدحًا ولا ذمًا، أو تكون منهم ومن الله، وجب المدح والذم لهم جميعًا، أو منهم فقط، كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم، قال: صدقت)(٤) .

وثمامة فى النص السابق فى معرض إثبات عقيدة المعتزلة التى عرفوا بها وهى أن الإنسان حر مختار فى أفعاله وأن الشر والخير منسوبان كلاهما إليه، وقد استعرض خلال عملية الإثبات هذه جميع الاحتمالات الممكنة ومدى تطابق كل منها مع حكم العقل والمنطق، مثبتًا فى نهاية جدله صحة مقولة اختيار الإنسان فى أفعاله لتطابقها مع العقل والمنطق، وخطأ عقيدة الجبرية.

---

(١) الانتصار. (٢) أوردنا ترجمته فى الباب الثالث.

(٣) يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢هـ): فقيه كبير ذو اجتهاد، ولد بمرو وتوفى فى الربذة، ولى قضاء البصرة وعمره عشرون سنة، قاضى قضاة بغداد على أيام المأمون، ومدبر المملكة عزله المتوكل، له كتب فى الفقه [المنجد فى الأعلام].

(٤) المنية والأمل.

ويعتبر أبو على الجبائى[1] علمًا آخر من أعلام الجدل والأدب لدى المعتزلة، قال المرتضى بشأنه راويًا إحدى نوادره فى الجدل:

(وكان على حداثة سنه معروفًا بقوة الجدل، حكى القطان: أنه اجتمع جماعة لمناظرة فانتظروا رجلاً منهم فلم يحضر، فقال بعض أهل المجلس: أليس هنا من يتكلم؟ وقد حضرَ من علماء المجبرة رجل يقال له صقرٌ، فإذا غلام أبيض الوجه زج[2] نفسه فى صدر صقر وقال له: أسألك؟ فنظر إليه بعض الحاضرين وتعجبوا من جرأته مع صغر سنه، فقال: هل الله تعالى يفعل العدل؟ قال: نعم، قال: أفنسميه بفعل العدل عادلاً؟ قال: نعم، قال: فهل يفعل الجور؟ قال: نعم، قال: أفنسميه جائرًا، قال: لا قال: فيلزم أن لا نسميه بفعل العدل عادلاً. فانقطع)[3].

وهذا النموذج من الجدل يجرى مجرى النماذج السابقة من اعتماد الأساليب والقواعد المنطقية والعقلية فى إفحام الخصوم، وسد سبل الجدل والنقاش عليهم، وهذه النماذج إن دلت على شىء فإنها تدل بالتأكيد على سعة اطلاع المعتزلة وتعمقهم فى قواعد وأصول وأساليب الجدل كما حددها علماء المنطق، ومدى تمرسهم، ومهارتهم فى استخدام تلك الأصول والأساليب.

• ظواهر ومواضيع جديدة ميزت نثر المعتزلة:

امتاز المعتزلة عن غيرهم ممن امتهن النثر والكتابة بخصائص قلّما نلاحظها عند غيرهم، وبالطبع فإن الفضل فى ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المذهب الذى اعتنقه أولئك الأدباء والكتاب، وهو مذهب المعتزلة القائم على أساس احترام العقل وتقديسه، والنزوع إلى الجدل، وتقصّى التفاصيل، والدقّة فى العرض، وما إلى ذلك من خصائص تميز المتبحرين فى علم الكلام، والمنطق، والفلسفة.

كلّ تلك الاتجاهات والنزعات انعكست على ما تركه لنا المعتزلة من آثار نثريّة وأدبية فجاءت هذه الآثار مكتسبة الطابع الاعتزالى فى التناول، والعرض، والتحليل على ما سنرى فى الصفحات التالية.

---

(١) راجع ترجمته فى الباب الثالث.

(٢) زج: رمى.

(٣) المنية والأمل.

● أثر النزعة الكلامية على أدب المعتزلة:

فمن آثار الاعتزال فى نثر المعتزلة أننا نرى أدباءهم كثيراً ما يتحدثون فى نثرهم عن موضوعات بوحى من تأثرهم بنزعتهم الكلامية، والعقلية، كالحديث مثلاً عن الشىء ونقيضه، وهى ظاهرة نراها فى آثار الكثير من أدباء المعتزلة وكتابهم وخصوصًا الجاحظ الذى قال عنه (ابن قتيبة) مشيراً إلى هذه الخصوصية التى نراها بغزارة فى مؤلفاته:

(. . . ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه، ويحتج بفضل السودان على البيضان، ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية[1] على العثمانية وأهل السنة ومرة يفضل عليًا رضي الله عنه ومرّة يؤخره. . .)[2].

● نماذج من البخلاء للجاحظ:

وقد حفل كتاب (البخلاء) للجاحظ بصورة فنية بديعة من هذا اللون من الأدب الذى من المؤكد أن المعتزلة مالوا إليه نتيجة لتأثرهم بالفلسفة والمنطق اليونانى فى جانبه السفسطائى القائم على أساس المغالطات، وإثارة الشكوك حول القضايا المختلفة، أضف إلى ذلك أن اليونانيين كانوا يعمدون إلى التمرن على فنون القول، والمناظرة، من خلال إثبات الشىء، ثم نفيه.

وفيما نورد نموذجًا من نثر الجاحظ فى هذا المجال، وهو يصف أحد بخلائه ويدعى (تمام ابن جعفر):

(. . . وكان إن قال له نديم له: مافى الأرض أحد أمشى[3] منى، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر[4] منى، قال: وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟ لا حمد الله من يحمدك فإن قال: لا والله إن[5] أقدر أن أمشى، لأنى أضعف الخلق عنه، وإنى لأنبهر[6] من مشى ثلاثين خطوة، قال: وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالاً، وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأىُّ بطين[7] يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ[8] ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى النكير[9]؟

---

(١) وهم طائفة من الشيعة تقول بإمامة زيد بن على بن الحسين.
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة جـ١.
(٣) أمشى: أكثر قدرة على المشى.
(٤) الحضر: العدو الركض.
(٥) إن: حرف نفى يعمل عمل ليس.
(٦) أنبهر: بُهر وانبهر: انقطع نفسه من السعى الشديد.
(٧) بطين: عظيم البطن.
(٨) الكظيظ: الممتلئ من الطعام.
(٩) النكير: الشديد الصعب.

فإن شكا ضرسًا وقال: ما نمت البارحة من وجعه وضرباته، قال: عجبت كيف اشتكيت واحدًا وكيف لم تشتك الجميع، وكيف بقيت إلى اليوم فى فيك حاكة[1] ؟ وأى ضرس يقوى على الضّرس والطحن.. وإن قال: لا والله إن اشتكيت ضرسًا لى قط، ولا تجلجل[2] لى سن عن موضعه منذ عرفت نفسى، قال: يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العمور[3] وتقوى الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولها، وإعفاء الأضراس من المضغ يريحها، وإنما الفم جزء من الإنسان...).

والجاحظ يبدو لنا فى النص السابق أديبًا، وفنانًا قديرًا، آخذًا بزمام الكلام، متمكنًا من تصريفه حيث شاء وإقناع القارئ بما يريد أن يطرحه من أفكار، وهو فن شاع لدى كتاب القرن الرابع عمومًا، وكتاب المعتزلة خصوصًا الغرض منه أن يبرز الكاتب مقدرته ومهارته فى تصريف وجوه الكلام إثباتًا ونفيًا من خلال ذكر الشىء ونقيضه، وهناك غرض آخر يلحظه البعض (كالجاحظ) وهو التهكم، والسخرية بواسطة ذكر المفارقات والمتناقضات وهو فنّ نثرى آخر أبدع فيه المعتزلة، سنأتى على ذكره فى الصفحات التالية.

● ذكر الشىء ونقيضه:

ومن النماذج الأخرى الطريفة التى ذكرتها كتب الأدب لهذا الضرب من النثر ما رواه المرتضى فى أماليه عن النظّام من (أن أباه جاء به يومًا إلى الخليل بن أحمد ليتعلم منه فقال له الخليلُ يومًا ليمتحنه وفى يده قدحُ زجاجٍ: يابنى صف لى هذه الزجاجة، فقال: أبمدح أم بذم: قال بمدح، قال: نعم، تريك القذى، وتقيك الأذى، ولا تستر ما ورا. قال: فذمها. قال: سريع كسرها، بطئ جبرها، قال: فصف هذه النخلة، وأومأ إلى نخلة فى داره، فقال أبمدح أم بذم: قال بمدح، قال: حلو مجتناها، باسقٌ منتهاها، ناضرٌ أعلاها، قال: فذمّها. قال: هى صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى، فقال الخليل: يابنى نحن إلى التعلم منك أحوج)[4] .

وهذه الأجوبة من النظّام تدل على الذكاء الحاد، وسرعة البديهة، ومقدرة أدبية فائقة على الإتيان بالصناعات البديعية كالسجع.

---

(١) الحاكة: السن.

(٢) تجلجل: تضعضع.

(٣) العمور: واحدها عمر وهو لحم ما بين الأسنان

(٤) أمالى المرتضى جـ١.

● **الوصف:**

ومن ضمن المجالات النثرية الأخرى التى برع فيها المعتزلة أكثر من غيرهم، وعرفوا بها الوصف بنوعيه الحسّى، والمعنوى؛ أى وصف الأشياء الحسية، والمعانى والمفاهيم المعنوية.

وقد تميز وصف المعتزلة بالدقة، واستيعاب التفاصيل، والخيال الخصب، والصور البلاغية والبيانية البديعة، والإطناب، ومن ضمن الظواهر الجديدة التى أتوا بها فى مجال الوصف والتى لم تكن معهودة تمامًا فى النثر العربى وصفهم للمفاهيم والحقائق المعنوية كاللذة، والألم، والسعادة، والشقاء والعشق، والخوف، والجبن، والكرم، والبخل، وبالتأكيد فإن الاتجاه إلى وصف المعانى والمفاهيم يعد أثرًا من آثار الاعتزال القائم على النزعة العقلية فى آثار ومؤلفات المعتزلة، هذه النزعة التى دفعتهم إلى أن يعالجوا كلّ ما له صلة بعالم المعانى فى نثرهم.

وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا الاتجاه الوصفى لم يكن قبل ازدهار الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى شائعًا فى النثر العربى، وإنما كان مقصورًا غالبًا على الشعر، وبذلك فقد كان للمعتزلة فضل كبير فى إدخال هذا اللون من الوصف إلى الأدب العربى فى العصور الإسلامية المتأخرة بعد القرن الثانى الهجرى.

● **نماذج من وصف المعتزلة:**

تصادفنا فى كتاب البخلاء، والحيوان للجاحظ، الكثير من النماذج الرائعة الطريفة للوصف بالمواصفات التى ذكرناها منها قطعة وصفية وصف من خلالها الجاحظ صورة معركة عنيفة حدثت بين ذبابة ملحاح، والقاضى (عبدالله بن سوار) قاضى البصرة، يقول الجاحظ فى تصوير هذه المعركة الطريفة:

(كان لنا بالبصرة قاض يقال له (عبدالله بن سوار) لم ير الناس حاكمًا قطّ ولا زميتًا[1]، ولا ركينًا[2]، ولا وقوراً حليمًا، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك، كان يصلى الغداة فى منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتى مجلسه فيحتبى[3] ولا يتكئ، فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له عضو ولا يلتفت، ولا يحل حبوته[4]، ولا يحول رِجْلاً على رِجْلٍ، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة

---

(١) جميلاً وقوراً. (٢) الركين: الثابت الرزين.

(٣) احتبى بالثوب اشتمل به، جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٤) الحَبْوَة والحُبْوة: ما يحتبى به.

منصوبة . . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه، وفى السماط[1] بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال المكث، ثم تحول إلى مُوْق عينيه، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق[2] ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته[3] ، أو يغضن[4] وجهه، أو يذب[5] بإصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله، وأوجعه، وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في كل مكان أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد فى شدة الحركة، وفى فتح العين، وفى تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فمازال يلح عليه حتى استفرغ صبره، وبلغ مجهوده، فلم يجد بدًا من أن يذب عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه، وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن يذب عن وجهه بطرف كُمه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أن فعله كان بعين من حضره من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء، وأزهى من الغراب، وأستغفر الله، فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً، وقد علمت أنى عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ وكان بَيّنَ اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيبًا فى أصحابه، وكان أحدٌ منهم لما يطعن فى نفسه، ولا فى تعريض أصحابه للمنالة)[6] .

وبعد، فإن الجاحظ يعرض لنا فى النموذج السابق صور فنية طريفة رائعة ممزوجة ببعض التندر والفكاهة، لمشهد طريف يصور لنا فيه معركة عنيفة حامية الوطيس بين ذبابة لجوج ملحاح وبين رجل عرف عنه الهيبة والوقار (وهذا ما يزيد الصورة طرافة ويضفى عليها أكثر الجانب الفكاهى) خصوصًا وأن الجاحظ أطنب كثيراً فى مقدمة النص في وصف وقار الرجل وهيبته وعظم قدره لدى أصحابه، ولنا أن نتصور مدى طرافة الصورة الفكاهية لهذا

---

(١) سماط القوم صفهم والجمع سُمُط .
(٢) المؤق : مجرى الدمع من العين .
(٣) أرنبة الأنف : طرفه .
(٤) يغضن : يتثنى ويجعد .
(٥) يذب : يدفع .
(٦) الحيوان جـ٣ .

الرجل المسكين الذى يحاول جهد الإمكان أن يبدو على هيئة وقورة مهيبة أمام الناس، وهو يدافع تلك الذبابة المزعجة التى آلت على نفسها أن تخرجه عن وقاره وسكونه المعهودين عنه.

وسواء أكانت هذه الصورة حقيقية أم من نسج خيال الجاحظ الذى عُرف بخياله الخصب، وقدرته الفذّة على ابتداع الصور والمعانى، فإنها تدلّنا على مدى قدرة أدباء وكتّاب المعتزلة على استغراق صنعة الوصف بكل مفرداتها وتفاصيلها، ومحاولتهم من خلال هذا الوصف الدقيق المتشعب النفوذ من الظواهر الخارجية إلى أعماق المشاعر والأحاسيس الإنسانية الكامنة وراءها.

• نماذج من وصف المعتزلة للأمور المعنوية:

ومن نماذج وصف المعتزلة للأمور المعنوية ما نقل عن أبى هذيل العلاف فى وصف حقيقة العشق، حيث يقول فى هذا المجال:

(العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتعه[١] فى الأجسام، ومشرعه[٢] فى الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون، متفنن الأوهام، لا يصفو له مرجو، ولا يسلم له مدعوٌ، تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع[٣] الموت، ونقعة[٤] من حياض الثكل غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة توجد فى الشمائل، وصاحبه جوادٌ لا يصغى إلى داعية المنع، ولا يصيخ[٥] لنازع العذل)[٦].

• إدخال الموضوعات العلمية والفلسفية فى مجال الأدب:

ومن بين الإسهامات الأخرى التى أسهم من خلالها المعتزلة بشكل فاعل ومؤثر فى إغناء الأدب العربى، وتنويع أغراضه وموضوعاته التى كانت مقتصرة على الأغراض التقليدية كالرسائل الإخوانية، ورسائل الاعتذار، والاستعطاف، والإخوانيات وما إلى ذلك، إدخالهم للموضوعات العلمية والفلسفية فى مجال الأدب، وإخضاع تلك الموضوعات للأسلوب الأدبى، والمعالجة الفنية، وتبسيط هذه الموضوعات من خلال ذلك وتقديمها إلى عامة الناس.

---

(١) المرتع: المكان الخصب الذى لا يعدم الإنسان فيه شيئًا. (٢) المشرع: والجمع مشارع: مورد الشاربة.

(٣) النقيع: الشراب، أو الماء البارد العذب، والمراد هنا السم.

(٤) نقعة: الغرفة من الماء المتجمع (٥) يصغى ويستمع.

(٦) وفيات الأعيان جـ٣.

١ - الجاحظ :

ويبرز لنا فى هذا المجال ثلاثة كتّاب من المعتزلة أغنوا الأدب العربى فى هذا المجال من خلال كتاباتهم وتأليفاتهم الغزيرة فى الموضوعات العلمية والفلسفية وتقديمها بأسلوب أدبى وفنى رائق وجذاب، وهم الجاحظ وأبو حيان التوحيدى، والصاحب بن عبّاد.

فمن نثر الجاحظ فى هذا المضمار، تحدثه عن بعض القضايا الفلسفية المعقدة من مثل قضية الخير والشر، وضرورة امتزاجهما مع بعض، وتواجدهما معًا لكى تتحقق مصلحة الكون، وعمارة الأرض كقوله فى كتاب (الحيوان):

(اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مُدَّتها، امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشر صرفا هلك الخلق، أو كان الخير محضًا سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبين، ولا دفع مضرة، و لا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل فى بيان، ولا تنافس فى درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة، وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الأنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السبع والبهيمة. . . فسبحان من جعل منافعها نعمة، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين ملذ ومؤلم وبين مؤنس وموحش، وبين صغير حقير، وجليل كبير، وبين عدو يرصدك وبين عقل يحرسك، وبين مسالم يمنعك، وبين معين يعضدك، وجعل فى الجميع تمام المصلحة، وباجتماعهما تتم النعمة وفى بطلان واحد منهما بطلان الجميع قياسًا قائمًا وبرهانًا واضحًا . .)[1] .

إن الأسلوب الأدبى واضح فى ثنايا النص السابق رغم أن الجاحظ يطرح قضية فلسفية بحتة هى قضية حقيقة امتزاج الخير بالشر، وضرورة هذا الامتزاج لتسيير أمور الكون والحياة، ولكى يجد الثواب والعقاب معناهما ومصداقهما، وتتحقق الحكمة من خلق الجنة والنار، ويجد الإنسان طعم السعادة بعد الشقاء، واللذة بعد الألم.

---

(١) الحيوان جـ١ .

ومع أن هذا الموضوع يعد من الموضوعات الفلسفية المعقدة القائمة على التأملات والملاحظات الذهنية المجردة إلا أن الجاحظ وبفضل أسلوبه الأدبى والفنى الشيق استطاع أن يقدم هذا الموضوع إلى القراء فى حلة أدبية رائعة أبعدت الجفاف العلمى الرتيب عن الموضوع.

٢ - أبو حيان التوحيدى:

وكما عرف الجاحظ بهذا الاتجاه، فقد عُرف أيضًا به جاحظ القرن الرابع أبو حيان التوحيدى وربما بغزارة أكثر لأن أبا حيان اتجه فى مؤلفاته غالبًا إلى طرح القضايا الفلسفية بأسلوبه الميال إلى الروح الأدبية كما نلاحظ ذلك بوضوح فى (المقابسات) و(الإمتاع والمؤانسة).

ومن النماذج فى هذا المجال النص التالى الذى اقتبسناه من كتاب (المقابسات) حيث يتحدث (أبو حيان) عن موضوع فلسفى هو أن العالم من حيث هو كائن فاسد، ومن حيث هو فاسد كائن:

(العالم من حيث هو كائن فاسد، ومن حيث هو فاسد كائن، فلذلك نظمه بدد، وبدده نظم، ومتصله مفصول، ومفصوله متصل، وغفله موسوم، وموسومه غفل، ويقظته رقاد، ورقاده يقظة، وغناه فقر، وفقره غنى، وحياته موت، وموته حياة.. ها هنا مثل ينزع إلى الحس ضرورة، ويعترف به العقل اضطرارًا، انظر إلى السماء نظرًا شافيا، وتأملها تأملا بليغًا وحل فى آفاقها ببحثك ونظرك مليًا، واستقر صورها استقراء تامًا، فإنك تجد نجومها منتثرة متساقطة كأن سلكها قد وهى، ونظمها قد انخرط، وعلى هذا إدراك الحس، وسابق العيان، وشهادة النظر، وظاهر الخبر والأثر، ثم إنك لا تستثبت بعد إمعان النظر، وإنعام الفحص، ومواصلة البحث أن تجدها متسقة اتساقًا ومتفقة اتفاقًا، وموزونة وزنًا، ومعدلة تعديلاً، ومنظومة نظمًا، ومعبأة تعبئة، ومزينة بكل زينة، ومحلاة بكل حلية حتى يقضى اختيارًا واضطرارًا، وانتهارًا واقتدارًا أنها زالت عن حالتها المعروفة، أوحالت عن صورتها المألوفة بأقل مثقال ذرة، أو هباءة تربة..)(١).

ويعالج التوحيدى فى النص - كما هو الحال بالنسبة إلى الجاحظ - واحدًا من المواضيع الفلسفية معالجة دقيقة، متقصية بأسلوب تغلب عليه الروح الأدبية والفنية من خلال

(١) المقابسات، وسيأتى شرح غريب هذا النص فى الباب الثالث فى الفصل الذى عقدناه لترجمة أبى حيان التوحيدى.

توظيف السجع، واستخدام المقابلات محاولاً بذلك أن يستعرض القضايا الفلسفية التى اهتم المعتزلة بتناولها وطرحها بأسلوب أدبى مبسط يفهمه عامة الناس، وهى - هنا- قضية اقتران الكون مع الفساد، والظهور مع الزوال، والنشوء مع الانتهاء فى جميع ظواهر الكون فبينما هى تتكون وتظهر إلى الوجود إذا بها تسلك طريق الفساد والزوال، وبينما هى تفسد ويتبدد نظمها إذا بها تعاود اتساقها، وانتظامها من جديد.

ولا يكتفى (أبو حيان) بعرض الظواهر التى تؤيد فكرته، بل يدعو قارئه إلى أن يلاحظ ويستقرئ ذلك بنفسه عبر التأمل الدقيق والمتمعن والعميق للظواهر الكونية ومنها السماء وماتحفل به من أبراج ونجوم تبدو متناثرة فى غير مانظام واتساق، ولكن من خلال الملاحظة الدقيقة يكتشف الإنسان النظام والاتساق بينها، واستقرارها فى مواقع محددة لا تحيد عنها تحقيقًا لهدف واحد عينه لها الخالق - سبحانه-.

٣ - الصاحب بن عبّاد

ومن نماذج نثر الصاحب بن عبّاد الشاعر والكاتب المعروف فى القرن الرابع الهجرى رسالة فى الطب بعث بها إلى أحد أصدقائه وقد شكا إليه علة ألمت به:

(قد عرفت ما شرحه مولاى من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية، فأما الذى يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلأمرين: أحدهما أن الجسم كما قلت آنفًا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفيات، ولزت بها المبردات، وقلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلابد من أن يطفى ويغذى، ثم يكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها..)(١).

• التهكم والسخرية والنقد:

ومن ضمن الاتجاهات الأخرى الشائعة فى نثر المعتزلة مما يشكل إحدى خصوصيات نثرهم وإسهاماتهم فى الأدب العربى الميل إلى التهكم والسخرية، ومزج الجد بالدعابة والمرح، ولعل هذه الخصوصية تعود بالدرجة الأولى إلى ما عرف عن المعتزلة من اعتداد

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣. وهى رسالة طويلة فى الطب قال عنها الثعالبى: (سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذرى يقول: إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادا عليها (إلى أن قال) ووجدتها تجمع إلى ملاحة البلاغة، ورشاقة العبارة حسن التصرف فى لطائف الطب وخصائصه وتدل على التبحر فى علمه، وقوة المعرفة بدقائقه).

بأنفسهم وبمبادئهم وأفكارهم وإيمانهم بها إلى الحد الذى جعلهم يتهكمون من الآخرين ويسخرون بسلوكياتهم ومعتقداتهم وأفكارهم ولكنه مع ذلك ليس من نوع التهكم الذى منشؤه الضغائن والأحقاد الشخصية والقبلية كما نرى ذلك فى الهجاء، ويمكننا أن نقول فى هذا المجال أن الهجاء معدوم فى أدب المعتزلة، وأن التهكم والسخرية جاءا ليحلا محل الهجاء فى آثارهم، وبذلك فقد أسهموا من خلال ذلك فى ترسيخ دعائم لون جديد من الألوان الأدبية ألا وهو فن التهكم، والسخرية، والفكاهة الذى شاع فى العصور العباسية المتأخرة.

• نماذج من نثر المعتزلة الساخر:

قال ثمامة بن أشرس للمأمون وهما بصدد الحديث عن العامة: (. . . إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، والله يا أمير المؤمنين مررت منذ أيام فى شارع وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدويةً وهو قائمٌ ينادى: هذا دواءٌ لبياض العين والغشاوة والظلمة، وإن إحدى عينيه لمطموسةٌ، والأخرى موشوكة[1]، والناس قد اجتمعوا، فدخلت فى غمار تلك العامة ثم قلت: يا هذا! إن عينيك أحوج من هذه الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء، وتخبر أنه شفاء لوجع العين، فلم لا تستعمله؟ فقال: أنا فى هذا الموضع منذ عشرين سنة فما مرَّ بى شيخٌ أجهل منك، قلت: وكيف ذلك؟ قال: يا جاهل، أتدرى أين اشتكت عينى؟ قلت: لا. فقال: اشتكت بمصر وكيف ينفعها دواء بغداد؟ قال: فأقبلت الجماعة وقالوا: صدق الرجل، أنت جاهلٌ، فقلت: لا والله ما علمت أن عينيه اشتكت بمصر، فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة، فضحك المأمون وقال: ما لقيت العامة منكم؟ قلت: ما لقيت من الله أكبر، قال: أجل)[2].

إن ثمامة يسخر فى قصته التى رواها للمأمون من جهل دهماء الناس وعامتهم، وسذاجتهم، وتصديقهم ادعاء كل مدّعٍ، فهذا النثر يمكننا أن ندرجه تحت عنوان الأدب الساخر من المجتمع وما يشيع فيه من معتقدات وقناعات لا تستند إلى دليل، ولا تعتمد على برهان وحجة منطقية، ثم حماس هؤلاء العامة، ودفاعهم الأعمى عن تلك المعتقدات.

---

(١) لم نعثر لهذه الكلمة على معنى يناسب السياق، وربما كان أصلها (مشاكة) بمعنى دخل فيها الشوك.
(٢) المنية والأمل.

● **التهكم من الخرافات:**

ولذلك فقد شاع بين المعتزلة لونٌ من السخرية ينصبّ على التهكم من الخرافات والخزعبلات المنتشرة بين عامة الناس، وهو لونٌ ينضوى تحت عنوان الأدب الساخر والمتهكم مصدره الرئيسى النزعة العقلية للمعتزلة، وإيمانهم بضرورة وجود الأسباب والمقدمات والعلل للظواهر المختلفة والأسباب المنطقية المؤدية إليها، ولذلك فليس من العجيب أن نرى المعتزلة يخصصون جزءاً من آثارهم النثرية للسخرية من الخرافات ومحاربتها، كقول الجاحظ فى كتاب (الحيوان) ساخراً من ادعاء البعض أن من الممكن أن تنعقد صلة بين الإنس والجن:

(وللناس فى هذا الضرب ضروبٌ من الدعوى، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها؛ كالذى يدَّعون من أولاد السعالى[1] من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروى أبو زيد النحوى عن السعلاة التى أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم، فلما رأت برقًا يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت إليهم فقال شاعرهم:

أتوا نارى فقلت منون أنتم[2] فقالوا الجنُّ، قلت عمُّوا ظلاما
فقلتُ إلى الطعامِ فقالَ منهم زعيمٌ نحسدُ الإنسَ الطعاما

ولم أعب الرواية وإنما عبتُ الإيمان بها والتوكيد لمعانيها، فما أكثر من يروى هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرواية له سببًا لتعريف الناس حق ذلك من باطله)[3].

وللنظّام تفسير علمى طريف لظاهرة الاعتقاد بوجود تلك الكائنات الأسطورية بين الأعراب يدل على عظم ثقافة المعتزلة، ووعيهم، وتفكيرهم العلمى، فالنظّام يفسر هذه الظاهرة فى النص التالى تفسيراً علميًا يرجعها إلى أسباب نفسية تتعلق بطبيعة البيئة التى يعيش فيها الإنسان البدوى والتى تفرض عليه أن يعيش حالة الوحدة والوحشة التى تملى عليه أن يتصور كائنات غريبة لا وجود لها أساسًا، وكثرة أوقات الفراغ التى تعتبر عاملاً يهيئ له الأرضية لاختلاق الأوهام، وتصوير الأخيلة فى صورة الواقع، يقول النظّام فى هذا النص:

---

(١) السعلاء، والسعلاة، والسعلى: أنثى الغول أو الغول والجمع: سعالى وسعليات.
(٢) منون: من على لغة بنى تميم.
(٣) الحيوان جـ١.

(. . . أصلُ هذا الأمر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش، وعملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه فى البلاد والخلاء والبعد من الأنس استوحش ولاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرين، والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشىء الصغير فى صورة الكبير، وارتاب وتفرق ذهنه وانتفضت أخلاطه فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم الشىء اليسير الحقير أنه عظيم جليل، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرًا تناشدوه، وأحاديث توارثوها، فازدادوا بذلك إيمانًا، ونشأ عليه الناشئ، وربى عليه الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى، وتشتمل عليه الغيطان[1] فى الليالى الحنادس[2] ، فعند أول وحشة وفزعة، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور، وربما كان فى أَصل الطبيعة كذابًا نَفَاجًا[3] ، وصاحب تشنيع وتهويل، فَيقول فى ذلك مَن الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها، قال عبيد بن أيوب:

فلله درُّ الغـول أىُّ رفيـقة ... لصاحب قفر خائف متقتر[4]

. . . ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به، ومدَّ لهم فيه أنهم ليس يُلقون بهذه الأشعار، وبهذه الأخبار إلا أعرابيًا مثلهم، وإلا عاميًا لم يأخذ نفسه قطّ بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس قط . . .)[5] .

إننا نقف فى النص السابق إزاء رجل نور العلم عقله، ورفع إيمانه بالأسباب والقواعد المنطقية والعقلية من مستوى وعيه، فأراد أن يؤمن بالدين خالصًا، بريئًا من الخرافات والأساطير والأباطيل التى أضافتها العامة إلى الدين وما هى من الدين فى شىء، صحيح أن الدين طلب منا أن نؤمن بالجن وغيره من المغيبات، إلا أن عامة الناس أضافت إلى هذه

---

(١) الغيطان مفردة. غيط: المطمئن الواسع من الأرض.

(٢) الحنادس: مفرده الحندس: الظلمة، الليل الشديد الظلمة.

(٣) النفاج: المتكبر، والذى يفخر بما ليس عنده.

(٤) تقتر فلان: غضب وتهيأ للمخاصمة، وتقتر للصيد: استتر فى القُترة ليخدعه ويصيده، وتقتر عنه: تنحى، وتقتر فلانًا: حاول خداعه عن غفلة، والمراد فى البيت (المستجير من الخوف).

(٥) الحيوان جـ٦ .

المعتقدات من عندها الكثير من الخرافات والمبالغات كالادعاء الذى نفاه المعتزلة والمتمثل فى إمكانية حدوث الاتصال بين الجن والإنس، وأن هناك مخلوقات من نوع الجن والعفاريت استطاع البعض أن يراها، ويتحدث معها، بل وأن يتزوج منها!!

وبالإضافة إلى كتاب البخلاء، والنصوص الأخرى التى وردت عن المعتزلة فى فن الأدب التهكمى الساخر، هناك رسالة التربيع والتدوير للجاحظ والتى تعتبر أنموذجًا راقيًا ومتطورًا ومستقلاً للأدب الساخر، وهى رسالة خصصها للتهكم من شخص يدعى (أحمد بن عبدالوهاب) أحد أصحاب محمد بن عبدالملك الزيات[١]، وهى رسالة طويلة تبلغ نحو خمسين ومائة صفحة بدأها بمقدمة بسط فيها موضوع هذه الرسالة[٢].

• **نموذج من رسالة التربيع والتدوير:**

(كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول، وكان مربعًا وتحسبه لسعة جفرته[٣] واستفاضة خاصرته مُدورًا، وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع، وهو فى ذلك يدعى السباطة[٤]، والرشاقة، وأنه عتيق[٥] الوجه، أخمص البطن[٦]، معتدل القامة، تام العظم وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[٧]، رفيع العماد عادى[٨] القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم، وكان كبير السن، متقادم[٩] الميلاد، وهو يدَّعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد..)[١٠].

فالجاحظ يرسم لنا فى النص السابق صورة كاريكاتيرية ساخرة لأحمد بن عبدالوهاب ويستخدم كل ما أوتى من قدرة ومهارة عرف بهما للتهكم من هذا الشخص، والإمعان فى السخرية منه سواء من ناحية شكله، ومظهره الخارجى، أو من ناحية أفكاره، وطريقته فى التفكير كما نلاحظ فى النص التالى:

---

(١) الأغانى (طبع الساسى) ج٢١.

(٢) البخلاء، والزيات (ت٢٣٣هـ) أديب وشاعر، ووزير المعتصم والواثق العباسيين، عمل ضد المتوكل فانتقم منه هذا بعد توليه الخلافة، له ديوان شعر [المنجد فى الأعلام].

(٣) الجفرة: جوف الصدر. (٤) السباطة: اعتدال القامة. (٥) العتيق: الجميل هنا.

(٦) أخمص: ضامر (٧) الباد: باطن الفخذ. (٨) عادى: مرتفع.

(٩) متقادم الميلاد أى بعيد عهده عن يوم ولادته أى طويل العمل.

(١٠) الفن ومذاهبه فى النثر العربى، شوقى ضيف، نقلا عن رسائل الجاحظ تحقيق شارل بلات، أورد الرسالة بأكملها.

(وبعد فأنت - أبقاك الله - في يدك قياس لا ينكسر، وجواب لا ينقطع، ولك حدٌّ لا يفل وغرب[1] لا ينثنى، وهو قياسك الذى إليه تنسب، ومذهبك الذى إليه تذهب: أن تقول: وما على أن يرانى الناس عريضًا، وأكون فى حكمهم غليظًا، وأنا عند الله طويل جميل، وفى الحقيقة مقدود[2] رشيق، وقد علموا - أبقاك الله - أن لك مع طول الباد راكبًا، طول الظهر جالسًا[3]، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل، ومن غريب ما أعطيت، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودًا واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقًا مستفيض[4] الخاصرة سواك، فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب، فيا شعرًا جمع الأعاريض[5]، ويا شخصًا جمع الاستدارة والطول. . .)[6] .

ومن خلال تأملنا لهذه النصوص وغيرها يظهر لنا أنها من نوع الأدب الساخر البحت الذى لا يقصد منه الجاحظ الهجاء والنيل من شخصية الآخرين، وإنما يهدف من ورائه التندر والتفكه والتسلية وإظهار المهارة فى تصريف وجوه الكلام، والإتيان بها على حسب ما يريده الأديب، ومن المعلوم أن الجاحظ كان معروفًا بشخصيته الميالة إلى المرح، والمزاح، والتفكه، وهذه الشخصية تتجلى لنا فى أغلب مؤلفاته إلى درجة أنه كان - فى بعض الأحيان- يوجه سهام سخريته، وتهكمه حتى إلى نفسه كما فعل ذلك فى القصة التالية التى رواها عن نفسه:

(ما أخجلنى أحدٌ مثل امرأتين رأيت إحداهما فى المعسكر، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها فقلت: انزلى كُلى معنا، فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا، وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت: لى إليك حاجة، وأريد أن تمشى معى، فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له: مثل هذا، وانصرفت، فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إلى بفص، وأمرتنى أن أنقش لها صورة شيطان، فقلت: يا ستى[7] ما رأيت الشيطان، فأتت بك، وقالت ما سمعت) .

---

(١) غرب: حد. (٢) مقدود: حسن القد والقوام.

(٣) أى تجمع بين طول باطن الفخذ فى حالة ركوبك وبين طول الظهر فى حال جلوسك.

(٤) مستفيض: مملوء. (٥) الأعاريض: والجمع عروض: أوزان وبحور الشعر.

(٦) المصدر السابق نقلاً عن رسائل الجاحظ.

(٧) أى يا سيدتى. والجمع ستات وهى كلمة مولدة.

وبذلك يتبين لنا أن إسهامات المعتزلة فى الأدب العربى تجلت أكثر ما تجلت فى مؤلفاتهم، وآثارهم النثرية، وأن المذهب المعتزلى باتجاهاته، ونزعاته، وأصوله التى عرفت عنه، والتى قامت فى الأساس على الثقافة العقلية التى تأثروا فيها بالثقافة اليونانية قد انعكس بوضوح على مؤلفاتهم وآثارهم تلك وخصوصًا الأدبية منها فجاء نثرهم متميزًا تطغى عليه روح الاعتزال من الناحيتين، الشكلية والمضمونية؛ فمن الناحية الشكلية ابتدعت أو طورت أقلام المعتزلة أغراضًا وموضوعات جديدة فى الأدب العربى كإسهامهم الفاعل والمؤثر فى تأسيس علم البيان والبلاغة من خلال بحوثهم ودراساتهم المتعمقة فى الألفاظ والمعانى والعلاقة بينهما، وتآليفهم العديدة فى الإعجاز القرآنى؛ هذا الموضوع الذى استعرضناه وبحثناه بشكل مستقل فى هذا الباب.

ومن ضمن الإسهامات الأخرى للمعتزلة فى إغناء الناحية الشكلية من الأدب العربى ابتكارهم لموضوعات أدبية جديدة كالأدب الساخر والمتهكم، وطرح الموضوعات العلمية والفلسفية فى كتاباتهم كالحديث عن الشىء ونقيضه، ووصف الحقائق والمفاهيم المعنوية.

وقد عُرف المعتزلة أيضًا بمقدرتهم الفذّة على الجدل وخروجهم متنصرين منه فى أغلب الحالات نتيجة لثقافتهم العقلية والمنطقية الواسعة، وتمرسهم فى قواعد وأساليب الجدل التى اقتبسوها من اليونانيين بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى الذكاء، وحضور البديهة اللذين كان زعماؤهم يتميزون بها.

وفى باب الوصف كان المعتزلة من أمهر الأدباء والناثرين فى تقديم أوصاف دقيقة مستوعبة لجميع تفاصيل الموضوعات سواء أكانت مادية محسوسة أم معنوية مجردة، كما رأينا ذلك لدى الجاحظ، والنظّام، وثمامة بن أشرس، وأبى حيان التوحيدى وغيرهم، وذكرنا أن الخصائص التى تجدها فى وصفهم من دقة وشمولية إنما هى أثر من آثار المذهب الاعتزالى الذى يدعو صاحبه إلى التأمل، والتدقيق وتقصى الأشياء والظواهر المحيطة به.

كما سبقت الإشارة إلى أن المعتزلة لعبوا دورًا كبيرًا فى تبسيط الموضوعات العلمية والفلسفية المعقدة والشائكة، وتقديمها إلى عامة الجمهور بأسلوب سهل مبسط جذاب يتميز بالطابع الأدبى والفنى فى الطرح والتناول كما لاحظنا ذلك لدى مؤلفات الجاحظ، وأبى حيان التوحيدى، وذكرنا أن هذه الخصوصية (أى إخضاع الموضوعات العلمية للأسلوب

الأدبى) تمثل إحدى الخدمات الكبرى التى قدمها المعتزلة إلى الأدب العربى بعد أن كان نثره مقصوراً على الموضوعات والأغراض التقليدية.

وذكرنا أيضًا أن من بين الموضوعات الجديدة فى نثر المعتزلة والتى تدل على ثقافتهم العقلية والراقية، وسبقهم لعصرهم فى طريقة تفكيرهم ومحاربتهم للخرافات، والأوهام، والأباطيل التى شاعت بين العامة ونسبوها إلى الدين، كما لحظنا ذلك فى النصوص التى أوردناها آنفًا لثمامة بن أشرس، والجاحظ والنظّام.

شعر المعتزلة

أثر عن المعتزلة - كما هو الحال بالنسبة إلى الفرق والمدارس الإسلامية الأخرى - قدر لا يستهان به من الأشعار فى الموضوعات والأغراض المختلفة يقف فى مقدمتها الدفاع عن عقيدة الاعتزال نظرًا إلى أننا آلينا على أنفسنا فى هذا الكتاب أن نستقرئ ونتقصى آثار الاعتزال فيما خلّفه زعماؤه وأدباؤه وشعراؤه فى المجال الأدبى، وفى الأدب العربى بصورة عامة.

وكما بدت آثار الاعتزال واضحة على المؤلفات النثرية للمعتزلة - وهو الجانب الذى برع فيه المعتزلة أكثر - أى الجانب النثرى - فقد بدت واضحة أيضًا على ما أثر عنهم من قصائد وأشعار روتها لنا المصادر التاريخية بشكل مبعثر ومتفرّق.

وفى مقدمة هذه الآثار التى نلحظها فى شعر المعتزلة - كما هو الحال بالنسبة إلى نثرهم - النزعة العقلية والفلسفية والمنطقية التى عرفوا بها، صحيح أنهم نظموا فى نفس الأغراض والموضوعات التقليدية للشعر العربى إلا أن الاتجاه العقلى كان واضحًا فى ثنايا أشعارهم، معبراً عن نفسه فى كثير من الأحيان فى استخدام المصطلحات والتعابير والمعانى الفلسفية والكلامية أو استخدام التشبيهات والعلاقات الجدلية والمنطقية ونقلها إلى الموضوعات الوجدانية للشعر.

• الغزل وآثار الاعتزال فيه:

روى عن بعض زعماء المعتزلة وأدبائهم وشعرائهم كالنظّام، والقاضى الجرجانى. والصاحب بن عبّاد بعض الأشعار الغزلية بدا فيها الاتجاه الاعتزالى فى التفكير واضحًا وخصوصًا بالنسبة إلى النظّام الذى عُرف كأحد أبرز زعماء المعتزلة الذين تعمقوا فى

الدراسات الفلسفية والمنطقية والكلامية إلى حدّ بعيد حتى أثر اتجاهه هذا على شعره أيضًا، فمن شعره فى الغزل:

توهمه طرفى فآلم خدَّهُ فصار مكان الوهم من نظرى أثر[1]
وصافحه قلبى فآلم كفهُ فمن صفح قلبى فى أنامله عقر
ومرَّ بقلبى خاطرًا فجرحتُهُ ولم أر جسمًا قطُّ يجرحُهُ الفكرُ
يمرُ فمن لينٍ وحسن وتعطُّفٍ يقال به سُكرٌ وليس به سُكر[2]

وواضح لما لدراسات المعتزلة وبحوثهم فى العدل والتوحيد وتنزيه الخالق - تعالى - من الصفات من أثر فى المعانى والتشبيهات والاستعارات التى استخدمها النظّام فى الأبيات السابقة، كما تَلاحظ ذلك أيضًا فى الأبيات التالية المروية عن النظّام كذلك:

وشادنٍ[3] ينطق بالطرفِ يقصر عنه منتهى الوصفِ
رقَّ فلو بزت[4] سرابيله علقه الجوُّ من اللطفَ
يجرحه اللفظ بتكراره ويشتكى الإيماء[5] بالطرفَ
أفديه من مغرى بما ساءنى فإنه يعلمُ ما أخفى[6]

ويعتبر الصاحب بن عبّاد أحد أعلام المعتزلة الآخرين الذين نظموا فى الغزل متأثرين بنزعتهم العقلية الاعتزالية كقوله:

كنت دهرًا أقول بالاستطاعه وأرى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتى فى هوى ظبى فسمعًا للمجبرين وطاعه[7]

فالصاحب يقدم لنا من خلال البيتين السابقين صورة فنية طريفة فى الغزل عبر الإشارة إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن العبد حرّ مختار فى أفعاله، وإلى مذهب الجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مجبر غير مختار فى أفعاله.

ومن غزله أيضًا:

ولما تناءت بالأحبة دارُهم وصرنا جميعًا من عيان إلى وهم
تمكن منى الشوق غير سامح كمعتزلى قد تمكن من خصم[8]

---

(1) الأثر والأثر: أثر الجراح بعد البرء.
(2) أمالى المرتضى جـ1.
(3) الشادن: ولد الظبية والجمع: شوادن.
(4) بزت: سبيت ونزعت.
(5) الإيماء: الإشارة
(6) سرح العيون، تاريخ بغداد جـ6.
(7) زهر الآداب جـ4.
(8) يتيمة الدهر جـ3.

ففى البيت الأول يستخدم الصاحب فى غزله مصطلحين من المصطلحات الفلسفية، وهما (العيان) و(الوهم)، وفى البيت الثانى لا ينسى أن يكيل المدح للمعتزلة من خلال وصفهم بأنّهم أقوياء الحجّة متمكنون من خصومهم فى المناظرات.

ومن أبياته الغزلية الأخرى التى نلحظ فيها آثار التفكير المعتزلى واضحة، قوله:

على كالغزال وكالغزالة   رأيت به هلالاً فى غلاله
كأن بياض غُرته[1] رشاد   كأن سواد طُرته ضلاله
كأن الله أرسله نبيًا   وصيّر حسنه أقوى دلاله[2]

● **المدح:**

وفى موضوع المدح لا نكاد نظفر من شعر المعتزلة بشىء ذى بال يدل على تأثرهم بمذهبهم فى هذا اللون من الشعر أو تجديدهم فيه، فالغالبية العظمى من الأشعار التى رويت للمعتزلة فى هذا الباب- أى باب المدح - هى من نوع الأشعار التقليدية، التكسبية العديمة الحظ من الابتكار والإبداع والتجديد.

والشعر الوحيد الذى عثرنا عليه فى المدح والذى نظمه فى إطار تأثره بالأفكار المعتزلية، بيتان للنظّام يمدح فيهما تلميذه الجاحظ:

حبى لعمرو جوهر ثابتٌ   وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ
به جهاتى الستُّ مشغولةٌ   وهو إلى غيرى بها مائل[3]

● **الفخر:**

وهو من الأغراض الهامة التى تناولها شعراء المعتزلة وتجلّت فيها نزعتهم التجديدية ذلك لأن فخرهم - خلافًا للشعراء الآخرين - انصبَّ على مذهبهم ورجالهم معرضين عن الموضوعات التقليدية للفخر، كالافتخار بالأحساب والأنساب والجود وما إلى ذلك من موضوعات يتطرّق إليها شعراء الفخر عادةً.

وهكذا، فقد طرح شعراء المعتزلة موضوعات جديدة فى الفخر، فإذا بنا نراهم يفتخرون بمذهبهم، وبزعماء هذا المذهب، ودفاعهم المخلص عن مبادئهم ومعتقداتهم، وتحمّسهم اللا محدود فى نشر هذه المبادئ والمعتقدات، حتى قال عنهم الخوارزمى: (إنّ

---

(١) الغرة فى كل شىء أوله وأكرمه، وهى بياض فى جبهة الفرس، والغرة من الرجل وجهه.
(٢) يتيمة الدهر ج٣، وقد أورد صاحب اليتيمة أشعاراً للصاحب بن عباد ج٣.
(٣) الجاحظ: حسن السندوبى.

اعتداد المعتزلة بالمعتزلى كاعتداد الشيعة بالوصى، والإمامية بالمهدى)[١]، وقال الجاحظ: (إنه لو لا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولو لامكانُ المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَلِ)[٢].

● **نماذج من فخر المعتزلة:**

قال بشر بن المعتمر يمدح المعتزلة ويفخر بهم ويصفهم بأنهم أهل الرئاسة فى العلم، والمدافعون عن الدين:

إن كنت تعلمُ ما أقول — وما تقول فأنتَ عالمْ
أو كنتَ تجهلُ ذا وذا — ك فكن لأهلِ العلمِ لازم
أهلُ الرياسة من ينا — زعهم رياستهم فظالمْ
سهرتْ عيونُهم وأنت — من الذى قاسوه حالم
لا تطلبنَّ رياسةً — بالجهلِ أنتَ لها مخاصمْ
لو لا مقامُهم رأيتَ — الدينَ مضطربَ الدعائم[٣]

ومن النماذج الأخرى لفخر المعتزلة، قصيدة طويلة لشاعرهم (صفوان الأنصارى) يردّ فيها على بشار بن بردٍ بعد أن انقلب عليهم، ويذكر فيها فضائل ومناقب المعتزلة وما يبذلونه من جهود ومساعٍ فى سبيل نصرة الدين وإعلاء كلمته، نذكر منها الأبيات التالية:

متى كان غزّال له يا ابنَ حوشب[٤] — غلام كعمرو أو كعيسى بن حاضر[٥]
أما كان عثمانُ الطويل بن خالد — أو القرم حفص نهبةً للمخاطر؟[٦]
له خلفَ شعب الصين فى كلّ ثغرة — إلى سوسها[٧] الأقصى وخلف البرابرِ
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمهم — تهكم جبارٍ ولا كيد ماكرِ

---

(١) رسائل الخوارزمى. (٢) الحيوان جـ٤.
(٣) البيان والتبيين جـ١، وانظر المنية والأمل. (٤) كنية بشار.
(٥) يرد صفوان فى هذا البيت على بشار بن برد الذى خرج من مذهب المعتزلة وهجا شيخهم واصل بن عطاء قائلاً:
مالى أشايع غزالا له عنق — كنقنق الدّو إن ولى وإن مثلا
وعمرو بن عبيد وعيسى بن حاضر من رجال المعتزلة، والنقنق: ذكر النعام الجمع: نقانق، والدو: الفلاة الواسعة والمستوى من الأرض وبشار يعيب فى هذا البيت على واصل عمله فى الغزل.
(٦) عثمان بن خالد وحفص من رجال المعتزلة أيضًا. القرم من الرجال السيد المعظم الجمع: قروم.
(٧) سوس: نهر فى المغرب بشمال إفريقيا.

إذا قال: مرو فى الشتاء تطاوعوا ... وإن كان صيفًا لم يخف شهر ناجر (١)
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكدِّ المسافر
فأنجح مسعاهمَ وأثقب زَندَهم (٢) ... وأورى بفَلج للمخاصم قاهر (٣)
وأوتاد أرض الله فى كل بلقع (٤) ... وموضعُ فتياها وعلمُ التشاجر
وما كان سحبان (٥) يشقُّ غبارهم ... ولا الشدق (٦) من حىِّ هلال بن عامر
ولا الناطق النخّار والشيخ دغفل (٧) ... إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر (٨)
ولا القالة الأعلون رهط مكحل ... إذا نطقوا بالصلح بين العشائر (٩)
بجمع من (الجفَّين) راض وساخط ... وقد زحفت براؤهم للمحاضر (١٠)
تلقَّب بالغزّال واحدُ عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر (١١)
ومن لحرورى وآخر رافضَ ... وآخر مرجى وآخر حائر (١٢)
وأمر بمعروف وإنكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يُصيبونَ فصل القولَ فى كُلِّ منطقَ ... كما طبقتْ فى العظم مُديةُ جازر (١٣)
تراهم كأنَّ الطير فوقَ رؤوسهم ... على عمَّة معروفة فى المعاشر (١٤)
وسيماهمو معروفة فى وجوههم ... وفى المَشى حجاجًا وفوق الأباعر (١٥)
وفى كل ركعةٍ تأتى على الليل.. كلّه ... وظاهر قولٍ فى مثال الضمائر

---

(١) شهر ناجر: من شهور الصيف الشديدة الحرارة لدى العرب.
(٢) أخرج الشرارة من زندهم، والزند: العود الأعلى الذى تقدح به النار.
(٣) أورى بفلج: أضاء بالظفر والغلبة. (٤) بلقع: أى الخالى من كل شىء.
(٥) سحبان وائل: أحد الخطباء العرب الفصحاء الذين ضرب بهم المثل.
(٦) الشدق: جانب الفم مما تحت الخد، وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدلالتها على جهارة الصوت.
(٧) و(٨) النخار بن أوس العذرى، ودغفل بن حنظلة السدوسى، من مشاهير خطباء العرب، وكانا إذا قبضا على عصيهما ووصلا أيمانهما بمخاصرهما أفحما كل ناطق.
(٩) القالة الأعلون: الخطباء فى الشئون الرفيعة. رهط مكحل: هم قوم عمرو بن الأهتم.
(١٠) الجفان: هما بكر وتغلب. (١١) القبيل المكاثر: من كاثر بعياله وليس له مال.
(١٢) يريد من الحرورى الخارجى نسبة إلى قرية بالقرب من الكوفة اجتمع فيها الخوارج بعد خروجهم على الإمام على. الرافض: الغالى من الشيعة. المرجى: من اتبع مذهب المرجئة.
(١٣) المدية هنا: الشفرة الكبيرة الجمع: مدى. الجازر: الناحر الذابح.
(١٤) المعاشر جمع معشر: كل جماعة أمرهم واحد.
(١٥) حجاج المفرد: الحجة: الدليل والبرهان والعالم الثبت. الأباعر: الجمال.

وفى قصٍّ أهداب وإحـفـاء شـارب وكُـور على شـيـب يُضىءُ لناظر [(١)]
وعنفـقـة مَـصْلُومَـة . . . . . . ولنعلهٌ قُـبُـبلاّن فى رُدن رحَيب الخـواطر [(٢)]
فتلك عـلامـاتٌ تحيط بوصـفـهـم وليس جهولُ القوّم فى جرم خامرَ [(٣)]

● **تقديس العقل والعلم:**

وبالإضافة إلى الأغراض والموضوعات السابقة، فقد روى عن المعتزلة شىء من الشعر فى أغراض مختلفة كان لمذهبهم القائم على تقديس العقل والعلم الأثر الأكبر فى التوجه إليها، ومنها مثلاً بيان فضل العلم ومنزلته السامية كقول الجاحظ :

يطيبُ العـيـش إنْ تلقى حكيـمًـا غـذاه العـلمُ والظنُّ المصـيبُ
فـيكشفُ عنك حـيـرةَ كلِّ جـهـل وفَـضلُ العلم يعـرفُـه الأريبُ [(٤)]
سـقـامُ الحـرص ليس له شـفـاءٌ وداء الجـهـل ليس له طبـيـبُ [(٥)]

ومن ذلك أيضًا قول القاضى الجرجانى :

مـا تطعَّـمْتُ لذةَ العـيشِ حـتى صـرتُ للبـيت والكتـاب جليسـا
ليس شىءٌ أعـزُّ عندى من العلمِ فـمـا أبتـغى سـواه أنيسـا
إنما الذلُّ فى مـخـالطة الناسِ فـدعْـهم وعِش عـزيزًا رئيسـا [(٦)]

وللشاعر السابق أبيات أخرى فى الاعتزاز بالعلم والإعراض عن مخالطة الناس فى سبيل تحصيله وبيان أن العلم رسالة مقدسة ينبغى للإنسان أن يحافظ على قدسيتها من خلال صيانة هذه الرسالة وعدم اتخاذها وسيلة لتحقيق الأطماع الدنيوية، وهذه الأبيات تعدّ من الأبيات الرائعة فى الأدب العربى ذات المضامين الأخلاقية السامية، حيث يقول القاضى الجرجانى :

---

(١) أهداب من الثوب : الخيوط التى تبقى فى طرفيه دون أن يكمل نسجها، ومن النخل سعفه. إحفاء الشارب : تقصيره من الأسفل والكور : يريد هنا العمائم.
(٢) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن لخفة شعرها الجمع : عنافق. مصلومة : مقطوعة مستأصلة.
(٣) أورد القصيدة كاملة الجاحظ فى البيان والتبيين جـ١.
(٤) الأريب : ذو الفطنة والبصر فى الأمور.
(٥) تاريخ بغداد جـ١٢، وسرح العيون.
(٦) وفيات الأعيان جـ٢

يقـولون لى فـيك انقـبـاض وإنّمـا رأو رجلاً عن موقف الذلّ أحجما[1]
ومـازلتُ منحـازاً بعـرضى جـانبًـا من الذمّ اعـتـدُّ الصـيـانة مـغنمـا
إذا قـيل هذا مـشـربٌ قلتُ قـد أرى ولكنّ نفسَ الحـرٌ تحـتـملُ الظّمـا
ولم أقض حقَّ العلم إن كـان كلمـا بدا طمعٌ صـيـرتُه لى سلّمـا[2]
ولم أبتـذلَ فى خدمـة العلم مهـجتى لأخـدم من لاقـيتُ لكن لأخـدمـا
أأشـقى به غـرسًـا وأجنبـه ذلّةٌ إذًا فـاتّبـاع الجـهل قـد كـان أحـزما[3]
ولو أنّ أهل العلم صـانوه صـانهم ولو عظّمـوه فى النفـوس تعظّمـا[4]
ولكـن أذلّوه فـهـان ودنّسـوا مـحيـاه بالأطمـاع حتى تجـهّمـا[5]

ولبشر بن المعتمر فى إحدى قصيدتيه الطويلتين اللتين يتحدث فيهما عن عالم الحيوان أبيات فى الإشادة بالعقل، وتقديسه وبيان أنه المعول عليه فى تمييز الحسن من القبح يقول فيها:

لـلـه در العـقل من رائد وصـاحب فى العسـر واليسـر
وحـاكم يقـضى على غـائب قـضـيـة الشـاهد للأمـر[6]
وإن شـيـئًـا بعض أفـعـاله أن يفـصل الخـيـر من الشـر
بذى قـوى قـد خـصـه ربُّه بخـالص التـقـديس والطهـر

وفى الحكمة أثرت عن المعتزلة بعض الأشعار المتفرّقة التى سجّلوا فيها خلاصة تجاربهم وخبراتهم فى الحياة، كقول واصل بن عطاء رئيسهم:

---

(١) أحجم: أعرض.
(٢) يريد: إننى إذا استغليت المطامع وجعلتها لى سلما لتحقيق مآربى فإننى فى هذه الحالة سوف لا أعطى العلم حقه.
(٣) يقول: هل من المعقول أن أشقى فى طلب العلم وتأسيسه ثم أجنى نتائجه بعد ذلك ذلا ومهانة، وإذا كان الأمر كذلك فإن اتباع الجهل يعتبر أقرب إلى التدبير والحزم.
(٤) تعظم: صار عظيمًا.
(٥) يتيمة الدهر جـ٤، المنية والأمل، هان: صار هينًا. دنسوا: لوثوا. محياه: وجهه. تجهم: صار جهمًا أى عبوسًا.
(٦) أى إن قدرة العقل على الحكم على الأمور تبلغ حدًا تجعله يصدر حكمه على الغائب بنفس القوة التى يصدر فيها حكمه على الشاهد للأمر.

تحامقْ مع الحمقى إذا ما لقيتهم ولا تلقهم بالعقلِ إن كنتَ ذا عقل(١)
فإن الفتى ذا العقلِ يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل(٢)

وفى الحقيقة فإن هذين البيتين يذكّرانا ببيتين آخرين أحدهما للمتنّبى والآخر لأبى العلاء المعرّى علّهما أخذا معناهما من بيتى واصل، إذ يقول المتنّبى:

ذو العقلِ يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ

ويقول أبو العلاء:

ولما رأيتُ الجهل فى الناس فاشيًا تجاهلتُ حتى قيل إنّى جاهلُ

وللجاحظ - وإن لم يُعْرَفْ كشاعر - بعض الأشعار الحكمية أوردها له صاحب كتاب وفيات الأعيان، منها قوله:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيّام الشباب
لقد كذبتك نفسُك ليس ثوبٌ دريسٌ كالجديد من الثياب(٣)

وقوله فى الزهد وذكر الموت:

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعًا وما خلدوا
تساقوا جميعًا كؤوس المنون فمات الصديقُ ومات العدو(٣)

وقوله فى ذم الدهر، وذكر صروفه وتقلّباته وتنكره للإنسان الفاضل:

لئن قُدِّمت قبلى رجالٌ فطالما مشيتُ على رَسْلى فكنت المقدَّما(٤)
ولكن هذا الدهر تأتى صروفُه فتبرمُ منقوضًا وتنقضُ مُبرما(٥)

والبيت الأول يذكرنا ببيت الطغرائى فى لاميته حيث يقول:

تقدّمنى أناسٌ كان خطوهُمُ وراء خطوى إذ أمشى على مهلِ

● **التطرق إلى الموضوعات العلمية والفلسفية:**

وهناك أغراض أخرى طرقها المعتزلة فى أشعارهم كالموضوعات العلمية التى أرادوا من بسطها إثبات وجود الخالق - تعالى -، وبيان قدرته مثل قصيدتى (بشر بن المعتمر) فى

---

(١) تحامق: أى تظاهر بالحمق. (٢) معجم الأدباء جـ١٩.
(٣) وفيات الأعيان جـ٣. (٤) على رسلى: أى على مهلى.
(٥) أورد القصيدة كاملة الجاحظ فى البيان والتبيين جـ١، صروف الدهر: أحداثه وتقلباته، أى أن صروف الدهر تلم ما تشتت وتبعثر من الأمور تارة، ثم تعود لتشتتها وتبعثرها فطبيعتها عدم ترك الأشياء على حالة الثبات والاستقرار.

الحيوان، علمًا أننا سنورد في ترجمتنا له في الباب الثالث نماذج من هاتين القصيدتين والذى يهمّنا منهما إيراد الأبيات التى يفخر فيها بشر باعتزاله، ويهجو ويذمّ أصحاب المذاهب الأخرى، ويبيّن عقيدته وأفكاره، فهو يقول فى قصيدته الأولى :

لستُ إباضيًّا غبيًّا ولا ... كرافضيّ غرّه الجفر (١)
كما يغرُّ الآلُ في سبسب ... سفرًا فأودى عنده السَّفر (٢)
كلاهما وسع في جهل ما ... فعاله عندهما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الألى ... عابوا الذى عابوا ولم يدروا
إن غبت لم يُسلمك من تهمة ... وإن رنا فلحظه شزر (٣)
يعرضُ إن سَالمته مُدبرًا ... كأنّما يلسبه الدَّبر (٤)
أبلُه خبٌّ ضغن قلبه ... له احتيالٌ... وله مكر (٥)
وانتحلوا جماعة باسمها ... وفارقوها فهم اليعر (٦)
وأهوجٌ أعرجُ ذو لوثة ... ليس له رأيٌ ولا قدر (٧)
قد غرَّهُ في نفسه مثلُهُ ... وغرَّهم أيضًا كما غرُّوا
لا تنجع الحكمةُ فيهم كما ... ينبو عن الجرولة القطر (٨)
قلوبهم شتى فما منهم ... ثلاثةٌ يجمعهم أمر
إلا الأذى أو بهت أهل التقى ... وإنهم أعينهم خزر (٩)
أولئك الداءُ العُضالُ الذى ... أعيا لديه الصَّاب والمقر (١٠)
حيلةُ من ليست له حيلةٌ ... حسنُ عزاء النفس والصبرُ

---

(١) الإباضى : المنسوب إلى الإباضية وهى فرقة من الخوارج . الجفر : ولد الشاء إذا عظم واستكرش، والمراد جلد الجفر حيث يقول الرافضة (والمراد بالرافضة هنا غلاة الشيعة لا الشيعة الإثنى عشرية) إن الإمام كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة .

(٢) الآل : السراب، والسفر : جمع المسافرين، أودى : هلك، والسبسب : الصحراء القاحلة .

(٣) الشزر : النظر بمؤخرة العين غضبا وحنقا . رنا : أدام النظر فى سكون طرف، واللحظ : النظر بمؤخر العين .

(٤) يلسبه : يلسعه . الدبر : النحل والزنانير . (٥) الخب : المحتال الماكر .

(٦) اليعر : للشاة أو الجدى [اللسان] وفسرها الجاحظ بصغار الغنم .

(٧) اللوثة : الاسترخاء والحمق . والأهوج : الطويل فى حمق .

(٨) الجرولة : واحدة الجرول وهى الحجارة، القطر : المطر .

(٩) خزر : جمع أخزر وخزراء وهو الذى ينظر بمؤخر عينه، ويقال : عدو أخزر العين، أى ينظر عن معارضة .

(١٠) الصاب والمقر : نبتان مُرَّان .

ومن هجاء بشر لأصحاب الفرق الأخرى، وبيانه - فى نفس الوقت - لمبادئ المعتزلة، قوله فى إحدى أراجيزه:

لسنا من الرافضة الغلاة ولا من المرجئة الجفاة
لا مُفرطين بل نرى الصدّيقا مقدمًا والمرتضى الفاروقا
نبرأ من عمرو ومن معاوية[1]

فهو فى المقطوعة السابقة يوجّه سهام نقده وهجومه لكلّ من الرافضة - على حدّ تعبيره - الذين اتخذوا موقفًا سلبيًا من الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر لأنهم رأوا أنهما اغتصبا الخلافة من على رضي الله عنه، والمرجئة الذين اتخذوا هم أيضًا موقفًا سلبيًا بإرجائهم الحكم على الناس - ومن بينهم الصحابة - إلى يوم القيامة، ثم يبين عقيدته بهذا الخصوص، فيقول إننا نرى تقديم أبى بكر وعمر، ونبرأ فى نفس الوقت من عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان لأنهما كانا السبب فى الفتنة التى حدثت بين المسلمين متمثّلة فى حادثة التحكيم.

- **الهجو العقائدى:**

ومن هذا اللون من الشعر - أى الشعر الذى يهاجم فيه المعتزلة أعداءهم، ويبينون مبادئهم ومعتقداتهم ويدافعون عنها، بعرض الأدلة والبراهين، ويخلصون من ذلك إلى إثبات حقانية مذهبهم إن كانوا يناقشون أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى، أو إثبات وجود الخالق - تعالى - وأنه واحد أحد طبقًا للنظرة الإسلامية إن كانوا فى معرض الدفاع عن الإسلام إزاء الزنادقة، وأصحاب المذاهب والديانات المشركة والملحدة - موضوع هذه القصيدة التى نحن بصدد إيراد نماذج منها، وهى لشاعر المعتزلة (صفوان الأنصارى) يرد فيها على (بشار بن برد) عندما تزندق واعتنق مذهب الديصانية من المجوس الذين يذهبون إلى أن العالم قائم على أساسين هما (الظلمة، والنور)، وأن النار خيرٌ من الطين، وأن إبليسًا كان محقًا فى موقفه، فتصدى صفوان له ولمذهبه فى هذه القصيدة مستعرضًا للأدلة والبراهين التى تثبت بما لا يقبل الشك أن الأرض خيرٌ من النار بما تحويه من الآيات والدلائل العجيبة على قدرة الخالق - تعالى - أنه الواحد الفرد الأحد الذى لا شريك له، لا كما تدّعى الديصانية من وجود قوتين تشتركان فى تدبير العالم هما قوّة النور، وقوة الظلام[2].

---

(١) المنية والأمل. (٢) (انظر: الانتصار لأبى الحسين الخياط).

وبالجملة فإن قصيدة صفوان هذه تعتبر من نوع الشعر الدينى أو المذهبى الذى قلّما نجد له نظيراً فى الأدب العربى، فهو بذلك يعتبر من نوع الأشعار التى أسهم المعتزلة فى تجديدها وإغنائها والتوسع فيها.

وفيما يلى نورد نماذج منها مع شرح لغريب ومشكل مفرداتها[(١)] :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً	وفى الأرض تحيا بالحجارة والزَّند[(٢)]
ويخلقُ فى أرحامها وأرومها	أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد[(٣)]
وفي القعر من لُجّ البحار منافع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد[(٤)]
كذلك سرُّ الأرض فى البحر كله	وفى الغيضة الغناء والجبل الصَّلد[(٥)]
ولا بدّ من أرض لكلّ مطهَّرَ	وكل سبوح فى الغمائر من حد[(٦)]
كذاك وما ينساحُ فى الأرض ماشيًا	على بطنه مشى المجانب للقصد[(٧)]
ويسرى على جلد يُقيم حُزوزهُ	تعمج ماء السيل فى صبب حرد[(٨)]
وفى قُلل الأجبال خلف مُقطمٍ	زبر جدُ أملاك الورى ساعة الحشد[(٩)]

وبعد أن يعدد (صفوان) على هذا السياق الآيات والعجائب التى تحفل بها الأرض من حيوان وجماد وكون هذه الآيات والعجائب تدل دلالة قاطعة على أن الطين خيرٌ من النار، وأن وراءها خالقًا واحدًا فردًا يخلص إلى القول :

مفاخر للطين الذى كان أصلنا	ونحن بنوهُ غير شك ولا جحد

---

(١) أورد الجاحظ النص الكامل لهذه القصيدة فى البيان والتبيين جـ١ .

(٢) الزند : العود الذى تقدح به النار . يريد أن بشارا ادعى أن الحياة إنما أساسها النار .

(٣) الأروم : أصول الأشجار .

(٤) لج جمع لجة : معظم الماء . اللؤلؤ المكنون : أى اللؤلؤ الكامن والمستتر فى البحار .

(٥) الغيضة : الأرض التى غاض فيها الماء وكثرت الأشجار . الصلد : الصلب .

(٦) مطهر : هكذا ورد البيت فى البيان والتبيين والأرجح أنه تصحيف والأصح أن يقال (مُطَيّر) أى الحيوانات التى وهبها الله - تعالى - القدرة على الطيران أى : الطيور . الغمائر : جمع غمرة : الماء الكثير، الحد (هنا) شاطئ النهر وضفته .

(٧) المجانب : المباعد، ينساح : يذهب ويسير فى الأرض .

(٨) تعمج وتمعج : تلوى . حرد : غير مستقيم فى انحداره . الحز : الفرض فى العود ونحوه الجمع : حزوز . الصبب : ما انحدر من الأرض .

(٩) قلل جمع قلة : قمة الجبل، الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد . ، المقطم : جبل فى مصر . الورى : الخلق .

فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ وأوضحُ برهان على الواحد الفرد

ثم ينتقل (صفوان) بعد ذلك إلى الموضوع الرئيسي للقصيدة وهو هجو وذمّ بشّار ومن تبع مذهبه، وتسفيه آرائهم وعقائدهم المشركة الملحدة، والردّ عليهم لهجائهم المعتزلة، وتهجّمهم على الخلفاء، فيقول:

أتجعل عمراً والنطاسي واصلاً كأتباع ديصان وهم قُمش المد(١)؟
وتفخرُ بالميلاد والعلجِ عاصم وتضحك من جيد الرئيس أبي جعد(٢)
وتحكي لدى الأقوام شُنعة رأيه لتصرف أهواء النفوس إلى الرد(٣)؟
وسميتهُ الغزال في الشعر مُطنبًا ومولاك عند الظلم قصَّته مُردي(٤)
فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طُرق الرُّشد(٥)
أتهجو أبا بكر وتخلعُ بعده عليًّا وتعزو كلَّ ذاك إلى بُرد(٦)
كأنك غضبان على الدين كله وطالب دخل لا يبيتُ على حقد(٧)
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل وكنت شريدًا في التهائم والنجد(٨)
أتجعل ليلى الناعطية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد(٩)
عليك بدعد والصدوف وفرتني وحاضنتي كسف وزاملتي هند(١٠)
تواثب أقماراً وأنت مشوهُ وأقرب خلق الله منّ شبه القرد(١١)

---

(١) النطاسي: العالم الحاذق، ديصان: مؤسس مذهب الديصانية المجوسي، وعمرو: هو عمرو بن عبيد، قمش المد: الذرات الصغيرة التافهة التي تتلاشى في الماء ساعة المد.

(٢) العلج: كل جاف شديد من الرجال الجمع: علوج وأعلاج. أبي جعد: كنية واصل بن عطاء، يشير إلى أن بشارا عاب على واصل طول عنقه.

(٣) شنعة: قبح. الرد: أي لتدعو الآخرين إلى رفض ورد آرائه.

(٤) مردى: عصا أو خشبة طويلة يدفع بها الزورق أو السفينة بالاستناد إلى الأرض الجمع: مرادي يريد أن مولاه ملاح لأن الملاحين إذا تظلموا: رفعوا المرادي.

(٥) حليف الطين: يعني أن برد أبا بشار كان طيانًا. (٦) يقصد (برد) أبا بشار. (٧) الدخل: الثأر.

(٨) النجد: ما ارتفع من الأرض وصلب، واسم أرض في بلاد العرب. التهائم جمع: تهامة: أرض منخفضة في بلاد العرب.

(٩) ليلى الناعطية: امرأة من نساء الغالية كانت ذات عقل وتدبير وحرص شديد، يريد أن يقول لبشار: أتزعم أن ليلى بعقلها وتدبيرها تحمل روح نحلة من طريق التناسخ: عقيدة تقول بانتقال الروح من جسد إلى آخر بعد الموت. وقد يكون جسداً لإنسان أو لحيوان، وتعيين الجسد الذي تحل فيه ثانية رهن بسلوكها في حياتها الأولى (الموسوعة العربية الميسرة)

(١٠) أسماء الأعلام المذكورة في هذ البيت لنساء من الغالية، الزملة: مؤنث الزامل، وما يحمل عليه من الإبل وغيره الجمع: زوامل، وتسند إلى العقلاء، على التشبيه في التحمل وعدم الدراية.

(١١) البيان والتبيين جـ١.

شيوخ الأدباء المعتزلة

شيوخ الأدباء المعتزلة

عمرو بن عبيد[1] ٨٠ - ١٤٤هـ

هو أبو عثمان عـمرو بن عُبيد بن باب المتكلم الزاهد المشهور، كان شيخ المعتزلة في عصره.

قال عنه الحسن البصري في جوابه لسائل سأله عن عمرو بن عبيد:

(لقد سألتني عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به[٢]، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن، ولا باطنًا أشبه بظاهر منه).

ويبدو من الأخبار التي ذكرت عنه أنه كان مشهوراً بالزهد، والتقى، والإعراض عن الدنيا، والجرأة في قول الحق وإطلاق المواعظ، وعدم مداهنة الحكام، روى أنه دخل يومًا على أبي جعفر المنصور في خلافته، وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار، فقربه وأجلسه، ثم قال له: عظني، فوعظه بمواعظ، منها: إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك، فأحذرك ليلة تمخض[٣] بيوم لا ليلة بعده، فلما أراد النهوض، قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله تأخذها، قال: والله لا آخذها، وكان المهدي ولد المنصور حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال: من

---

(١) (انظر: في ترجمته تاريخ بغداد جـ١٢، مروج الذهب ج٣، أمالي المرتضى جـ١، طبقات المعتزلة، البداية والنهاية، وقد اعتمدنا في ترجمته وذكر أخباره على وفيات الأعيان جـ٣، وتاريخ بغداد جـ١٢، علمًا أن تاريخ بغداد ذكر أخباره بشكل مفصل).

(٢) يريد أنه كان ينهمك بجد في الأعمال التي يقوم بها ولا يترك شيئًا منها.

(٣) تمخض: أصلها تتمخض أي تأتي بالمخاض يقال: تمخضت الليلة عن يوم سوء إذا كان صباحها صباح سوء.

هذا الفتى؟ قال: هذا المهدى ولدى وولى عهدى، فقال: أما لقد ألبسته لباسًا ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه، ومهدت له أمرًا أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه، ثم التفت عمرو إلى المهدى وقال: نعم يا ابن أخى، إذا حلف أبوك أحنثه[1] عمُّك لأن أباك أقوى على الكفارات من عمِّك، فقال له المنصور: هل من حاجة؟ قال: لا تبعث إلىّ حتى آتيك، قال: إذا لا تلقنى، قال: هى حاجتى، ومضى، فأتبعه المنصور طرفه. وقال:

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

ولعمرو بن عبيد رسائل وخطب، وكتاب التفسير عن الحسن البصرى، وكتاب الرد على القدرية، وكلام كثير فى العدل والتوحيد.

كانت ولادته سنة ثمانين للهجرة، ووفاته سنة أربع وأربعين ومائة، وقيل اثنتين، وقيل ثلاث، وقيل ثمان، بموضعٍ يقال له (مران) وهو موضع بين مكة والبصرة على ليلتين من مكة.

وذكر له الخطيب البغدادى شعرًا فى الوعظ، أنشده فى حضرة أبى جعفر المنصور، وهو:

يا أيهذا الذى قد غرّه الأمل ودون ما يأملُ التنغيص والأجل[2]
ألا ترى إنما الدنيا وزينتها كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلو[3]
حتوفها رصد وعيشها نكدٌ وصفوها كدرٌ وملكها دولُ[4]
تظلُّ تفزع بالروعات ساكنها فما يسوغ له لين ولا جذلُ[5]
كأنه للمنايا والردى غرضٌ تظل فيها بنات الدهر تنتضل[6]
تُديرُه - ما أرادته - دوائرُها منها المصيب ومنها المخطئ الزلل[7]
والنفس هاربةٌ والموت يرصدُها فكلُّ عثرة رجلٍ عندها جلل[8]
والمرءُ يسعى بما يسعى لوارثه والقبرُ وارثُ ما يسعى الرجلُ[9]

---

(١) أحنثه: جعله يحنث أى لا يبر فى يمينه ويأثم.
(٢) أى أن أمامه التنغيص والموت.
(٣)الركب: جمع الراكبين.
(٤) الحتوف: جمع حتف وهو الموت
(٥) يسوغ: يصفو ويروق. الجذل: الفرح والسروح.
(٦) الردى: الموت، غرض: هدف. تنتضل: تخرج السهام. (٧) الدوائر: الأحداث والتقلبات.
(٨) يرصدها: يتربص بها.
(٩) تاريخ بغداد جـ١٤، هكذا جاء البيت فى المصدر، والظاهر أن هناك كلمة بين (يسعى) و(الرجل) سقطت فجاءه فالوزن غير مستقيم كأن تكون (له) أو (به) أو ما شابه.

ويعتبر كما أسلفنا فى الفصل الذى خصصناه لاستعراض نشأة المعتزلة المؤسس الأول لمذهب الاعتزال استناداً إلى الرواية الشهيرة حول مخالفته لأستاذه الحسن البصرى فى الرأى بشأن مرتكب الكبيرة.

وهو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى المعروف بالغزال، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً[1].

اشتهر واصل من بين أئمة المعتزلة بالخطابة والبراعة فى الكلام وتصريف وجوهه، والبلاغة، والمقدرة الفائقة على الإتيان بالكلام ارتجالاً ودون توقف، ومما رفع من منزلته فى الفصاحة والبلاغة والتمكن من الكلام، أنه قد بلغ ما بلغه من شأن رفيع فى بلاغة القول رغم أنه كان ألثغ؛ أى يجعل الراء غيناً، فأخذ على نفسه أن لا يستعمل الراء مطلقاً فى كلامه، يقول أبو العباس المبرّد عنه فى هذا المجال:

(كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة فى الراء، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة كلامه. . .)[2].

وأشار الجاحظ إلى مقدرة (واصل) على تجنُّب الراء فى كلامه قائلاً: (. . . ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإسقاطها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولو لا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحالة حتى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به و التأكيد له، ولست أعنى خطبه المحفوظة، ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم، ومناقلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان. .)[3].

---

(١) (لثغ: اللثغة أن تعدل الحرف إلى حرف غيره، والألثغ: الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء، وقيل: هو الذى يجعل الراء غيناً، أو لاما أو يجعل الراء فى طرف لسانه، أو يجعل الصاد فاء، وقيل: هو الذى يتحول لسانه عن السين إلى الثاء، وقيل: هو الذى لا يبين الكلام، وقيل: هو الذى قصر لسانه عن موضع الحرف ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذى يعبر لسانه عنه، والمصدر: اللثغ، ولثغ لسان فلان إذا صيره ألثغ، لثغ بالكسر يلثغ لثغاً، والاسم: اللثغة. والمرأة اللثغاء، وفى النوادر: ما أشد لثغته وما أقبح لثغته! فاللثغة الفم. واللثغة ثقل اللسان بالكلام، وهو ألثغ بين اللُّثغة ولا يقال بين اللَّثَغة). لسان العرب جـ١ فصل اللام.

(٢) الكامل للمبرد جـ٣.

(٣) البيان والتبيين جـ١.

وقد اشتهر واصل فى الأدب العربى وبين الشعراء بمقدرته العجيبة على عدم الإتيان فى كلامه بحرف الراء دون أن يؤثر ذلك شيئًا فى فصاحته وبلاغته ورويت عنه الكثير من الأخبار الطريفة فى هذا المجال حتى غدا مضرب الأمثال فى ذلك[1] ، ومن ذلك ما قاله الشاعر المعتزلى أبو الطروق الضبى فى حقه :

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ　　لكلّ خطيب يغلبُ الحقَّ باطلُه[2]

وقال آخر :

ويجعلُ البُرَّ قمحًا فى تصرُّفه　　وخالـف الراءَ حتى احتال للشَّعُر
ولم يُطق مطرًا والقولُ يعجـــله　　فعاذ بالغيث إشفاقًا من المطر[3]

ويبدو أن لثغة واصل وتجنبه إياها فى الكلام غدت مضربًا للمثل فى الشعر العربى، وفيما يلى نورد بعض النماذج الشعرية التى أشار فيها الشعراء إلى تجنب استخدام واصل للراء فى كلامه، فمن ذلك قول أبى محمد الخازن :

نعم تجنّب لا يوم العطاء كما　　تجنّب ابنُ عطاء لفظة الراء

وقال شاعر آخر :

أجعلت وصلى الراء لم تنطق به　　وقطعتنى حتى كأنك واصل[1]

وفيما يتعلق بنوادره التى رويت عنه فى استغنائه عن الراء فى الكلام فقد حفلت كتب الأدب بالكثير من الأخبار والروايات فى هذا المجال، منها ما أورده صاحب وفيّات الأعيان فى قوله عندما تتابعت عليه أخبار زندقة بشار بن برد الشاعر الذى كان صديقه : (أما لهذا الأعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله؟ أما والله لو ان الغيلة[4] خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعَجُ بطنه على مضجعه ثم لا يكون سدوسيًا أو عقيليًا .

فقال هذا الأعمى ولم يقل بشار ولا ابن برد ولا الضرير، وقال : من أخلاق الغالية ولم

---

(١) الوفيات جـ٦ .

(٢) الوفيات جـ٦ ، يقول إنه يمتلك مهارة فائقة فى استعمال كلمات أخرى مترادفة مكان الكلمات التى فيها الراء كما يستطيع بقوة أن يفحم جميع الخطباء حتى وإن كانوا قادرين على تصوير الباطل بصورة الحق .

(٣) الكامل للمبرد جـ١ ، البيان والتبيين جـ١ ، يريد أن من جملة مظاهر قدرة واصل على التصرف فى الكلام استعماله لكلمة (القمح) بدلا من البر لاشتمالها على حرف الراء وكذلك الحال بالنسبة إلى كلمة (الغيث) واستعماله إياها بدلاً من (المطر) رغم أن الإنسان يبادر إلى استعمالها .

(٤) الغيلة : الاغتيال . يقال : قتله غيلة : قتله على غفلة منه .

يقل المغيرية ولا المنصورية[١] ، وقال : لبعثت، ولم يقل : لأرسلت، وقال : على مضجعه، ولم يقل على مرقده، وعلى فراشه، وقال : يبعج ولم يقل يبقر . . .)[٢] .

وروى المرتضى في أماليه : (أن رجلاً قال لواصل : كيف تقول أسرج الفرس؟ قال : ألبد الجواد، وقال له آخر : كيف تقول ركب فرسه، وجر رمحه؟ قال : استوى على جواده، وسحب عامله)[٣] .

إن كل هذه الأخبار والروايات الغزيرة التي وردت في بيان المبلغ العظيم الذي بلغه واصل في الفصاحة والبلاغة وامتلاك ناصية الكلام[٤] ، لتدل دلالة واضحة أننا ازاء رجل حاد الذكاء واسع الثقافة، تبحر في علوم عصره وخصوصًا الأدبية واللغوية منها مع تبحره بالدرجة الأولى في العلوم الدينية والفلسفة والمنطق وعلم الكلام بحيث أهله ذلك الذكاء الحاد والاطلاع الثقافي والفكري الواسع لأن يبلغ هذه الدرجة من التمكن من تصريف فنون القول والكلام، وليس هذا بغريب فهو زعيم مدرسة فكرية عظيمة، وحركة كان لها أثر كبير على تطوّر الحضارة الإسلامية ونموها في الجانب الفكري، ولذلك كان من الضروري أن يزود بتلك الثقافة الواسعة خصوصًا إذا علمنا أن حركته الفكرية واجهت معتركًا هائلاً من التيارات والظواهر الفكرية المختلفة، فكان من اللزام عليه وعلى أتباعه أن يتسلح بسلاح الفصاحة والبلاغة وفن المناظرة والكلام، كما أشار إلى ذلك الجاحظ في قوله :

(كان -أي واصل- داعية مقالة ورئيس نحلة وإنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وإنه لابد له من مقارّعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وإن البيان يحتاجُ إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزين به المعاني)[٥] .

---

(١) يريد هنا فرقة المغيرية والمنصورية المعتزليتين .

(٢) الوفيات جـ٦ .

(٣) أمالي المرتضى جـ١ .

(٤) راجع من أجل الاطلاع أكثر على أخباره ونوادره (البيان والتبيين جـ١ ، والكامل للمبرد جـ١ ، ووفيات الأعيان جـ٦ ، والمنية والأمل .

(٥) البيان والتبيين جـ١ .

والجاحظ يشير فى كلامه هذا - بالإضافة إلى ما قررناه قبل أن نورد كلامه - إلى أحد العوامل الهامة التى حدت بالمتكلّمين إلى أن العناية بالكلام، وإيراده على الوجهة الصحيحة وهو ضرورة الاهتمام بالجانب الشكلى والظاهرى من الكلام بنفس مقدار العناية به من ناحية المحتوى والمضمون، ومن ضمن مظاهر العناية بهذه الناحية سلامة النطق، وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وتجنب عيوب التلفّظ ؛ وهو مذهب أولاه المتكلمون ومن بينهم المعتزلة اهتمامًا بالغًا[1] .

- **نموذج من خطبة واصل التى اخرج منها الراء:**

(الحمد لله القديم بلا غاية، والباقى بلا نهاية الذى علا فى دنوه، ودنا فى علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده[2] حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سابق، بل أنشأه ابتداعًا، وعدله اصطناعًا، فأحسن كل شىء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شىء لعظمته، وذل كل شىء لسلطانه، ووسع كل شىء فضله. لا يعزب[3] عنه مثال حبة وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له[4] ، إلهًا تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول والأفهام، يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون، وأشهد شهادة حق وقول صدق، بإخلاص نيّة، وصدق طوية[5] أن محمد بن عبدالله عبده ونبيه وخالصته وصفيُّه. . .)[6] .

---

(١) (انظر: البلاغة تطور وتاريخ- شوقى ضيف).

(٢) يؤوده: أى ينقله ويجهده أو حناه من ثقله.

(٣) يعزب: يبعد ويخفى.

(٤) قال: لا مثيل له، بدلاً من لاشريك له تخلصًا من الراء.

(٥) الطوية الضمير والجمع: طوايا.

(٦) يوجد نص الخطبة كاملة فى المجموعة الثانية من نوادر المحفوظات، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، ومفتاح الأفكار وجمهرة خطب العرب زكى صفوت جـ١ .

وهو أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالى رأس معتزلة بغداد[١] وهو من أدبائهم وشعرائهم المعروفين.

ينحدر فيما يبدو من الكوفة، ولكنه استوطن بغداد[٢] .

● **تاريخ الولادة :**

يكتسب بشر بن المعتمر أهميته فى أدب المعتزلة من حيث كونه صاحب الصحيفة المشهورة التى وضع فيها القواعد الأساسية لعلم البلاغة العربية، وقد أثبت الجاحظ هذه الصحيفة كاملة فى البيان والتبيين[٣] ، مع تعليقات وشروح عليها وتحليلات لها، وكذلك نقل مقاطع منها صاحب الصناعتين[٣] ، وكذلك من حيث كونه أحد شعراء المعتزلة المعروفين فى القرن الثالث، بل لعله أكثرهم وأغزرهم وأنضجهم إنتاجًا، قال عنه الجاحظ : (لم أر أحدًا أقوى على المخمس[٤] والمزدوج ما أقوى عليه بشر)[٥] ، وقال عنه ابن النديم فى فهرسته : (كان شاعرًا يهتم على الأخص بأشعار المخمس والمسمط[٦] والمزدوج).

● **صحيفة بشر وقيمتها الأدبية:**

تمتلك هذه الصحيفة قيمة مزدوجة فى ذاتها من حيث كونها جمعت آراء ناضجة فى البلاغة والخطابة، وأساليب الكلام الصحيحة بحيث إنها تعتبر خير ما أثر عن المعتزلة فى البلاغة حتى أوائل القرن الثالث.

وصحيفة بشر تمتلك أيضًا قيمة تاريخية؛ فهى تصور لنا مدى استغلال المعتزلة لملاحظات العرب والأجانب فى البلاغة، وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذ من ملاحظات الطرفين إلى تبيّن قواعدها السديدة محتكمين فى ذلك إلى عقولهم الناضجة وبصائرهم النافذة .

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ٢.

(٢) بروكلمان جـ١ .

(٣) بروكلمان جـ١ .

(٤) التخميس عند الشعراء أن يضاف ثلاثة أشطر إلى شطرى البيت.

(٥) المنية والأمل.

(٦) المسمط من القصائد: ما يؤتى فيه بأشطار مقفاة بقافية ثم يؤتى بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة، ويستمر على هذا النهج مع التزام القافية المخالفة فى القصيدة حتى تنتهى.

ونظراً إلى أهمية هذه الصحيفة من النواحي التي ذكرناها فيما سبق فإننا سنورد فيما يلي مقاطع منها مع بعض التعليقات والشروح وبيان مواطن الأهمية فيها مستندين في ذلك إلى النص الكامل الذي نقله الجاحظ في كتاب البيان والتبيين[1] .

(خُذْ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك[2] ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً وأشرف حسباً[3] وأحسنُ في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلمُ من فاحش الخطأ وأجلبُ لكل عين، وغُرة[4] من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى[5] عليك مما يعطيك يومكَ الأطول بالكدِّ والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة[6] ، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . . .)[7] .

ويحذر بشر في موضع آخر من صحيفته الخطيب والبليغ من أن يسلك سبيل التعقيد في ألفاظه ، وأن يلائم بين المعاني والألفاظ فيختار للمعاني ما تستحقه من الألفاظ وخصوصاً إذا كانت المعاني شريفة ، فيقول :

(وإياك والتوعُّر[8] فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين[9] ألفاظك، ومن أراد معنىً كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهجنهما . . .)[10] .

وينصح (بشر) الأديب أن يكون همّه أن يحرز الصواب في كلامه ، وأن يوافق الحال والمقام في الألفاظ والمعاني التي يتخيرها ، وهو يرى أن البليغ الكامل هو الذي يمتلك المقدرة على أن يخاطب كلاً من الخاصة والعامة ، بمعنى أن يكون بمقدوره إفهام العامة موضوعات الخاصة من خلال تبسيط هذه الموضوعات :

---

(١) جـ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وانظر أيضاً الصناعتين .

(٢) أي : بادر إلى اغتنام ساعات النشاط وفراغ البال وتجاوب النفس معك في كلامك .

(٣) حسب الشيء : قدره وعدده ، وما يعده المرء من مناقبه أو شرف آبائه .

(٤) الغرة : الكريم من كل شيء . (٥) أجدى : أكثر فائدة .

(٦) المعاودة : الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه .

(٧) يقول إن ما يخرج منك من كلام أثناء فراغ البال وإقبال النفس أنفع وأكثر فائدة لك من الكلام الذي تخرجه وأنت غير مستعد ومهيأ له ؛ لأن الكلام الأول سيكون سهلاً بريئاً من التكلف كالحالة التي خرج فيها وهي حالة النشاط وفراغ البال .

(٨) التوعر في الكلام التحير وإيقاع الغير في الحيرة .

(٩) يشين : يعيب . (١٠) يهجن : يقبح ويعيب .

(فكن فى ثلاثة منازل، فإن أولى الثلاثة أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفًا وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من المعانى الخاصة وكذلك ليس يتضع[١] بأن يكون من معانى العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامى والخاصى، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسعة[٢] التى لا تلطف[٣] عن الدهماء[٤] ولا تجفو[٥] عن الأكفاء[٦] فأنت البليغ التامُّ. . .)[٧] .

ومن مظاهر تأثر (بشر) بالبلاغة اليونانية تأكيده على أن المتكلم البليغ ينبغى له أن يلائم بين المعانى والألفاظ التى يستخدمها وبين أحوال المستمعين وأقدارهم، ونفسياتهم، وهى فكرة يونانية تتردد بكثرة فيما أثر عن اليونانيين فى علم البلاغة، فعندما يخاطب المتكلم عامة الناس فإن عليه أن ينزل إلى مستواهم من خلال استخدام الأساليب والألفاظ والمعانى القريبة من أذهانهم، وأن يبتعد عن التعقيد والتشعّب، وعلى العكس من ذلك ينبغى له أن يسلك سبيل أمثاله من المتكلّمين عندما يوجّه حديثه إليهم بواسطة استعمال الألفاظ والأساليب التى يأنسون إليها، يقول فى هذا الصدد:

(وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار[٨] المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلمًا تجنب ألفاظ المتكلّمين، كما إنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام واصفًا أو مجيبًا أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحنّ وبها أشغف. . .)[٨] .

---

(١) يتضع: يصبح وضيعًا.
(٢) يريد من الألفاظ الواسطة الألفاظ المتوسطة والمعتدلة المعنى التى يفهمها الجميع.
(٣) تلطف: تخفى.
(٤) الدهماء: عامة الناس.
(٥) تجفو: تعرض.
(٦) الأكفاء: جمع كفء، المثل والنظير.
(٧) البيان والتبيين جـ١.
(٨) يقصد بشر من الأقدر هنا منازل الكلام ومكاناته من ناحية الجودة، وشرف الألفاظ والمعانى.

● **بشر الشاعر:**

سبقت الإشارة إلى أن بشراً يعدّ أحد شعراء المعتزلة الذين تجلّى مذهب الاعتزال في أشعارهم، ومن مظاهر هذا التجلّي أنه ضمن شعره الكثير من الإشارات المذهبية، والحكم والمواعظ، والدفاع عن مذهب الاعتزال، أمام المذاهب الأخرى، كما أن له قصيدتين طويلتين أثبتهما الجاحظ في كتاب الحيوان(١)، موضوعها بيان عجائب وأسرار عالم الحيوان وما تشتمل عليه هذه العجائب والأسرار من دلالات وآيات باهرة على وجود الخالق - تعالى- وقدرته، وهو موضوع جديد لم يسبق للأدب العربي ناهيك عن الشعر إن تطرق إليه من هذا المدخل العلمي الدقيق ذي الطابع الأدبي، إذ يقول في مقدمة قصيدته الأولى:

الناس دأبًا في طلاب الغنى ... وكلُّهم من شأنه الخَتْر(٢)

كأذؤب تنهشها أذؤبٌ ... لها عواء ولها زفر(٣)

تراهم فوضى وأيدي سبا ... كلٌّ له في نفثه سحر(٤)

تبارك الله سبحانهُ ... بين يديه النفعُ والضرُّ

من خلقه في رزقه كلهم ... الذيخُ والثيتل والغفر(٥)

ثم يستطرد بشر في ذكر الحيوانات وصفاتها وأحوالها، فيقول:

وساكنُ الجو إذا ما علا ... فيه ومن مسكنه القفر

والصدعُ الأعصم في شاهق ... وجأبة مسكنها الوعْر(٦)

والحيّةُ الصماءُ في جحرها ... والتتفل الرائغ والذر(٧)

جرادة تخرقُ متن الصّفا ... وأبغث يصطاده صقر(٨)

---

(١) الحيوان جـ٦.
(٢) الدأب والدأب: العادة. الشأن: الجد، التعب. الختر: الغدر.
(٣) أذؤب جمع ذئب، زفر يزفر زفراً النار: سمع صوت توقدها، ويقصد هنا الصوت الذي يصدره الذئب عندما يريد أن ينقض على فريسته.
(٤) النفث: النفخ. ويشير في عبارة (أيدي سبأ) إلى مكان مأرب في اليمن الذين تفرقوا وتشتتوا بعد انهدام سدهم فضرب بهم المثل فقيل: تفرق القوم أيدي سبأ وأيادي سبأ.
(٥) الحيوان جـ١، الذيخ: ذكر الضباع. الثيتل: شبيه بالوعل، والغفر: ولد الأرية، والأرية واحدة الأروى وهي جماعة من إناث الوعل.
(٦) الصدع من الأوعال والظباء والحمر والإبل: الفتى الشاب القوي.
(٧) التتفل: الثعلب الرائغ الماكر. الذر: صغار النمل.
(٨) أبغث: طائر أصغر من الرخم بطيء الطيران.

سلاحه رمحٌ فما عذرُه وقد عراه دونه الذعر[1]
والدبُّ والقردُ إذا عُلما والفيل والكلبة واليعر[2]
يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر[3]

ومن القصيدة الثانية[4] التى يبسط فيها (بشر) ذات الموضوع، أى: موضوع الحيوان وأسراره وعجائبه ودلالته على وجود الخالق - سبحانه - وقدرته التى لا يحدها شيء، ندرج الأبيات التالية:

لو فكر العاقل فى نفسه مدّة هذا الخلق فى العمر
لم ير إلا عجبًا شاملاً أو حجةً تنقش فى الصخر
فكم ترى فى الخلق من آية خفية الجسمان فى قعر[5]
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ يحارُ فيها وضح الفجر

وفى أبيات أخرى تبرز لنا النزعة المعتزلية فى تقديس العقل، والاحتكام إليه، والاعتماد عليه فى استنباط الأحكام الشرعية، والتوصل إلى معرفة الخالق من خلال القياس العقلى، ونبذ التقليد جانبًا:

لله درُّ العقل من رائد وصاحبٍ فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائبٍ قضيّة الشاهد للأمر
وإن شيئًا بعضُ أفعالهً أن يفصل الخير من الشر
بذى قوىً قد خصّهُ ربُّهُ بخالص التقديس والطُّهر
والعبدُ كالحرِّ وإن ساءَهُ والأبغث الأغثر كالصقر[6]
لكنهم فى الدين أيدى سَبا تفاوتوا فى الرأى والقدر
قد غمر التقليدُ أحلامهم فناصبوا القياس ذا السبر[7]
فافهم كلامى واصطبر ساعةً فإنما النجح مع الصبر
وانظر إلى الدنيا بعين امرئ يكره أن يجرى ولا يدرى

---

(١) عراه: اعتراه. (٢) اليعر: الشاه أو الجدى كذا فى اللسان، وفسرها الجاحظ بصغار الغنم.
(٣) أى يعجز السحر عن مجاراتها ومباراتها.
(٤) أوردها الجاحظ فى كتاب الحيوان جـ٦، وهى تبلغ سبعين بيتًا.
(٥) الجسمان: الجسم (٦) الأغثر: ما لونه الغثرة والغثرة لون من غبرة وحمرة إلى خضرة.
(٧) الأحلام: العقول. السبر: الغوص والعمق.

وبشر فى الأبيات الأربعة الأخيرة يشير إلى الفرق والمذاهب الأخرى وخصوصًا أهل السنة وكيف أنهم - حسب رأيه - جمدوا على التقليد وتعبدوا بالنصوص ولم يحتكموا إلى العقل وتفكيرهم الحرّ فى حل الإشكالات والشبهات التى تواجههم.

وهكذا فإن أدب بشر؛ نثره وشعره يدلّنا على لون من الأدب المذهبى الخالص الذى يكرس فيه الأديب أو الشاعر نفسه للدفاع بإخلاص وصدق عن مذهبه، فالاتجاهات والأفكار الاعتزالية شديدة الوضوح فيما خلّفه بشر من آثار من حيث تقديسه للعقل، ودفاعه عن عقيدته، وردّه على المخالفين لهذه العقيدة، ومن حيث ما تتضمّنه هذه الآثار - خصوصًا النثرية - من دلائل على التأثر بالفكر اليونانى الذى لعب المعتزلة الدور الأكبر فى نقله إلى الحضارة الإسلامية.

ومن الناحية الأدبية تدلّنا آثار بشر على تبحّر واسع، واطلاع عميق على اللغة ومفرداتها، وهو اطلاع تميز به المعتزلة عن غيرهم نظرًا إلى أن اللغة وأساليبها كانت تمثل بالنسبة إليهم السلاح الرئيس لمواجهة أعدائهم من جهة، وأعداء الإسلام من جهة أخرى، ولذلك لم يكن لهم بدّ من أن ينهلوا من الأدب واللغة، ويتعمقوا فى أساليبها وتعبيراتها ليكون بإمكانهم الدفاع عن معتقداتهم وأفكارهم بتمكّن واقتدار.

كُلثُوم بن عمرو العتابى[١]

.... - ٢٢٠هـ

هو كلثوم بن عمرو، من ولد عمرو بن كلثوم التغلبى الشاعر المعروف الذى قتل عمرو ابن هند، ويكنى أبا عمرو من أهل قِنَّسرين.

كان من لسنة المعتزلة، كما كان شاعرًا أديبًا مجيدًا مقتدرًا على الشعر، عذب الكلام، وكاتبًا جيد الرسائل حاذقًا.

قال عنه جعفر المالكى: ما سمعت كلامًا قطُّ لأحدٍ من المتكلمين أحسن من كلام

(١) اعتمدنا فى ترجمة العتابى وذكر أخباره على طبقات الشعراء لابن المعتز، وكتاب الصناعتين، والبيان والتبيين، وراجع أيضًا فى ترجمته الأغانى جـ١٣، ومعجم الأدباء والشعر والشعراء.

العتابى، وما رأيتُ كاتبًا تقلد الشعر مع الكتابة إلا وجدتُّه ضعيف الشعر غيره، فإنه كان فحل الشعر، جيد الكلام[1].

وبذلك فقد كان العتابى شاعرًا مجيدًا فى نفس الوقت الذى كان فيه كاتبًا وناثرًا قال عنه ابن المعتز: (وأشعار العتابى كلها عيون ليس فيها بيت ساقط)[1].

• نماذج من أشعاره:

أنشد فى الاستعطاف قائلاً:

ردَّت إليك ندامتى أملى ... وثنى إليك عنانه شكرى
وجعلتُ عتبك عتب موعظة ... ورجاء عفوك منتهى عُذرى

ومن بديع ما روى له أيضًا قوله فى مدح النبى ﷺ:

ماذا عسى قائلُ يثنى عليك وقد ... ناجاك فى الوحى تقديس وتطهيرُ
فَتَّ المدائحَ إلاّ أن ألسننا ... مُستنطقات بما تخفى الضمائير[2]

ومما يستحسن له قوله فى الغزل على طريقة الشعراء الجاهليين:

تجنب دار العامرية إنها ... تكلفه[3] عهد الصِّبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العينُ نظرةً ... فتقلعُ إلاّ عن دموع سواكب
ولا وصل إلا أن تُعاج مطيَّةٌ ... على دارس[4] الأعلام عافى الملاعب[5]

وقد ذكرنا أن (العتابى) كان أيضًا كاتبًا مجيدًا، ونذكر هنا أيضًا أن له آراء ووجهات نظر فى مجال البلاغة والنقد الأدبى ذكر طائفة منها صاحب كتاب الصناعتين، والجاحظ فى البيان والتبيين، فمن آرائه فى النقد الأدبى، قوله:

(الألفاظ أجسادٌ، والمعانى أرواحٌ، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يدٌ إلى موضع رجل لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية[6] . . .)[7].

---

(١) طبقات الشعراء.

(٢) فت فى ساعده: أى أضعفه، ويقال فت فى عضده: أى كسر قوته وفرق عند أعوانه، يريد أن النبى ﷺ أعجز وأضعف كل المدائح فلا تستطيع وصفه، والضمائير: الضمائر.

(٣) تكلفه: أى تذكره بعهد الصبا وتجعله يكلف به.

(٤) تعاج: يمال بها. دارس: مندرس. عافى: مهجور.

(٥) طبقات الشعراء.

(٦) حلية الإنسان: ما يرى من لونه وظاهره وهيئته.

(٧) الصناعتين.

ومن آرائه فى البلاغة ما نقله الجاحظ من قوله :

(كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة[1] ولا استعانة فهو بليغٌ، فإذا أردت اللسان الذى يروق الألسنة[2] ، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمَض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق[3] . . .)[4]

إبراهيم بن سيار النظّام

...... - ٢٣١هـ

هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصرى، أبو إسحاق النظّام من أئمة المعتزلة، اشتهر بالنظّام واختلف فى سبب إطلاق هذا اللقب عليه، فأشياعه يقولون : إنه من إجادته لنظم الكلام، وخصومه يعللون ذلك بأنه كان ينظم الخرز فى سوق البصرة[5] .

كان أحد أكبر رجالات المعتزلة، والمسهمين فى تأسيس مذهب الاعتزال، ودمج الفلسفة اليونانية بالفكر الإسلامى، فقد تبحّر فى علوم الفلسفة، واطلع على آراء الفلاسفة من طبيعيين وإلهيين[6] .

ذكر له المؤرخون وكتّاب التراجم أنه قد ألف كتبًا كثيرة فى الفلسفة والاعتزال[7] ، إلا أن أيًا من تلك الكتب لم يصل إلينا كما هو الحال بالنسبة إلى سائر مؤلفات ومصنفات المعتزلة التى طالت أغلبها يد الضياع .

وقد انفرد النظّام بآراء خاصة فى الاعتزال تابعته فيها فرقة من المعتزلة عُرفت بـ (النظامية) .

---

(١) الحبسة : ثقل فى اللسان يمنع من الإبانة.   (٢) يروق : يعجب .

(٣) يقول : إن من يمتلك المقدرة على إظهار ما خفى من الحق فى كلامه، وتزويق الباطل وإلباسه لباس الحق حيث يتصوره الآخرون حقًا فهو البليغ البالغ أعلى درجات البلاغة، وبالطبع فإن العتابى لا يقصد من كلامه هنا الحث على تصوير الحق فى صورة الباطل، وإنما يريد أن البليغ يفترض فيه أن يمتلك مثل هذه المقدرة لكى يكون حاضر الجواب، متفننا فى الكلام، معدًا لكل مقام مقاله .

(٤) البيان والتبيين جـ١ .

(٥) الأعلام للزركلى جـ١ ، الخرز الواحدة خرزة ما ينظم فى السلط من الجزع والودع .

(٦) الزركلى جـ١ .

(٧) انظر : الزركلى جـ١ ، والمنية والأمل، والانتصار .

وكان النظّام أعظم تلاميذ الهذيل، ترك البصرة - موطن نشأته - إلى بغداد بعد مدّة، وتوفى بها فى عنفوان شبابه بين سنتى (٢٢٠ - ٢٣٠هـ)(١) .

وذكر ذلك أيضًا المرتضى فى أماليه قائلاً: إنه ورد بغداد، وكان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة، وله فى ذلك تصانيف عدّة(٢) .

والذى يهمنّا من شخصية النظّام هو جانبها الأدبى، والآثار التى تركها الاعتزال على أعماله الأدبية، وتأثيرها على الأدب العربى، فمن المعلوم أن النظّام كان أديبًا، وكان ينظم الشعر وإن كان الجانب الفلسفى والكلامى هو الطاغى على شخصيته، فقد ذكر عنه الخطيب البغدادى أنه كان متأدبًا، وله شعر دقيق المعانى على طريقة المتكلمين(٣) ، وذكر صاحب لسان الميزان أنه كان شاعرًا أديبًا بليغًا(٤) ، وأكد (كارل بروكلمان) أنه لتمكنه فى اللغة لم يبرع فى الجدل فحسب، بل برع أيضًا فى قول الشعر. وقال عنه الخطيب البغدادى فى تاريخه: إنه كان متقدمًا فى العلم بالكلام، حسن الخاطر، شديد التدقيق والغوص على المعانى(٣) .

وعلى هذا فإن من الثابت تاريخيًا أن النظّام كان بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية والعقلية والكلامية الواسعة، ومقدرته على الجدل والمناظرة، متميزًا فى الجانب الأدبى بشطريه النثرى والشعرى.

ولعل الذى يلفت أنظارنا فيما روى عن النظّام من أشعار، وقطع أدبية الآثار البارزة والشديدة للعلوم العقلية والفلسفية والمنطقية عليها، وقد روى لنا الخطيب البغدادى والمرتضى فى أماليه طائفة مما أثر عن النظام من أشعار وأقوال ونوادر يتجلى لنا فيها المنحى الفلسفى والكلامى بشكل واضح وخصوصًا فى الجانب التشبيهى والوصفى، حيث أشار البغدادى إلى أن شعره دقيق المعانى سار فيه على طريقة المتكلمين(٣) ، وذكر الدكتور شوقى ضيف: أنه كان لا يبارى فى المناظرة وفى إيراد الحجج وتفريع المعانى وتوليدها(٥) .

ولعل أبا عبد الله المرزبانى كان أكثر تحديدًا لمذهب النظّام فى نظم الشعر وأثر علوم الكلام فيه، وكونه من أوائل الشعراء الذين أدخلوا فى الشعر المصطلحات والأساليب الكلامية والفلسفية، فقد ذكر فى هذا المجال قائلاً:

---

(١) بروكلمان جـ٤ . (٢) الأمالى جـ١ . (٣) تاريخ بغداد جـ٦ .
(٤) الزركلى جـ١ . (٥) شوقى ضيف : البلاغة .

(كان لإبراهيم مذهب فى ترقيق الشعر، وتدقيق المعانى لم يُسبق إليه، ذهب فيه مذاهب أصحاب الكلام المدققين. . .)[1]، وذكر الخطيب البغدادى نماذج من أشعاره التى يتجلى فيها ذلك الأسلوب، منها قوله فى الغزل ووصف المحبوب :

وشـــادن ينطقُ بالطرف ... يقصر عنه منتهى الوصف
رقّ فلو بزَّت سرابيله ... علقه الجوٌّ من اللطف
يجرحه اللحظ بتكراره ... ويشتكى الإيماء بالطرف
أفديه من مغرى بما ساءنى ... كأنه يعلم ما أخفى[2]

وروى المرتضى فى أماليه طائفة من أشعار النظّام سار فيها على منوال الأبيات السابقة، كقوله :

توهّمه طرفى فآلم خدَّهُ ... فصار مكان الوهم من نظرى أثرُ
وصافحهُ قلبى فآلم كفَّهُ ... فمن صفح قلبى فى أنامله عُقْرُ
ومرّ بقلبى خاطرًا فجرحتهُ ... ولم أر جسمًا قط يجرحه الفكرُ
يمرٌّ فمن لينٍ وحسن تعطُّفٍ ... يقالُ به سُكر وليس به سكر[3]

وواضح مافى الأبيات السابقة من تأثر ملموس بالبحوث الفلسفية والكلامية وخصوصًا فيما يتعلق بالتوحيد الذى تشدد فيه المعتزلة[4]، ونفوا على ضوئه أن تكون الصفات جزءٌ من الذات الإلهيّة، وقالوا بكون القرآن مخلوقًا تنزيهًا لله تعالى من أن يساويه شيء آخر فى القدم بالإضافة إلى القضايا والموضوعات التى أثاروها فى مجال العدل الإلهى الذى آمنوا به على أساس مبدأ العدل الإلهى المطلق بالقول بحرية الإرادة، وبالمنزلة بين المنزلتين[4].

وبالجملة فإن تأكيد المعتزلة على تنزيه الخالق تعالى حتى من صفاته، وصياغتهم لأصولهم ومبادئهم على أساس الحساسية الشديدة التى كانوا يبدونها فى مسألة التوحيد،

---

(١) تاريخ بغداد جـ٦، ترقيق الشعر : تحسينه .
(٢) المصدر السابق . وقد سبق شرح هذه الأبيات فى الباب الثانى، فصل (شعر المعتزلة) .
(٣) أمالى المرتضى جـ١ .
(٤) راجع الفصل الخاص ببحث أصول الاعتزال .

كل ذلك أوحى للنظّام أن يصوغ أشعاره تلك على ضوء تأثره بتلك المبادئ والأفكار، ومن جملة الأشعار الأخرى التى رويت للنظّام، قوله فى الغزل أيضًا:

يا تاركى جسدًا بغير فؤاد	أسرفت فى الهجران والإبعاد
إن كان يمنعك الزيارة أعينٌ	فادخلْ على بعلة العوّاد[١]
كيما أراك وتلك أعظم نعمة	ملكت يداك بها منيع قيادى[٢]
إنّ العيون على القلوب إذا جنتْ	كانت بليتها على الأجساد[٣]

وبالإضافة إلى ذلك، فقد حفلت الكتب التى أرخت للمعتزلة بالكثير من الأخبار والروايات التى تدلّنا على براعة النظّام فى النثر، وموهبته الأدبية البارزة منذ طفولته، وبداهته وحضور ذهنه فى المواقف المختلفة، ومن ذلك ما رواه المرتضى قائلاً:

(حُكى أن أبا النظّام جاء به وهو حدث[٤] إلى الخليل بن أحمد ليعلمه، فقال له الخليلُ يومًا ليمتحنه وفى يده قدحُ زجاج: يابنىَّ صف لى هذه الزجاجة، فقال: أبمدح أم ذم؟ فقال: بمدح، قال: نعم، تُريك القذى[٥]، وتقيك الأذى، ولا تستر ما ورا[٦]، قال: فذُمَّها، قال: سريعٌ كسرها، بطيء جبرها، قال: فصف هذه النخلة وأومأ إلى نخلة فى داره، فقال: أبمدح أم بذم، قال: بمدح، قال: حلو مجتناها[٧]، باسق[٨] منتهاها، ناضر[٩] أعلاها، قال: فذمها، قال: هى صعبة المرتقى[١٠]، بعيدة المجتنى، فقال الخليل، يابنى نحن إلى التعلم منك أحوج[١١] . . .)[١٢].

وروى عنه الخطيب البغدادى، أنه قال فى العلم: (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلَّك، فإذا أعطيته كلَّك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر[١٣])[١٤].

---

(١) العواد جمع عائد: الذى يزور المريض. (٢) القياد: الزمام.
(٣) الأمالى جـ١. (٤) الحدث: الجمع أحداث وحدثان: الشباب.
(٥) القذى: ما يقع فى العين والشراب من تبنة وغيرها.
(٦) هكذا وردت فى الأصل. ونرى أنها قد تكون (ماورا) أصلها (ما وراءها) فحذف الضمير والهمزة مراعاة للسجع.
(٧) المجتنى: ما يجنى من الثمر. (٨) باسق: عال.
(٩) ناضر: الحسن الناعم. (١٠) المرتقى: الصعود ومكان الصعود.
(١١) يريد أننا نحن الذين نحتاج إلى التعلم منك لا أنت.
(١٢) الأمالى جـ١. (١٣) يقول: إن العلم خطير ذو منزلة سامية وإن كان قليلاً.
(١٤) الأمالى جـ٦.

(وقيل له ما الاختصار؟ فقال: الذى اختصارُه فساد)[1] .

وروى المسعودى: أن يحيى بن خالد البرمكى سأل النظّام[2] فى أحد مجالسه أن يصف له العشق، فقال:

(أيها الوزير: العشق أرق من السراب، وأدب[3] من الشراب، وهو من طينة عطرة عُجنتْ فى إناء الجلالة، حلوُ المجتنى ما اقتصد[4]، فإذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً[5]، وَفساداً معضلاً[6]، لا يُطمع فى إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمى[7] على القلوب، فتعشب شعفًا[8]، وتثمر كلفًا[9]، وصريعه دائم اللوعة، ضيقُ المتنفس مُشارف الزمن، طويلُ الفكر، إذا أجنحه[10] الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى)[11] .

أبو الهذيل العلاف

١٣١ - ٢٣٥هـ

أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدى المعروف بالعلاف المتكلم، كان شيخ البصريين فى الاعتزال، ومن أكبر علمائهم، وصاحب مقالات فى مذهبهم ومجالس ومناظرات[12] .

وكان حسن الجدال، قوى الحجة، كثير الاستعمال للأدلة، والإلزامات، حكى أنه لقى صالح بن عبدالقدوس، وقد مات له ولد، وهو شديد الجزع عليه، فقال له أبو الهذيل:

---

(١) الأمالى جـ١ .

(٢) ورد اسمه فى مروج الذهب (إبراهيم بن يسار) وهو خطأ واضح، إذ أن الثابت أن اسمه إبراهيم بن سيار .

(٣) الدبيب: السير والحركة البطيئة الخفية .

(٤) أى أن العشق حلو وعذب ما اقتصد فيه العاشق ولم يفرط .

(٥) عاد: أصبح الخبل فساد العقل والجنون .

(٦) المعضل: المعيى المشكل .

(٧) تهمى: تقطر بغزارة .

(٨) الشغف: الوله من شدة الحب .

(٩) الكلف: التعلق الشديد بالشىء من حب ورغبة فيه .

(١٠) أجنحه: خيم عليه .

(١١) مروج الذهب جـ٣ .

(١٢) الوفيات جـ٤ .

(لا أعرف لجزعك[1] عليه وجهًا، إذ كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل إنما أجزعُ عليه لأنه لم يقرأ كتاب (الشكوك)، فقال له: كتابُ (الشكوك) ما هو ياصالح؟ قال: هو كتابٌ قد وضعته من قرأه يشكُّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشكٍّ أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، وشك أيضًا في قراءته كتاب (الشكوك) وإن لم يقرأه[2])[3].

كانت ولادته سنة ١٣١هـ، وقيل أربع وقيل خمس، وتوفى سنة ٢٣٥هـ بسرّ من رأى[4].

يروى عنه فى بلاغته وتصرّفه فى فنون القول، أنه اجتمع عند يحيى بن خالد البرمكى جماعة من أرباب الكلام، فسألهم عن حقيقة العشق، فتكلّم كل واحد بشىء، وكان أبو الهذيل فى جملتهم، فقال: (أيها الوزير، العشق يختم[5] على النواظر، ويطبع[6] على الأفئدة مرتعه فى الأجسام ومشرعه فى الأكباد[7]، وصاحبه متصرف الظنون، متفنن الأوهام، لا يصفو له مرجو، ولا يسلم له موعودٌ، تسرع إليه النوائب[8]، وهو جرعة من نقيع الموت[9]، ونقعةٌ من حياض الثكل[10]، غير أنه من أريحية[11]، تكون فى الطبع، وطلاوة توجد فى الشمائل[12]، وصاحبه جوادٌ لا يصغى إلىّ داعية المنع، ولا يصيخ لنازع العذل[13]...)[14].

---

(١) جزع منه: لم يصبر عليه فأظهر الحزن أو الكدر، وجزع عليه: أشفق منه.
(٢) ويمكننا درج هذا النص أيضًا تحت عنوان الأدب الساخر لدى المعتزلة لما يشتمل عليه من سخرية وتهكم من طريقة تفكير صالح بن عبدالقدوس.
(٣) الوفيات جـ٤. (٤) المصدر السابق.
(٥) ختم على قلبه: جعله لا يفهم.
(٦) طبع: دنس فى جسمه أو خلقه بعيب، وطبع السيف: علاه الصدأ.
(٧) المرتع: محل الإقامة. المشرع: المورد.
(٨) النوائب: ج نائبة: المصيبة. (٩) النقيع (هنا) السم.
(١٠) الثكل: فقدان الأم لولدها.
(١١) الأريحية: سعة الخلق، والمبادرة إلى المعروف.
(١٢) الطلاوة: الحسن والبهجة والشمائل جمع: شميلة: الطبع.
(١٣) يصغى ويصيخ: يستمع إلى. العذل: اللوم.
(١٤) الوفيات جـ٣ اعتمدنا فى ترجمة أبى الهذيل على الوفيات جـ٤، وجاءت ترجمته أيضًا فى تاريخ بغداد، ومروج الذهب، وأمالى المرتضى.

القاضى احمد بن أبى دؤاد الإيادى[1]

١٦٠ - ٢٤٠هـ

هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الإيادى القاضى، كان معروفًا بالمروءة والعصبية وله مع المعتصم فى ذلك أخبار مأثورة[2] .

ذكره أبو عبيد الله المرزبانى فى كتاب (المرشد فى أخبار المتكلّمين)، فقال: قيل: إن أصلهم من قرية بقنسرين، واتجر أبوه إلى الشام، وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال[3] .

وقال أبو العيناء عنه: ما رأيت رئيسًا قطّ أفصح ولا أنطق من ابن أبى دؤاد. . . وكان شاعرًا مجيدًا فصيحًا.

وقال المرزبانى: وقد ذكره دعبل بن علىّ الخزاعى فى كتابه الذى جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتًا حسانًا.

وقال لازون بن إسماعيل عنه: ما رأيت أحدًا قطّ أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد، وكان يسأل الشىء اليسير فيمتنع منه، ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله، وفى أهل الثغور وفى الحرمين، وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب، فيجيبه إلى كل ما يريد[4] .

عاصر ابن أبى دؤاد المأمون والمعتصم، والواثق وكان مقربًا إليهم، أثيرًا عندهم، صاحب نفوذ وكلمة مسموعة فى بلاطهم، إلى درجة أن المأمون عندما أسند وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم قال بشأن ابن أبى دؤاد: (وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك، فإنه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدى وزيرًا)[5] .

ولمّا ولى المعتصم الخلافة جعل ابن أبى دؤاد قاضى القضاة، وعزل يحيى بن أكثم، وخصّ به أحمد حتى كان لا يفعل باطنًا ولا ظاهرًا إلا برأيه، وامتحن ابن أبى دؤاد الإمام أحمد بن حنبل، وألزمه القول بخلق القرآن الكريم وذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين، ولما مات المعتصم وتولّى بعده ولده الواثق حسنت حال ابن أبى دؤاد عنده[6] .

كان لابن أبى دؤاد أخبار ومواقف كثيرة من الشعراء والأدباء، مما يدل على أنه كان متذوقًا للأدب، نقادًا للشعر، مقدّرًا ومكرمًا لأهله، ولذلك فقد مدحه الكثير من شعراء

(١ - ٦) (المصدر: وفيات الأعيان جـ١).

عصره، قال علي الرازي: رأيت أبا تمام الطائي عند ابن أبي دؤاد ومعه رجل ينشد عنه قصيدة منها:

لقد أنست مساوئ كلِّ دهر ... محاسنُ أحمدَ بن أبي دؤاد
وما سافرتُ في الآفاق إلاّ ... ومن جدواك[1] راحلتي وزادي

فقال له ابن أبي دؤاد: هذا المعنى تفرّدت به أو أخذته؟ فقال: هو لي، وقد ألممتُ فيه بقول أبي نواس:

وإن جرت الألفاظ منّا بمدحة ... لغيرك إنسانًا فأنت الذي نعني[2]

ومدحه أبو تمام أيضًا بقصيدة قال فيها:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُويت أتاحَ لها لسان حسود
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرفُ طيبُ عُرف العودِ

وكان ابن أبي دؤاد كثيرًا ما ينشد الشعر، ومن ذلك قوله:

ما أنت بالسببِ الضعيف وإنما ... نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما ... يدعى الطبيب لشدة الأوصاب[3]

وهجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتًا فبلغ خبرها القاضي أحمد، فقال:

أحسن من سبعين بيتًا هجًا ... جمعك معناهن في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة ... تغسل عنه وضر الزيت[4]

توفي القاضي أحمد بمرض الفالج في محرم سنة أربعين ومائتين على اختلاف في الروايات بعد أن غضب عليه المتوكّل وعزله ونكب المعتزلة منتصرًا لأهل السنة بزعامة أحمد بن حنبل، ونقل عنه أنه قال: ولدتُّ بالبصرة سنة ستين ومائة.

قال أبو بكر بن دريد عنه: كان ابن أبي دؤاد مؤالفًا لأهل الأدب من أي بلد كانوا، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم فلما مات حضر ببابه جماعة منهم، وقالوا:

---

(١) الجدوى: العطية. (٢) المصدر السابق.
(٣) الأوصاب المفرد: الوصب: المرض والوجع الدائم ونحول الجسم.
(٤) الوضر الجمع أوضار: وسخ الدسم غسالة القصعة ونحوها، أثر الطعام في القصعة.

يدفن من كان ساقة[1] الكرم، وتاريخ الأدب، ولا يتكلم فيه؟ إن هذا وهن وتقصير، فلما طلع سريره[2] قام إليه ثلاثة منهم، فقال أحدهم:

اليوم مـات نظامُ الملـك واللسـنِ ... ومات من كان يستعدى[3] على الزمن
وأظلمت سـبُلُ الآداب إذ حـجـبت ... شـمس المكارم فى غـيم من الكفن

وتقدم الثانى فقال:

ترك المنابر والسـرير تواضـعًـا ... وله منابر لو يَشَـا وسـرير[4]
ولغـيـره يجـبى الخـراج وإنمـا ... يجـبى إليـه مـحـامـدٌ وأجـورُ

وتقدم الثالث وقال:

وليس فـتـيق المسك ريح حنوطه[5] ... ولكـنه ذاك الثنـاء المخلّـفُ
وليس صرير النعشِ مـا تسـمـعونه ... ولكنه أصلاب قـومٍ تقـصـفـوا[6]

الجاحظ ١٥٩ - ٢٥٥هـ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بـ(الجاحظ) و(الحدقى) لجحوظ عينيه وبروز حدقتيه، وهو كما يعلم الجميع من أساطين الأدب العربى ورأس المدرسة النثرية فى العصر العباسى، وأحد أشهر متكلّمى المعتزلة، إذ كان له مذهب خاص فى الاعتزال عُرف بـ(الجاحظية). وهى فرع من المعتزلة، وقد صنف الجاحظ فى هذا المذهب كتابًا خاصًا أيده بالبراهين، وعضّده بالأدلة والاحتجاجات لمذهبه[7] .

وكان له أثر عظيم كأديب وعالم من علماء الكلام وإليه ينتسب الجاحظية، وهم فرقة من المعتزلة اتّبعت تعاليمه[8] .

---

(١) الساقة : الموكب، مؤخر الجيش.
(٢) السرير (هنا) : النعش الذى يحمل عليه الميت.
(٣) يستعدى : يستعان به.
(٤) السرير (هنا) : التخت والعرش.
(٥) الحنوط والحناط : كل طيب يمنع الفساد تحشى به جثة الميت بعد تجويفه فتحفظه من البلى طويلا، والفتيق : ما يعبق من رائحة المسك.
(٦) للاطلاع أكثر على ترجمة ابن أبى دؤاد يراجع : تاريخ الطبرى جـ٧، وطبقات المعتزلة، الوافى، الورقة، الشذرات، الصرير (هنا) صوت تمايل الخشب، تقصف : تكسر.
(٧) راجع مروج الذهب جـ٣ .
(٨) تاريخ العرب لفيليب حتى.

قال عنه الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) في معرض حديثه عن مذهب العثمانية: (كان من فضلاء المعتزلة، والمصنفين لهم، وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة، وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة وحسن براعته اللطيفة)[1] .

وفي هذا القول ما يدل على أثر الاعتزال، والمنحى الكلامي الجدلي على أدب الجاحظ ونتاجاته، حيث استطاع أن يمزج مزجًا رائعًا النزعة الكلامية والفلسفية بالأسلوب الأدبي، فجاءت مؤلفاته على هذا المنحى، فقد كانت روح الاعتزال تدفع أصحابها إلى تناول كل فروع المعرفة، فكان من أثر ذلك على الجاحظ أن اتسعت آفاقه العقلية، فتجسدت نزعة الجدل والمناظرة بشكل واضح على كتاباته.

- **أساتذة الجاحظ:**

جدَّ الجاحظ في طلب العلم منذ حداثة سنه، حيث بدأ عهده بتلقي العلم من الكتاب في البصرة، وكان يعاني من الفقر والخصاصة، فاضطر إلى أن يعمل في دكاكين الوراقين نهاراً، ويقضي ليله في قراءة ومطالعة الكتب الموجودة فيها، فلم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته.

وما لبث أن اتصل بشيوخ العلم والأدب في عصره فأخذ عن أبي عبيدة، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي الحسن الأخفش، وكان يتردد على (المربد) ويسمع اللغة من الأعراب شفاهاً، وأما أستاذه في الكلام والاعتزال فهو أبو إسحاق النظّام.

حدّث عن جماعة من الفقهاء كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ويزيد بن هارون، والسري بن عبدويه.

وروى عنه المبرِّد، وابن أخته يموت بن المزرَّع، وأبو بكر السجستاني وغيرهم.

- **علومه:**

وعلى عادة العلماء في عصره كان الجاحظ موسوعيًا شموليًا في العلوم والمعارف التي نظر فيها؛ فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعيات والرياضيات، والتاريخ والسياسة والأخلاق والفراسة حتى اكتملت آلاته وأدواته العلمية، كما دأب على ذلك شيوخ المتكلمين والمعتزليين، فكان فقيهًا، متكلمًا، متفلسفًا، متمنطقًا، محدثًا، بارعًا أشد البراعة في اللغة والأدب حتى تفوق على أقرانه، وبز أدباء عصره من الكتاب، وعُدا ركنًا

---

(١) الملل والنحل جـ١.

منيعًا من أركان الأدب العربى والبلاغة ربما فى جميع عصور الأدب العربى، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للجاحظ اهتمامات علمية فى الطبيعيات كما نرى ذلك بوضوح فى كتابه الشهير (الحيوان) الذى طرح وبحث فيه موضوعات علمية تتعلق بعالم الحيوان وخصائصه وصفاته مع مزج لهذه الموضوعات بالأغراض والأساليب الأدبية والفنية، وهى خصوصية تميّز بها شيوخ المعتزلة فى الأدب، كما رأينا فى الفصل الذى عقدناه فى الباب الثالث لدراسة نثر المعتزلة.

• اعتزال الجاحظ، ونزعته الحرّة فى التفكير:

سبق وأن ذكرنا أن أبا عثمان الجاحظ تلقّى الاعتزال عن أبى إسحاق النظّام الذى مرّت ترجمته، فكان بطبيعة الحال يتميز - كأى معتزلى آخر وربما بشدة أكثر - بحرية التفكير، والاعتماد على العقل إمامًا، ومعيارًا أساسيًا فى الشرع، واستنباط الأحكام، والمعتقدات دون الاطمئنان إلى الحديث والنقل على نهج المعتزليين، بل أنه تجاوز ذلك إلى رد الكثير من الأحاديث، وهاجم فى كتاباته بشدة الفقهاء، والمفسرين ونقلة الأحاديث من المذاهب والاتجاهات المختلفة (عدا المعتزلة طبعًا) كالسنة، والشيعة، والغالية، و المتصوفة، كما نرى ذلك بوضوح فى كتاب الحيوان حيث نلاحظ فيه مقالات كثيرة هاجمهم فيها، وناظرهم وجادلهم بعنف ودون هوادة.

• نماذج من نقده للعلماء من المذاهب الأخرى:

من ذلك قوله فى كتاب الحيوان: (وقال الله عز وجل: ﴿والتين والزيتون...﴾ فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق، والزيتون فلسطين.. والكلمات فى هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وإنما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما أشبه ذلك)(١).

فها هنا يرد الجاحظ على زيد بن أسلم ويأخذ عليه أخذه بظاهر الألفاظ، فى حين أن الله -تعالى- يريد من ذكر هذه الثمرات والإقسام بها بيان عظمة النعم التى أنعم بها على عباده.

وفى موضع آخر من كتاب الحيوان يقول الجاحظ رادًا على جماعة من المتصوفة: (وفى القرآن قول الله عز وجل: ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل...﴾، فقد زعم ابن حائط وناس

(١) الحيوان جـ١.

من جهال الصوفية أن فى النحل أنبياء لقوله عز وجل : ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾، وما خالف أن يكون فى النحل أنبياء[1] بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله على المخرج العام[2] : ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل﴾ ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب[3] بل أطلق القول إطلاقًا)[4] .

فالجاحظ ينتقد فى النص السابق بعضًا من المتصوفة الذين تعسفوا فى تفسير آيات القرآن الكريم وبالغوا فيه مستندين إلى دلائل، وقياسات لا تنسجم مع العقل والمنطق.

ويخرج الجاحظ - على عادته - نقده هذا بشىء من التهكم والسخرية حيث نراه يجارى فى نهاية النص المتصوفة فى هذا التّفسير فينتهى - طبقًا لقياساتهم واستدلالاتهم - إلى أن النحل أنبياء كلها ! .

ونراه فى موضع آخر يسخر من بعض المفسرين وأصحاب الأخبار، فيقول :

(وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسةً، فرمى من منخريه بزوج سنانير[5] فلذلك السنور أشبه شىء بالأسد وسلح[6] الفيل زوج خنازير أشبه شىء بالفيل، قال كيسان : فينبغى أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها، وضحك القوم)[7] .

● **اعتزال الجاحظ**

كان الجاحظ علمًا معروفًا من أعلام الاعتزال، وإليه تنسب الفرقة المعتزلية التى عُرفت به حيث يطلق عليها اسم (الجاحظية)، وهى فرقة انفرد بها الجاحظ عن فرق المعتزلة الأخرى ببعض الآراء التى ذكر بعضًا منها الشهر ستانى فى (الملل والنحل)، والبغدادى فى (الفَرْق بين الفرَق)، ومن هذه الآراء أن المعارف ضرورية مركبة فى طباع العباد، وليست من أفعالهم، وليس للعباد كسب سوى الإرادة لأنها جنس من الأعراض، وأما الأفعال فجبرية تحصل على العباد طباعًا، ومنها أن أهل النار لا يخلدون فيها عذابًا بل يصيرون إلى طبيعة النار، وأن الله لا يدخل أحدًا فى النار بل إن النار تجذب أهلها إليها.

---

(١) يقول ما أخطأ فى قوله إن فى النحل أنبياء وذلك على سبيل التهكم والاستهزاء.
(٢) أى على سبيل التعميم.
(٣) اليعاسيب : ج يعسوب وهو ذكر النحل. (٤) الحيوان جـ٥.
(٥) السنور : الهر، الجمع سنانير
(٦) سلح : تغوط وهو خاص بالصبر والبهائم
(٧) الحيوان جـ١.

وبالجملة فإن الجاحظ في مذهبه هو عينه مذهب الفلاسفة، إلا أنه يميل إلى الطبيعيين أكثر من الإلهيين كما يقول الشهرستاني.

● خصائص الجاحظ في نثره:

نرى في ما خلفه الجاحظ من آثار ومؤلفات تجسدًا واضحًا ونموذجيًا لجميع النزعات والاتجاهات الاعتزالية في التفكير مع نضج أكثر، وغزارة وتوسعًا أكبر، فهو يشكل النموذج الأمثل والأكمل للباحث الأدبي لكي يدرس ويتقصى آثار الاعتزال في الأدب العربي، ولذلك فقد خصصنا هذا الفصل الطويل نسبيًا لدراسة مؤلفاته وخصائصه الأسلوبية، وتوسعنا بعض الشيء في استعراضها وبحثها، ذلك لأن دراسة آثار الجاحظ من شأنها أن تسلط الكثير من الأضواء، وتكشف الكثير من مجاهل إسهامات المعتزلة في الأدب العربي.

ولعل أول ما يستوقفنا في آثار الجاحظ وكتاباته خصائص النزعة الأدبية والفنية الواضحة الغالبة على أسلوبه في جميع ما تطرق إليه قلمه، يقول عنه الشهرستاني مشيراً إلى هذه الخصوصية:

(كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم، وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة، وخلط وروج[1] بعباراته البليغة، وحسن براعته اللطيفة...)[2].

ونحن نجد هذه النزعة الفنية واضحة كل الوضوح في كتابه الشهير (البخلاء) وهو كتاب أدبي قصصي إخباري يتناول بالوصف الفني الدقيق والمتشعب للحالات الجسدية والنفسية للبخلاء وطرق معايشهم، وحرصهم، وأساليبهم، وحيلهم لدفع الضيوف، ونوادرهم وطبائعهم، بأسلوب أدبي وفني أخاذ ممزوج بالدعابة والسخرية، والتهكم.

وقد استعرض الجاحظ في كتابه هذا مقدرته الفذة على التصرف في فنون الكلام، والتلاعب بالعبارات والألفاظ، حتى أنه كثيراً ما يعمد في كتابه هذا إلى إثبات المواضيع المختلفة والاستدلال لها، ثم إذا به يبادر إلى نفيها ونقضها بإيراد جملة أدلة وبراهين أخرى، وهدفه من ذلك عرض قدرته على الإمساك بزمام الكلام وتصريفه حيث يشاء وهي خصوصية يتميز بها أدباء المعتزلة متأثرين بثقافتهم الميالة إلى الجدل والاستفاضة في ذكر التفاصيل.

---

(١) روج فلان كلامه: زينه وأبهمه فلا تعلم حقيقته.

(٢) الملل والنحل جـ١.

وفيما يلى ندرج نموذجًا من هذا الكتاب ليتسنّى لنا التعرف عن كثب على هذه الخصوصية :

(زعموا أن رجلاً قد بلغ فى البخل غاية، وصار إمامًا، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم، خاطبه، وناجاه، وفداه(١) واستبطأه(٢) ، وكان مما يقول له : (كم من أرض قد قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل قد رفعت، ومن رفيع قد خملت، لك عندى أن لا تعرى ولا تَضحى)(٣) ، ثم يلقيه فى كَيسه ويقول له : (اسكن على اسم الله فى مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج(٤) منه)، وأنه لم يدخل فيه درهمًا قط فأخرجه .

وإن أهله ألحوا عليه فى شهوة(٥) ، وأكثروا عليه فى إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكن ذلك، ثم حمل درهمًا فقط، فبَيناه(٦) ذاهب إذ رأى حواء(٧) قد أرسل أفعى لدرهم يأخذه، فقال فى نفسه : (أتلفُ شيئًا تبذلُ فيه النفس بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظة من الله)، فرجع إلى أهله وردَّ الدرهم إلى كيسه، فكانوا منهَ فى بلاء، وكانوا يتمنون الخلاص منه بالموت والحياة بدونه .

فلما مات، وظنوا أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره، ثم قال : (ما كان أدم(٨) أبى؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون فى الإدام)، قالوا : (كان يتأدم(٩) بجبنة عنده)، قال : (أرونيها) فإذا فيها حزٌ كالجدول من أثر مسح اللقمة، قال : (ما هذه الحفرة؟) قالوا : (كان لا يقطع الجبن إنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى)، قال : (فبهذا أهلكنى، وبهذا أقعدنى هذا المقعد، لو علمتُ ذلك ما صليت عليه!)، قالوا له : (فأنت كيف تريد أن تصنع)، قال : (أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة!)(١٠) .

---

(١) فداه : قال له : فداك نفسى .

(٢) استبطأه : استطال بعده عنه، وقال : أبطأت فى مجيئك إلىّ

(٣) يضحى : يتعرض لنور الشمس، والضواحى من الشجر : ما لا ورق له،

(٤) تزعج منه : ترغم على تركه .

(٥) يريد أن أهله اشتهوا شيئًا فألحوا عليه فى شرائه .

(٦) فبيناه : فبينما هو .

(٧) الحواء : مدرب الحيات .

(٨) الأدم والإدم : ما يؤخذ من الطعام بالخبز .

(٩) يتناول لقمة من الطعام .

(١٠) البخلاء ص١٣١ .

وبعد فإننا فى النص السابق نقف إزاء أديب بارع فى التصوير، ماهر فى تشويق القارئ، واستدراجه إلى النتيجة التى يريد أن يلقيها إليه، وهو بالإضافة إلى ذلك قدير على السخرية والتهكم والاستهزاء. وانتزاع الابتسامة وربما الضحكة من المستمعين إليه، إلا أنه لا يلقى مزحته إلقاء دون مقدمات، ودون تمهيد، ودون إيهام القارئ فى البدء بأن الابن سيخالف سيرة أبية، وسيكون جوادًا، منفاقًا يعوض عن ما بدر من والده من بخل، وتقتير على أهله، إلا أن النتيجة جاءت معاكسة لذلك تمامًا؛ فقد عمد الجاحظ بقدرة ومهارة فى نهاية النص إلى الكشف عن حقيقة هذا الابن، فإذا هو أشد بخلاً، وأمعن فى التقتير من أبيه وذلك من خلال قوله فى ختام النص جوابًا على سؤال أهله: (أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة!).

● عرض الحقائق والظواهر العلمية بأسلوب أدبى:

وهى خصوصية أخرى من خصائص المعتزلة عمومًا والجاحظ خصوصًا؛ فالعلم والأدب قرينان فى كل ما كتب الجاحظ؛ تلقى الحقيقة العلمية فى الكتاب الأدبى، والطرفة الأدبية فى الكتاب العلمى، ونحن نلمس التعبير الأدبى حتى فى كتب العلم، ويطالعنا المنهج العلمى فى عرض الفكرة ومعالجتها، وهو دائمًا يذهب من المقدمات إلى النتائج، ومن الخاص إلى العام، متبعًا طريق الجدل المنطقى، متناولاً كل أمر من جميع نواحيه حتى يستوفى حقه شأنه فى ذلك شأن العلماء وهم يسجلون الحقائق والظواهر فى مختبراتهم ويثبتون كل شاردة وواردة عنها.

ورغم صعوبة وجفاف الموضوعات العلمية والفلسفية التى تطرق إليها الجاحظ فى كتاباته إلا أنه رفض أن يكتب للخاصة من المفكرين والعلماء والمثقفين، وأصر على جعل الفكر ملكًا لعامة الناس، فكتب بلغة بسيطة مجردة فى معظم الأحيان من المصطلحات العلمية الخاصة.

ولعل ذلك هو السبب فى اعتماده على بساطة اللفظ والتعبير، وبعدهما عن الغريب والحوشى، وعلى وضوح الدلالة، ودقة الصلة بين اللفظ والمعنى.

● **نموذج من التناول الأدبى للموضوعات العلمية من كتاب الحيوان:**

(حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى، وأخوه روح الكاتب، ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر[1] حية تتصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد.

زعموا أنها إذا انتصف النهار، واشتد الحر فى رمال بلعنبر، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل[2]، ورمض الجندب[3]، غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز[4] أو عود ثابت، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة فإذا رأى عودًا قائمًا وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه، فإن كان جرادة أو جعلا[5] أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها، وإن كان الواقع على رأسها طائرًا يشبعها مثله، أكلته وانصرفت، وإن كان ذلك دأبها[6] ما منع الرمل جانبه[7]، فى الصيف والقيظ[8]، فى انتصاف النهار والهاجرة[9]، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود، وأنه سيكون له مقام الجذل[10] للجرباء، إلى أن يسكن الحرُّ، ووَهجُ الرمل.

وفى هذا الحديث من العجب أن تكون الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود، وفيه قلة اكتراث[11] الحية للرمل الذى عاد كالجمر، وصلح أن يكون ملة وموضعًا للخبزة[12]، ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية[13] ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة، فهذه أعجوبة من أعاجيب مافى الحيات)[14].

---

(١) بلعنبر: أصلها بنو العنبر. (٢) يريد أن كلا من الحافى والمنتعل لا يستطيعان الوقوف على الأرض لشدة حرها.

(٣) رمض: رمض الطائر: احتر جوفه من شدة العطش، ورمض الرجل: أحرقت الرمضاء قدميه. الجُنْدب والجَندب من الجراد جمع جنادب.

(٤) مركوز: مغرور فى الأرض (٥) الجعل: نوع من الخنفساء.

(٦) الدأب: العادة (٧) ما منع الرمل جانبه: أى ما دامت حرارته بالغة مبلغًا لا يستطاع لمسه.

(٨) القيظ: الحرارة الشديدة الحارقة. (٩) الهاجرة: الوقت الذى يبلغ فيه الحر ذروته وهو منتصف النهار.

(١٠) الجذل من الشجرة: أصلها الباقى بعد ذهاب فروعها، وعوده ينصب للإبل الجربى لتحتك به تصغيره (الجذيل) ومنه قول القائل (أن جذيبها المحكك) أى الذى يحتك به كثيراً وهو مثل لمن يتجأ إليه، ويستغنى برأيه جمع جذال، وجذل، وجذول، وجذولة.

(١١) اكتراث: اهتمام.

(١٢) الملة: الجمر، الرماد الحار خبز الملة هو الذى يخبز فيها يقول: إن حرارة الرمل تبلغ حدا بحيث يصلح أن يخبز عليه الخبز مبالغة فى تشبيه شدة الحرارة بالجمر.

(١٣) يشير إلى ما سبق أن قاله فى مطلع هذا النص من أن الحية تغرز ذنبها فى الرمل عند اشتداد الحرارة وهو هنا يتعجب من احتمالها هذه الحرارة لساعات من النهار، وهى على هذه الحالة.

(١٤) الحيوان: جـ٤

• الاستفاضة والإطناب:

وهماخصوصية أخرى من خصوصيات أدب المعتزلة عمومًا، والجاحظ خصوصًا أملتها عليه نزعته الاعتزالية الكلامية التى تحدو بصاحبها إلى الإطناب، واستيعاب التفاصيل، والوصف الدقيق المتشعب للجوانب المختلفة للموضوع الذى يتناوله لأن مثل هذا التناول يتطلب إيراد الأدلة المختلفة، وهذا الإيراد يقتضى بدوره الإطناب فى الحديث، والتوسع فى الطرح، ثم إن المعتزلة - ومنهم الجاحظ - عرفوا بالقدرة على المناظرة، والنقاش، والجدل، ومن المعلوم أن هذه الأساليب الكلامية تستوجب من صاحبها الشرح، والتفصيل، والتطرق إلى المواضيع المختلفة، ومحاولة إقناع الخصم والرد عليه بشتى الأساليب ويذكر مختلف المواضيع.

ونحن نستطيع أن نقول إن جميع كتابات الجاحظ تقريبًا تعتبر نموذجًا لنزعة الاستفاضة والإطناب فى الكتابة، فلا حاجة بنا هنا إلى إيراد نموذج لهذه الخصوصية.

• السخرية والتهكم:

وهى خصوصية عرف بها الجاحظ، ولازمته فى أغلب آثاره ومنها كتاب البخلاء، ورسالة التربيع والتدوير، وقد برع الجاحظ أيما براعة فى هذا اللون من الأدب نظرًا إلى أنه هو نفسه كان ميالاً بطبعه إلى اللهو، والمزاح، والسخرية، خفيف الروح، ظريف الحديث، طيب النكتة، مطبوعًا على السخر والتهكم.

على أن أدباء المعتزلة كانوا - بصورة عامة - ميالين إلى هذا اللون من الأساليب كما لاحظنا ذلك لدى بشر بن المعتمر، وأبى الهذيل العلاف، والنظّام، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى اعتدادهم بمذهبهم، وتصورهم أن هذا المذهب القائم على تقديس العقل والمنطق هو أفضل المذاهب على الإطلاق، وأنهم على ضوء ذلك يمثلون نخبة أبناء مجتمعهم، وأكثرهم وعيًا وفهمًا للأمور، ولذلك فإنهم كثيرًا ما كانوا يسخرون ويتهكمون من العقائد والأفكار الأخرى وخصوصًا تلك المنتشرة بين عامة الناس.

• نموذج من رسالة التربيع والتدوير:

وضع الجاحظ هذه الرسالة فى هجاء شخص يدعى (أحمد بن عبدالوهاب) كان - على ما يبدو - من طبقة كتاب الأمراء، وقد عاصر محمد بن عبدالملك الزيات وكان أحد أصحابه المقربين إليه[1].

---

(١) الأغانى جـ١٢.

وتكمن أهمية هذه الرسالة فى كونها تنطوى على طريقة فنية فى السخرية لا تجارى، فأبو عثمان ينتقل بمهجوه من حقل إلى حقل ويزدريه فلا يصغره فى عيون الناس فقط، بل فى عين نفسه حتى ليودّ لو أن الأرض خسفت به خوفًا من أن تقع عليه عين[1] .

وإذا كانت رسالة التربيع والتدوير معرضًا للمسائل الثقافية التى شغلت عقول الناس فى عصره، فهى نموذج لأدب الجاحظ تمثلت فيه خصائصه الفنية خير تمثيل . . ومن تلك الخصائص مزج الجد بالهزل، وقد احتج لهذا الأسلوب بقوله إن لكل منهما فوائد، وقد أراد من المزج بينهما طرد السأمة عن نفس القراء . . [2] .

● **النموذج :**

قال الجاحظ فى جانب من رسالته ساخرًا ومتهكمًا من قبح هيئة أحمد بن عبدالوهاب على سبيل الذم بما يشبه المدح .

(. . . ولربما رأيت الرجل حسنًا جميلاً، وحلوًا مليحًا، وعتيقًا[3] رشيقًا، وفخمًا نبيلاً ثم لا يكون موزون الأعضاء، ولا مقدور الأجزاء، وقد تكون أيضًا الأقدارمتساوية غير متقاربة ولا متفاوتة، ويكون قصدًا[4] ومقدارًا عدلاً وإن كانت هناك دقائق خفية لا يراها إلا الألمعى، ولطائفُ غامضة لا يعرفها إلا الذكى، فأما الوزن المحقق[5] والتعديل المصحح والتركيب الذى لا يفضحه التفرس[6] ، ولا يحصره التعنت[7] ، ولا يتعلل جاذبه، ولا يطمع فى التمويه[8] ناعته فهو الذى خصصت به دون الأنام، ودام لك على الأيام، وكذا الحسن إذا كان حرًا مرسلاً، وعتيقا مطبقًا[9] لا يتحكم عليه الدهر، ولا يديله[10] الزمان، ولا يحتاج إلى تعليق التمائم، ولا إلى الصون والسَّكن، ولا إلى المناقش[11] والكحل، ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سهل فى العيون تسهيلاً،

---

(١) الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره . جميل جبر، وأيضًا الجاحظ حياته وآثاره .

(٢) رسائل الجاحظ – الرسائل الأدبية .

(٣) العتيق (هنا) الجميل ج : عتقاء وعتق .

(٤) القصد : المعتدل والوسط والفاعل فى (يكون) يعود إلى الرجل .

(٥) المحقق : الثابت والمتحقق منه .

(٦) التفرس : تفرس فيه نظر وثبت نظره فيه وتفرس فيه الخير : توسمه .

(٧) التعنت : إدخال الأذى، وطلب الزلة والمشقة .

(٨) التمويه : موه عليه الأمر أو الخبر : زوره عليه وزخرفه ولبسه أو بلغه خلاف ما هو .

(٩) عتيقا مطبقا : كريمًا شاملاً .

(١٠) لا يديله : لا يحوله ولا يغيره .

(١١) المنقاش ما ينقش به .

وحبب إلى القلوب تحبيبًا، وقرب إلى النفوس تقريبًا حتى امتزج بالأرواح وخالط الدماء وجرى فى العروق، وتمشى فى العظم بحيث لا يبلغه السم[1] ولا الوهم ولا السرور الشديد ولا الشراب الرقيق، لكان فى ذلك المزيَّة الظاهرة، والفضيلة البينة . . .)[2] .

• إسهامات الجاحظ فى البلاغة:

يعتبر الجاحظ أحد أساطين وأركان البلاغة فى الأدب العربى، ويعتبر كتابه (البيان والتبيين) أحد الأركان والأعمدة الأساسية للبلاغة والنقد فى الأدب العربى، قال عنه المسعودى:

(وله كتب حسان منها كتابُ البيان والتبيين، وهو أشرفها لأنه جمع بين المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به. . ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه)[3] .

وقال عنه ابن خلدون:

(سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (أى علم الأدب) وأركانه أربعة دواوين، وهى: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. . .)[4] .

وكتاب البيان والتبيين يقع فى ثلاثة أجزاء يهتم الجاحظ فى الجزء الأول بالخطابة والبيان وما يتصل بهما من موضوعات كعيوب النطق مثل الحصر والعى[5] ، وألوان الدلالات، ثم ينتقل إلى الخطباء ومشاهيرهم، وأساليبهم، ويورد مقاطع من الخطب والأشعار، ثم يبين الصلة بين المعانى والألفاظ ذاكرًا آراءه فى هذا المجال الحيوى من مجالات البلاغة.

وينتهى من ذلك إلى ذكر البلاغة ورأى العرب والأعاجم فيها، وكيف يكون الشعر أو النثر بليغًا، ويذكر الأسس التى تقوم عليها البلاغة.

---

(١) يقول: إن جمالك بلغ حدًا من النفوذ فى الأرواح بحيث إن السم على قدرته على النفوذ فى أدق أجزاء الجسم لا يستطيع أن يبلغ ذلك الحد.

(٢) رسائل الجاحظ - الرسائل الأدبية.

(٣) مروج الذهب جـ٤.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٥) حصِر يحصر حصرًا: عيى فى النطق وأصله من الحصر أى الضيق. وعيَّ عيًا - فى النطق - حصر فهو عى وعَيِى.

ويرد على خصومه الذين حسنوا من العيّ، ويبطل حججهم، ثم ينتهى إلى نصح من يزعم لنفسه الشعر أو الأدب، ويقول إن كليهما موهبة وفطرة، ولا يكون المرء شاعراً أو أديبًا دونهما.

وهو ينصح بتهذيب الشعر وتنقيحه، وعدم الإطالة والتكرار وخاصة فى الهجاء ويدعو إلى اختيار اللفظ، ووضوح التعبير، وترك الحوشى والغريب لأنه يباعد بين أفهام الناس وبين المعانى.

ويشيد بالصمت حين تكون فيه السلامة ويذكر رأى الحكماء والأدباء فيه، ويحدد مواضع الصمت والكلام.

ويتحدث فى فصل آخر عن المتكسبين بالشعر، ويورد مقطوعات من شعرهم، وينتقل إلى بعض المختارات من الخطب والحكم والأمثال السائرة.

وبالجملة فقد أورد الجاحظ فى (البيان والتبيين) آراء ناضجة يعتدُّ بها فى البلاغة والنقد الأدبى كان لها الأثر فى إرساء دعائم علوم البلاغة، وصياغة الآراء النقدية التى ظهرت بعده وخصوصًا فيما يتعلق بالمباحث المرتبطة بالكيفية التى يجب أن تكون عليها العلاقة بين اللفظ والمعنى، وتعريف البلاغة والبليغ، وعيوب النطق ومحاسنه، ومواصفات الخطيب وما إلى ذلك من موضوعات تتصل اتصالاً وثيقًا بعلم البلاغة والنقد الأدبى اللذين اهتم بهما شيوخ المعتزلة فى الأدب اهتمامًا خاصًا وأفردوا لدراستها الفصول والأبواب والمؤلفات كما رأينا فى الفصل الذى خصصناه لدراسة نثر المعتزلة.

● **نموذج من البحوث البلاغية والنقدية من كتاب (البيان والتبيين):**

(قال بعض جهابذة[1] الألفاظ ونقاد المعانى: المعانى القائمة فى صدور العباد، المتصورة فى أذهانهم المتخلجة[2] فى نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم[3] مستورة مخفية وبعيدة وحشية[4]، ومحجوبة مكنونة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه[5]، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها،

---

(١) الجهابذة ج جهبذ الناقد العارف بتمييز الجيد من الردئ.

(٢) المتخلجة: المضطربة. (٣) فكرهم: تفكيرهم.

(٤) وحشية: يعنى غير مأنوسة ومألوفة

(٥) الخليط: المخالط والمعاشر.

واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلبها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريبًا، وهي التي تخلص[1] الملتبس[2]، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل[3] مقيداً، والمقيد مطلقًا، والمجهول معروفًا، والوحشي مألوفًا، والغفل موسومًا[4]، والموسوم معلومًا، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع[5]، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله - تبارك وتعالى - يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. . .)[6].

وهكذا يرى الجاحظ في النص السابق أن ما يضطرب في الذات من المشاعر والأفكار والخواطر لا سبيل إلى حصره، فإذا استبقاها المرء في أعماقه، وحجبها عن الآخرين لم تكن لها قيمة تذكر لديهم لأنهم لا يستطيعون الحكم الصحيح على مجهول، ولم تكن ذات وزن فني مهما كانت من الرفعة والعمق، لأن الفن غير قادر على إدراك صلتها به إن لم توضع في إطار من التعبير.

أما التعبير فيجب أن يكون فصيحًا واضح الدلالة بأن تكافئ الألفاظ المعاني، فتنقلها نقلاً دقيقًا في صيغ موجزة مختصرة ما أمكن الاختصار ليعم نفعها وتشمل فائدتها، وهذا هو البيان الذي حببه الله - تعالى - إلى الناس، وأشار إليه القرآن الكريم، وتفاخرت به الشعوب.

وبذلك نخلص من كل ما سبق إلى أن الجاحظ يعتبر مدرسة أدبية قائمة بحد ذاتها، وأنه يمثل خير تمثيل الاتجاه الاعتزالي العقلي في النثر، فنحن نجد جميع خصائص ومميزات رجال الاعتزال مجتمعة بشكل نموذجي في آثاره، من استفاضة وعمق في الوصف، وإطناب وتطويل في الشرح والتفصيل، ونزعة أدبية وفنية في الحديث عن الموضوعات العلمية والفلسفية البحتة، وميل إلى التهكم والسخرية والنقد في التعامل مع الخصوم، والمذاهب والمعتقدات التي لا تنسجم مع المنطق العقلي للمعتزلة، واهتمام ببحث ودراسة وطرح المباحث البلاغية، والبيانية والنقدية، ودقة في وصف الحالات الروحية والنفسية

---

(١) تخلص : تصفى وتميز.
(٢) الملتبس : المختلط والمشتبه به
(٣) المهمل من الكلام خلاف المستعمل
(٤) الغفل : المجهول. الموسوم: المعلم بعلامة.
(٥) أنجع : أنفع وأجدى.
(٦) البيان والتبيين جـ١ .

إلى آخر ذلك من موضوعات واتجاهات عرف بها أدباء المعتزلة، وبرعوا فيها، وأثروا من خلالها الأدب العربي.

- **إسهامات الجاحظ فى الأدب العربي:**

لا ريب فى أن الجاحظ كان له الفضل الأكبر على الأدب العربي من خلال مؤلفاته وكتاباته ومصنفاته المعروفة فى هذا الأدب، فقد كان صاحب مذهب خاص فى الكتابة عرف به، وكان يعرف - كما أسلفنا - بأنه رأس المدرسة النثرية الثانية فى العصر العباسي.

ومما لاشك فيه أن النزعة الكلامية التى كان الجاحظ يميل إليها، واطلاعه الواسع على علم الكلام، والفلسفة وأصول الجدال والاحتجاج كل ذلك كان له أثر كبير على الأسلوب الكتابى الذى تميز به، فجاء هذا الأسلوب ميالاً إلى التوسع فى بسط المواضيع، واستقصاء الدقائق والجزئيات، والانتقال من موضوع إلى آخر مع الاسترسال والاستطراد، فلقد مزج الجاحظ فى كتاباته أروع مزج بين علم الكلام والفلسفة والكتابة الأدبية، فأخرج هذا العلم من الجفاف، وهكذا فإن الصفة الكلامية صادفت فى الجاحظ روحًا فنية قوية حتى أصبح علمًا من هذا الباب، فجاء أدبه على طراز فريد من نوعه، وطوع الأدب لأساليب وطرق المحاججة، والمجادلة كما نلاحظ ذلك بشكل جلى فى كتابه الشهير (البخلاء) والذى سنتحدث عنه فيما يأتى.

وهكذا يمكننا القول أن أدب الجاحظ هو أدب عقلى يعتمد إلى حد ما على الترتيب العقلى، والتقسيم المنطقى[١].

على أن التأثر الواضح للجاحظ بمذهب الاعتزال وما يحفل به من محاججات عقلية، ومباحث كلامية ومنطقية لا يعنى أبدًا أن أسلوبه جاء جافًا، معقدًا، بعيدًا عن روح الفن والأدب، بل إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا، وهنا تكمن عبقرية الجاحظ، وقدرته اللا محدودة على الخلق والإبداع والابتكار، فعلى الرغم من عقليته الميالة إلى البحث، والاستقصاء، وربط الأسباب والمقدمات بالنتائج، نجد أن أسلوبه جاء سمحًا طيعًا شيقًا يستهوى القارئ، ويجتذبه، نتيجة لابتعاده عن التكلف والتعسف، ولا ريب فى أنه - أى الجاحظ - يعتبر بحق أول من مكن لهذا التطور وهيأ له، وأقوى من ظفر للنثر العربى بهذه المنزلة، فلقد استطاع أن يلبس المعارف والنظريات والمناقشات والمجادلات ثوبًا فنيًا جميلاً،

---

(١) البخلاء ص ٢٥.

وأن يبرزها فى صورة أدبية معجبة تظهر فى سياقه السهل، وألفاظه الجميلة المناسبة إلى غير ذلك من مظاهر الروح الأدبية حتى ليكاد القارئ ينسى أنه يقرأ مواضيع علمية مأخوذًا بتلك الروعة الفنية الظاهرة.

• إسهامات الجاحظ فى النقد الأدبى:

وكان للجاحظ مذهب متميز ومتجدد فى النقد الأدبى كما يظهر لنا ذلك واضحًا فى كتابه الشهير (البيان والتبيين) الذى خصصه لنقد الشعر، وعرض آرائه النقدية، فقد كان من دعاة التجديد فى نقد الشعر بمعنى أنه لم يكن يتبع المذهب الكلاسيكى المحافظ فى نقد الشعر فيفضل المتقدمين على المتأخرين لمجرد كونهم من السابقين، بل كان يقيم الأثر الأدبى على أساس جماليته الفنية والأدبية لا على أساس شهرة الشاعر[(1)].

يقول الجاحظ فى مقدمة (كتاب البيان والتبيين) مشيرًا إلى أسسه ومقاييسه فى النقد، واختيار الشعر والنثر الأفضل:

(وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع[(2)] والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون السغب[(3)] ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث[(4)]. . والعامة ربما استخفت[(5)] أقل اللغتين وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر)[(6)].

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الجاحظ من مؤسسى منهج (الوضع الفنى) فى الأدب العربى ومن أوائل من شقه لمن بعده من الأدباء وخصوصًا فى القرن الرابع الهجرى[(7)]، ونقصد بـ (الوضع الفنى) تلك النزعة التى دفعت الرواة، ومؤرخى الأدب إلى إضافة اللمسات الفنية والجمالية على الروايات والحكايات التى يروونها من خلال التصرف فيها،

---

(1) راجع كتاب البخلاء - المقدمة، وكتاب البيان والتبيين جـ1.

(2) المدقع: الشديد. (3) السغب: الجوع.

(4) أى لا يفرقون بين موضع استعمال المطر وبين موضع استعمال الغيث.

(5) استخفت: وجدتها خفيفة سهلة التلفظ.

(6) البيان والتبيين جـ1. (7) البخلاء ص 48.

وعدم روايتها كما هى لكى تخرج من طابعها الجاف الممل، وتستهوى القارئ عبر إضافة عنصر الإثارة إليها، وهو فن يشبه إلى حد كبير الفن الروائى والقصصى فى الوقت الحاضر.

ويعتبر كتاب البخلاء من أكثر مؤلفات الجاحظ اشتمالاً على هذا الاتجاه فى الكتابة والرواية، كما سنرى ذلك فى الموضوع الذي خصصناه لاستعراض هذا الكتاب.

وكان للجاحظ الفضل الكبير فى ظهور نوع من الأدب يمكننا أن نسميه بالأدب الاجتماعى الساخر، حيث استطاع وببراعة أن يوظف معلوماته الاجتماعية والمفصلة حول أبناء عصره (وخصوصًا فى البصرة) فى تقديم أدب من نوع جديد يعتمد على العرض والوصف الدقيق لنفسيات وطبائع وأخلاق شخصياته ممزوجًا بالسخرية، والمدح والذم فى آن واحد[1].

أبو على الجبائى[2] ٢٣٥ - ٣٠٣هـ[3]

محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائى، أبو على: من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام فى عصره، وإليه نسبة الطائفة الجبائية من المعتزلة، له مقالات وآراء انفرد بها فى المذهب، نسبته إلى جُبى (من قرى البصرة)، اشتهر فى البصرة، ودفن بجُبَّى، له تفسير حافل مطول، رد عليه الأشعرى[4].

وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعرى شيخ السنة علم الكلام، وله معه مناظرة روتها العلماء وعلى أثرها تخلى الأشعرى عن آراء المعتزلة الكلامية ليؤسس المذهب الشهير الذى نسب إليه وهو (المذهب الأشعرى)، فيقال إن أبا الحسن سأل أستاذه أبا على الجبائى عن

(١) راجع البخلاء ورسالة التربيع والتدوير فى كتاب رسائل الجاحظ - الرسائل الأدبية.

(٢) ومن رؤساء المعتزلة أيضًا ابنه أبو هاشم عبدالسلام (ت٣٢١هـ) ولد بالبصرة وعاش فى بغداد وتتلمذ له الكثيرون أخصهم الصاحب بن عباد، عرف خاصة بنظرية الأحوال التى يرد إليها صفات البارئ جميعًا، عُرف تلامذته بتفلسفهم ويسمون (البهشمية). وقد فقدت كتبه الكثيرة فى علم الكلام والجدل [الموسوعة العربية الميسرة].

(٣) انظر: فى ترجمته المقريزى، وفيات الأعيان، البداية والنهاية، اللباب، مفتاح السعادة دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) الأعلام للزركلى جـ٧.

ثلاثة أخوة؛ أحدهم كان مؤمنًا برًا تقيًا، والثانى كان كافرًا فاسقًا شقيًا، والثالث كان صغيرًا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائى: أما الزاهد ففى الدرجات، وأما الكافر ففى الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، فقال الأشعرى: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائى: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعرى: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس منى، فإنك ما أبقيتنى ولا أقدرتنى على الطاعة، فقال الجبائى: يقول البارى جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقًا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعرى: فلو قال الأخ الأكبر: يا إله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالى فلم راعيت مصلحته دونى، فانقطع الجبائى[1].

وذكر الشيخ فخر الدين الرازي في تفسير القرآن العظيم في معرض تفسيره لسورة الأنعام: أن الأشعرى لما فارق مجلس الأستاذ الجبائى وترك مذهبه، وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما، فاتفق يومًا أن الجبائى عقد مجلس التذكير، وحضر عنده عالم من الناس، فذهب الأشعرى إلى ذلك المجلس، وجلس فى بعض النواحى مختفيًا عن الجبائى، وقال لبعض من حضره من النساء: أنا أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ، ثم علمها سؤالاً بعد سؤال، فلما انقطع الجبائى فى الأخير رأى الأشعرى، فعلم أن المسألة منه لا من العجوز[1].

كانت ولادة الجبائى سنة خمس وثلاثين ومائتين، ووفاته سنة ثلاث وثلاثمائة[2].

الرمانى ٢٩٦ - ٣٨٤هـ

هو على بن عيسى بن على بن عبدالله أبو الحسن الرمانى[3] المتوفى سنة (٣٨٦) للهجرة، أحد أعلام المعتزلة فى عصره.

له مصنفات وتآليف كثيرة فى التفسير، واللغة، والنحو، وعلم الكلام.

---

(١) وفيات جـ٤

(٢) اعتمدت فى ترجمة الجبائى على الأعلام للزركلى جـ٧، الوفيات جـ٤، وطبقات المعتزلة، والأنساب، وروضات الجنات، والشذرات.

(٣) انظر: فى ترجمته: تاريخ بغداد ١١/١٦، والأنساب للسمعانى، ومعجم الأدباء لياقوت.

وذكر الخطيب البغدادى أنه كان نحويًا معروفًا، وكان من أهل المعرفة، مفننًا فى علوم كثيرة من الفقه والقرآن والنحو واللغة والكلام على مذهب المعتزلة.

كان مولده سنة ست وتسعين ومائتين، وتوفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة(١).

وقال عنه صاحب الوفيات: أحد الأئمة المشاهير، جمع بين الكلام والعربية، وله تفسير القرآن الكريم، أخذ الأدب عن أبى بكر بن دريد، وأبى بكر بن السراج، وروى عنه أبو القاسم التنوخى، وأبو محمد الجوهرى وغيرهما(٢).

الصاحب بن عبّاد ٣٢٦ - ٣٨٥هـ(٣)

الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالرى، وكان واحد زمانه علمًا وفضلاً وتدبيراً وجودة رأى وكرمًا، عالمًا بأنواع العلوم، عارفًا بالكتابة وموادها، ورسائله مشهورة مدونة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره حتى إنه كان يحتاج فى نقلها إلى أربعمائة جمل على ما قيل... وانتقل الصاحب بعد ذلك إلى أصبهان... وكان قد أحسن إلى القاضى عبدالجبار بن أحمد المعتزلى وقدّمه وولاه قضاء الرى وأعمالها(٤).

أخذ الأدب عن أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى صاحب كتاب (المجمل) فى اللغة، وأخذ عن أبى الفضل بن العميد وغيرهما(٥).

وقال أبو المنصور الثعالبى فى كتابه (اليتيمة) فى حقه: (ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب..)(٥).

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة، وبقى علمًا عليه(٦).

واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، ومدحوه بغرائر المدح(٦)، وصنف فى اللغة كتابًا سماه (المحيط) وهو فى سبعة مجلدات رتبه على حروف المعجم، كثر فيه الألفاظ، وقلل الشواهد، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر، وكتاب (الكافى) فى

---

(١) تاريخ بغداد جـ٢.   (٢) الوفيات جـ٣.   (٣) ترجمته فى معجم الأدباء حـ٦.

(٤) الكامل لابن الأثير جـ٧ (وفى الحاشية أخبار كثيرة عنه).

(٥) اليتيمة.   (٦) وفيات الأعيان

الرسائل، وكتاب (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) وكتاب (أسماء الله تعالى وصفاته)[١] .

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوى أن نوح بن منصور أحد ملوك بنى ساسان كتب إليه ورقة في السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته، وتدبير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه الخاصة إلى أربعمائة جمل، فما الظن بما يليق بها من التجمل[٢] .

له رسائل بديعة، ونظم جيد منه قوله في الغزل:

وشادن[٣] جماله		تقصر عنه صفتي
أهوى[٤] لتقبيل يدى		فقلت قبل شفتي

وله في رقة الخمر:

رق الزجاج ورقت الخمر		وتشابها فتشاكل الأمر[٥]
فكأنما خمر ولا قدح		وكأنما قدحٌ ولا خمر

وله يرثى كثير بن أحمد الوزير وكنيته أبو على:

يقولون لى أودى كثير بن أحمد		وذلك مرزوءٌ علىَّ جليل[٦]
فقلت دعونى والعلا نبكه معًا		فمثلُ كثير فى الرجال قليل

كان مولده سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة باصطخر، وقيل: بالطالقان، وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى، ثم نقل إلى أصبهان[١] .

رثاه أبو القاسم بن أبى العلاء الشاعر الأصبهانى قائلاً:

ثوى الجود والكافى معًا فى حفيرة		ليأنس كل منهما بأخيه
هما اصطحبا حيين ثم تعانقا		ضجيعين فى لحد بباب ذريه[٧]
إذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم		أقاما إلى يوم القيّامة فيه[٨]

---

(١) المصدر السابق، وله كتب ومؤلفات أخرى ذكرها صاحب الوفيات ولم نذكرها لأنها لا تتصل بالأدب.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ٧ .		(٣) الشادن : ولد الظبى .

(٤) أهوى : هوت يدى له : امتدت وارتفعت، يقال : أهوى إليه بيده ليأخذه أى مد يده إليه .

(٥) تشاكل الأمر : اختلط والتبس ولم يعد بالمقدور تحديد وجه الصواب فيه .

(٦) أودى : مات وهلك مرزوء من الرزء وهو المصيبة .

(٧) يريد من (باب ذريه) المحلة التى دفن فيها الصاحب بأصفهان وتعرف بهذا الاسم .

(٨) اعتمادنا فى ترجمة الصاحب على الكامل لابن الأثير جـ٧ وفيات الأعيان جـ١ ومعجم الأدباء لياقوت جـ٦ ، وكتاب أخلاق الوزيرين / المقدمة .

أبو حيّان التوحيدى

...... - بعد سنة ٤٠٠هـ

هو على بن محمد بن العباس . كنيته أبو حيّان ، وغلب عليه لقب التوحيدى(١) ؛ لأن أباه كان يبيع نوعًا من التمر يطلق عليه اسم (التوحيد) ، أو لأنه كان من المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد كما يرى ذلك ابن حجر العسقلانى(٢) .

تاريخ ولادته غير معروف بالضبط ، وقد تكون بين ٣١٠ و ٣٢٠هـ(٣) ، وهكذا الحال بالنسبة إلى تاريخ وفاته ، والرأى الأقرب إلى الصواب فى هذا المجال أن وفاته كانت بعد سنة ٤٠٠هـ ، كما ذهب إلى ذلك (كارل بروكلمان) فى تاريخه(٤) ، والقزويني في مقدمة كتاب الهوامل والشوامل ، وأبو العباس أحمد زركوب(٥) اللذين ذهبا إلى أن سنة وفاته كانت (٤١٤هـ) .

أما أصله فقد ذكروا أنه شيرازى ، أو نيسابورى ، وقيل هو عربى من واسط(٦) .

تتلمذ أبو حيّان فى بغداد على السيرافى ، ثم على أبى سليمان بن طاهر المنطقى السجستانى(٧) .

يعد أبو حيان التوحيدى من أبرز الفلاسفة والمتكلمين والأدباء فى القرن الرابع الهجرى ، قال عنه ياقوت : (شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلّم المحققين ، وإمام البلغاء . . فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية)(٨) .

وقال عنه ابن النجار فى الذيل : (كان أبو حيان فاضلاً لغويًا نحويًا شاعرًا له مصنفات حسنة . . .)(٩) .

ويقول عنه آدم متز فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : (ربما كان أعظم كتاب النثر العربى على الإطلاق)(١٠) .

---

(١) معجم الأدباء جـ١٥ . (٢) انظر : لسان الميزان جـ٦ . (٣) المقابسات ص ٤ .
(٤) بروكلمان جـ٤ . (٥) شيرازنامه - ١٠٨
(٦) انظر : معجم الأدباء جـ١٥ ، ومقدمة المقابسات ص٨ ، وأمراء البيان جـ٢ .
(٧) بروكلمان جـ٤ (٨) معجم البلدان جـ ١٥ . (٩) لسان الميزان جـ ٦ . (١٠) جـ١ ص ٣٩٣ .

كان أبو حيّان متميزاً بثقافته الموسوعية الهائلة، فقد كان غزير الاطلاع على أغلب فروع المعرفة التي كانت سائدة في عصره كالفلسفة التي درسها على أبي زكريا يحيي بن عدى المنطقي، وأبي سليمان المنطقي الذى كان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان وعلى يده درس أبو حيان كتاب النفس لأرسطو سنة ٣٧١هـ[١].

وكان على صلة بنقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية فى القرن الرابع، كما كان وثيق الصلة بمؤلفات المناطقة والفلاسفة، فكثيراً ما نقل عنهم، وذكر أسماءهم فى المقابسات والإمتاع والمؤانسة.

وكان أبو حيان من المتبحرين أيضًا فى اللغة والنحو كما تدلّنا على ذلك كتبه[٢]، وقد كان أبو سعيد السيرافى من ضمن العلماء الذين درس عليهم أبو حيان وتأثر بهم إلى حد كبير[٣]، كما درس على علىّ بن عيسى الرمانى ويونس، وقرأ ما كتبه نحاة عصره، وعرف آراءهم حتى أن السيوطى عده من النحاة وترجم له[٤].

والآراء والنقاشات النحوية التى نراها مبثوثة فى كتبه تحكى لنا اطلاعه الواسع على علم النحو والمسائل المتصلة به كتخطئة الفقهاء فى قولهم (عنين بين العنة)[٥] ذاهبًا إلى أن الصواب أن نقول (بين التّعنين)[٦].

وقد حدثنا أبو حيان نفسه أنه قال: قال الصاحب بن عباد يومًا: فعل وأفعال قليل، وزعم النحويون أنه ما جاء إلا: زند وأزناد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفًا[٧] كلها فعل وأفعال، فقال: هات يا مدعى[٨]، فسردت الحروف، ودللت على مواضعها من الكتب، ثم قلت: ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم[٩] إلا

---

(١) المقابسات ص ٢٤٦. (٢) انظر: البصائر والذخائر جـ٣.
(٣) الإمتاع والمؤانسة جـ١٢، والمصدر السابق جـ٨ (٤) بغية الوعاة فى طبقات النحاة جـ٢.
(٥) عنّ الرجل عُنة: عجز عن الجماع لمرض يصيبه فهو معنون، وعنين، ويقال: امرأة عنينة: لا تشتهى الرجال.
(٦) البصائر والذخائر ص ٢٣. (٧) الحرف هنا: الكلمة
(٨) كان بين الصاحب وأبى حيان جفوة وتباغض، وكان الصاحب يؤذى أبا حيان ويحاول النيل منه دائمًا ولذلك خاطبه بهذه اللهجة والسبب فى هذا الجفاء أن أبا حيان كان معتداً بنفسه لا يرتضى لها أن تخضع وتتملق الوزراء والحكام.
(٩) يلزم الحكم: أي يعممه ويوجبه ويجعله قاعدة.

بعد التبحر والسماع الواسع، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة، والقياس مطردًا، وهذا كقولهم (فعيل) على عشرة أوجه، وقد وجدت أنا ما يزيد على أكثر من عشرين وجهًا، وما انتهيت في التتبع إلى أقصاه. . .)[١] .

● **الفلسفة:**

كان أبو حيان يبدى ميلاً خاصًا للفلسفة، ويفضلها على علم الكلام، ولذلك حفلت مؤلفاته بالمباحث الفلسفية، ونقل فيها الكثير من الآراء والتيارات الفلسفية التى كانت سائدة فى عصره بحيث إننا نستطيع أن نقول إنه قد أسهم من خلال مؤلفاته فى تبسيط الفلسفة، وتقريبها إلى أفهام عامة الناس بحيث إنه خلق فى عصره الرغبة بين الناس فى الإقبال على الفلسفة بفضل الأسلوب الأدبي الشيق والممتع الذي شرح به الآراء الفلسفية. إذ (لما عبر أبو حيان عن قضايا الفلسفة بأسلوب بليغ، وصاغ مسائلها صياغة أدبية مشرقة تسربت إلى جمهور المثقفين والأدباء، وقربت من متناول أفهامهم. .)[٢] .

وقد كان كتاب (المقابسات) نموذجًا رائعًا للأسلوب الأدبى والفنى الشيق الذى بسط من خلاله أبو حيان القضايا والمسائل الفلسفية المعقدة، وفيما يلى نورد نموذجًا من كتاب المقابسات لكى يتسنى للقارئ التعرف عن كثب على الأسلوب الأدبى الذى التزم به أبو حيان فى عرض المسائل الفلسفية:

(العالم من حيث هو كائن فاسد، ومن حيث هو فاسد كائن[٣] ، فلذلك نظمه بدد، وبدده نظم، ومتصله مفصول، ومفصوله متصل، وغفله[٤] مرسوم، ومرسومه غفل، ويقظته رقاد، ورقاده يقظة، وغناه فقر، وفقره غنى، وحياته موت، وموته حياة، ها هنا مثل ينزع[٥] إلى الحس ضرورة، ويعترف به العقل اضطرارًا، انظر إلى السماء نظرًا شافيًا، وتأملها بليغًا وجل فى آفاقها ببحثك ونظرك مليًا، واستقرئ[٦] صورها استقراء تامًا، فإنك تجد نجومها منتثرة متساقطة كأن سلكها قد وَهَى ونظمها قد انخرط[٧] ، وعلى هذا

(١) معجم الأدباء ج١٥ .　　(٢) المقابسات – ص ١٧ .

(٣) يريد أن العالم فى حالة نشوء وزوال مستمرة فى ذات الوقت الذى تنشأ فيه ظاهرة ما نراها تتجه نحو الزوال والفساد بمعنى أن لها عمرًا محددًا، وأجلاً معدودًا لا تتعداه.

(٤) الغفل: المجهول وهو عكس المرسوم أى المعلم بعلامة.

(٥) ينزع: يذهب. يميل: يتجه.

(٦) استقراء الأمور: تتبعها لمعرفة أحوالها.

(٧) انخرط: تبعثر.

إدراك الحس، وسابق العيان، وشهادة النظر، وظاهر الخبر والأثر، ثم إنك لا تستثبت بعد إمعان النظر، وإنعام[1] الفحص، ومواصلة البحث أن تجدها متسقة اتساقًا، ومتفقة اتفاقًا، وموزونة وزنًا، ومعدلة تعديلاً، ومنظومة نظمًا، ومعبأة تعبئة[2]، ومزينة بكل زينة، ومحلاة بكل حلية، حتى يقضى اختيارًا واضطرارًا وانتهارًا واقتدارًا أنها زالت عن حالتها المعروفة، أو حالت عن صورتها المألوفة بأقل مثقال ذرة أو هباءة تربة[3] . .)[4] .

وهكذا يعد أبو حيان التوحيدى الشخصية الأكثر بروزًا فى العلم والأدب والمعرفة من شخصيات المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى حتى عده البعض جاحظ هذا القرن، نظرًا إلى تأثره الكبير بشخصية الجاحظ بحيث دفعه هذا التأثر إلى أن يسلك مسلك الجاحظ فى الأسلوب، وغزارة التأليف، وتنوع الموضوعات ودقة الوصف، وجمعه قدرًا هائلاً من المعلومات حول عصره وحول فروع المعرفة المختلفة السائدة فى عصره فى مؤلفاته، كما أشار إلى ذلك ياقوت فى قوله:

(وكان - أى أبو حيان التوحيدى - متفننًا فى جميع العلوم من النحو، واللغة، والشعر، والأدب، والفقه، والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظيًا يسلك فى تصانيفه مسلكه، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه، فهو شيخ فى الصوفية، وفيلسوف الأدباء، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء. . .)[5] .

- **خصائص أبى حيان الأدبية وإسهاماته فى الأدب العربى:**

يكتسب أبو حيان أهميته ومنزلته فى الأدب العربى وخصوصًا فى القرن الرابع الهجرى من كونه قد تميز عن كتّاب هذا العصر بعدم الاحتفاء بالمحسنات، والتزويقات، والبهارج اللفظية على حساب المعنى خلافًا للنزعة الغالبة على كتّاب هذا العصر مثل ابن العميد، وبديع الزمان، والخوارزمى، وابن عبّاد، هذا بالإضافة إلى أن أبا حيان قد تميز عنهم بالموضوعات التى تطرق إليها فى نثره، فبينما كانت الغالبية العظمى من كتّاب عصره صابة اهتمامها على موضوعات مثل الرسائل الديوانية، والإخوانية، والمقامات، والعهود، ركز

(١) إمعان النظر وإنعامه: التعمق والدقة فيه.

(٢) التعبئة: التهيئة وجعل المتاع بعضه فوق بعض.

(٣) الهباء: التراب الذى تطيره الريح ويلزق بالأشياء أو ينبث فى الهواء فلا يبدو إلا فى ضوء الشمس، والهباءة: القطعة من الهباء.

(٤) ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٥) معجم الأدباء جـ١٥ .

هو اهتمامه على موضوعات جادة كالفلسفة، ورواية الأخبار، وتسجيل أحداث عصره بدقة متناهية، كما أشار إلى ذلك المستشرق (آدم متز) فى كتاب (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) مشيراً إلى تميز أبى حيان فى الأسلوب:

(... وأول ما نلاحظه أنه - أى أبو حيان - كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه، غير أننا لا نكاد نلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلف الذى نجده عند غيره من الأدباء، ولم يكتب فى النثر العربى بعد أبى حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان، ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين فى البديع.

ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره، وكان يعانى وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم)[1].

وامتاز أبو حيان فى كتاباته بالإضافة إلى ذلك بأن كتاباته هذه تمثل لنا شخصيته خير تمثيل، فقلمه لم يتطرق إلا إلى الموضوعات التى آمن واقتنع بها، وامتزجت مع عاطفته وروحه، فهو فى كتاباته لا يستمد من عقله فحسب، وإنما من قلبه ومشاعره أيضاً، وهى سمة نلحظها فى أدب المعتزلة عموماً، وفى أدب أبى حيان خصوصاً، وهى ظاهرة فريدة من نوعها فى نثر القرن الرابع الهجرى، إذ نلاحظ أن غالبية كتّاب هذا القرن كانوا يماشون ويسايرون الأوضاع السائدة فى هذا القرن على صعيد الأساليب والمضامين، فى حين نجد أبا حيان ينطلق فى نثره بوحى من قناعاته ومعتقداته، فنجد أن هذه القناعات هى التى توجه كتاباته، وتشكلها وتصوغها.

ولعل السبب فى ذلك يعود إلى شخصية أبى حيان نفسها، فلقد عرف عنه أنه كان أبى النفس، معتداً بها، صادقاً فى التعامل مع الآخرين منطلقاً فى هذا التعامل من وحى أفكاره ومعتقداته، ممقتاً للمحاباة والمداهنة حتى مع ذوى المناصب السياسية والحكومية.

ولقد أورثته هذا الصفات الكثير من المتاعب والمشاكل مع الحكام والأمراء، كأبى الفتح ابن العميد، والصاحب بن عبّاد، وابن سعدان[2]، ومن غيره من العلماء والكتاب، بل ومع الناس الذين كان يعاصرهم، فنشأ ساخطاً متبرّماً من حياته ومن الناس، وعانى شظف الحياة، ونكد الفقر، ووصلت به الحال من الضجر بالحياة، والتبرم من زمانه إلى درجة أنه أقدم على إحراق كتبه ومؤلفاته النفيسة معللاً ذلك بـ (إن العلم يراد للعمل، كما

---

(١) ص ٣٩٩ - ٤١٦.

(٢) راجع ذلك فى معجم الأدباء جـ٦ والإمتاع والمؤانسة جـ١.

أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلا[1] على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلا)[2].

يقول في ذلك: (فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرافق ومشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي... فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة[3]، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة[4]، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى...)[5].

وقد عبر أبو حيان عن مذهبه في الكتابة والتأليف في قوله:

(إن البليغ ينبغي أن يبرأ من التكلف، ويتباعد عنه لأنه مفضحة وصاحبه مذموم ومن استشار الرأي الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وأنه متى فاته اللفظ المر لم يظفر بالمعنى المرّ...)[6].

● **تسجيله لثقافة عصره:**

وتعتبر هذه الميزة في كتاباته ومؤلفاته واحدة من الإسهامات والخدمات الكبرى التي أسداها أبو حيان إلى الأدب والفكر العربي وذلك بطبعه المفطور على تسجيل الحوادث بدقة متناهية، إلى حد أننا نستطيع أن نقول إن كتبه تعد إحدى الوثائق الهامة التي من الممكن للباحث أن يرجع إليها في التعرف على الأوضاع الثقافية والفكرية والأدبية التي كانت سائدة في القرن الرابع الهجري: (فقد عاش أبو حيان فترة طويلة من حياته في بغداد وعبر عن ثقافتها الغنية وفكرها البديع وحضارتها الخصبة أروع تعبير؛ دقة وصف، وصفاء لغة، وجمال بيان.. وكانت ثقافته موسوعية شاملة، ومن هنا تأتي أهمية كتبه لتاريخ الفلسفة والأدب، فقد جمع في كتابه الضخم (البصائر والذخائر) ورسالته في الصداقة والصديق مختارات رائعة في الفلسفة والفقه والنحو واللغة والشعر التقطها من بطون الكتب ومن أفواه المتحدثين، ولولاه لنسيت في غمار مانسي من علم العلماء وفنون الأدباء وأحاديث الناس في عصره...)[7].

---

(١) الكل: العبء والثقل، وعاد بمعنى أصبح. (٢) معجم الأدباء جـ١٥.

(٣) النُّحلة والنِّحلة جمع نحل ونحل: الدعوى، المذهب والديانة.

(٤) الوحشة: الخلوة الخوف وانقباض القلب من الخلوة. (٥) الصداقة والصديق – ص ٦.

(٦) رسالة العموم ملحقة بالصداقة والصديق – ص ٢٠٦. يبرأ: يتخلص. مفضحة: ما يوجب الفضيحة، مغالبة اللفظ: التعسف والتكلف في اختياره.

(٧) المقابسات ص ٥ –١٠.

وقد أورد (محمد توفيق حسين) فى مقدمته لكتاب المقابسات قائمة طويلة بأسماء العلماء والمؤرخين والأدباء من القدماء والمحدثين الذين كتبوا عنه واقتبسوا من كتبه منهم ياقوت الحموى، والسبكى، والذهبى، وابن حجر العسقلانى، والسيوطى، وابن نباته المصرى، وابن أبى الحديد، ومن المحدثين بروكلمان، ومتز، ومرجليوث، ومايرهوف، وسيترن، ودى بور، وخير الدين الزركلى، وأحمد أمين، وعبدالرحمن بدوى، والدكتور إحسان عباس، ومحمد كرد على. . (١).

وكل هذا العدد الكبير من الشخصيات التى نقلت أو كتبت على أبى حيان إن دل على شىء فإنما يدل على عظم التأثير الذى تركه أبو حيان على حركة الأدب والفكر والتاريخ من بعده، من خلال الكم الهائل من المعلومات التى خلفها فى مختلف المجالات.

• مقدرته الفذة على تحليل الشخصيات والنفسيات:

تشهد لنا مؤلفات (أبى حيان) وخصوصاً كتاب (الإمتاع والمؤانسة) بقدرة فائقة على وصف الشخصيات المختلفة، وتحليل نفسياتها بدقة متناهية وبيان حالاتها المختلفة، وتقييمها من الناحية العلمية، وبيان توجهاتها، ونقاط قوتها وضعفها.

وهو فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) يقدم لنا نقداً، وتقييمات كثيرة للشخصيات والعلماء التى كان يحتك بها، أو يتلقى منها العلم، ويرويه عنها.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الظاهرة فى كتابات أبى حيان تعد نوعًا من النقد والتقييم للشخصيات، ويمكننا أن ندرجها تحت عنوان دراسة الشخصيات أو تقديم تراجم وسيرة ذاتية عنها، وهو لون من الأدب ظهر فيما بعد بشكل مستقل، وربما كان أبو حيان من أوائل الذين وضعوا أسسه، ومهدوا له بعد الجاحظ.

وفيما يلى نورد نموذجًا من كتاباته فى مجال تحليل وتقييم ووصف الشخصيات من كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فقد قال فى وصف طائفة من العلماء:

(أبو سعيد (السيرافى) أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل فى كل باب، وأخرج من كل طريق، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق، وأروى فى الحديث، وأقضى فى الأحكام وأفقه فى الفتوى. . . وأما على بن عيسى (الرمانى) فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، ولا عيب به إلا أنه لم يسلك طريق

---

(١) المقابسات ص ٥ - ٧.

وضع المنطق، بل أفرد صناعة وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتابًا نفيسًا، هذا مع الدين الثخين[١]، والعقل الرزين، وأما ابن المراغي (أبو الفتح محمد بن جعفر الهمذاني) فلا يلحق بهؤلاء مع براعة اللفظ وسعة الحفظ وعزة النفس وبلل الريق، وغزارة النفث، وكثرة الرواية، ومن نظر في كتابه (المهجة) عرف ما أقول واعتقد فوق ما أصف . . .)[٢] .

وقال في وصف أبي سليمان المنطقي أستاذه في الفلسفة:

(أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرًا، وأقعرهم غرضًا، وأصفاهم فكرًا وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تنطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز . . .)[٣] .

وأبو حيان فيما عدا ذلك من خصائص ومواصفات فنية ومضمونية جاحظي الأدب والنثر، فهو كالجاحظ يهجو في نثره متهكمًا ساخرًا كقوله في وصف الصاحب بن عبّاد:

(تراه عند الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم، ويطير فرحًا ويتقسم . . . وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل، ويلوى شدقه، ويبتلع ريقه، ويرد كالآخذ، ويأخذ كالممتنع، ويغضب في عرض الرضا، ويرضى في لبوس الغضب ويتهالك ويتقابل ويتمايل . . .)[٤] .

وهو أيضًا يميل إلى الإطناب والسرد والتفصيل في بسط موضوعاته، كما هو حال الجاحظ، بل كما هو حال أدباء المعتزلة بصورة عامة والذين لعبوا دورًا كبيرًا في ترسيخ هذا الاتجاه في النثر العربي نظرًا إلى عقلياتهم الموسوعية الميالة إلى الجدل والتشعب في الكلام.

ومن مظاهر الإطناب في أسلوب أبي حيان الإكثار من استعمال الكلمات المترادفة، والمعاني المتقاربة، وتكرار المعنى بعبارات متغايرة لفظًا، كقوله في الدعاء في مقدمة كتاب (المقابسات):

---

(١) الثخين: الغليظ والصلب يريد أنه كان قويًا في دينه.

(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ١ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة جـ١ . أقعرهم غرضًا: أبعدهم هدفًا ومقصدًا. أوقفهم على الغرر: أكثرهم اكتشافاً لخاصة العلم وخالصته. تنطع في الكلام: تفصح فيه وتعمق ورمى بلسانه إلى نطع الفم. اللكنة: العجمة في اللسان، العويص الصعب المعضل.

(٤) الإمتاع والمؤانسة جـ١ . الهذر: الكلام المختلط الذى ينبغى أن لا يقال. يتقسم: يتفرق، يقصد أنه لا يمتلك زمام نفسه عند الفرح. يلوى شدقه: يظهر الفصاحة أو يتكبر على الناس.اللبوس: ما يلبس.

(اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ومظنته ومعروف به، ونلتمس منك ما أنت واجده وقادر عليه ومأمول فيه، فهب لى بجودك ومجدك روح القلب بنور العقل، وسكون البال ببصيرة النفس، ورخاء العيش بدرور الرزق، وصلاح الحال بفائض الخير، وصواب القصد بثبات العقد، وبلوغ الغاية بصحة العزم، ونيل المراد بدوام الصبر، وبعد الصيت بحسن السيرة، وتتابع الثناء بمرضى الطريقة، وفاشى النعمة براتب العز، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز، واكفنا من اللسان فلتته ومن الهوى فتنته، ومن الشر خطرته، ومن الرأى غلطته، ومن الظن خبطته ومن الطبع سورته.. وجنبنا معاندة الحق، ومجانبة الصدق..)(١).

ومن الناحية الشكلية واللفظية امتاز نثر (أبى حيان) بالوقع الموسيقى للجمل التى يستخدمها عبر استخدام عبارات قصيرة متناسبة الطول أكثر من صنعة الازدواج فيها كقوله فى البصائر والذخائر:

(اللهم إنى أسالك جداً مقروناً، وعلماً بريئاً من الجهل، وعملاً عرياً من الختل، وقولا موشحًا بالصواب، وحالاً دائرة مع الحق، وفطنة عقل مبصرة فى سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلى روح بال، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة...)(٢).

ويميل أبو حيان إلى الإكثار من استعمال الكلمات المتضادة فى نثره أو ما يسمى بالمقابلة فى علم البديع ليزيد من وضوح الفكرة التى يطرحها كقوله فى الإشارات الإلهية: (أما ترى ضيعتى فى تحفظى؟ أما ترى رقدتى فى تيقظى؟ أما ترى غصتى فى إساغتى؟ أما ترى ضلالى فى اهتدائى؟ أما ترى رشدى فى غيى؟ أما ترى عيى فى بلاغتى؟ أما ترى ضعفى فى قوتى؟ أما ترى عجزى فى قدرتى؟ أما ترى غيبتى فى حضورى؟)(٣).

---

(١) المقابسات ص ٥٢.
(٢) البصائر والذخائر.
(٣) المصدر السابق.

القاضى عبد الجبار ...... - بعد سنة ٤٠٠هـ[١]

هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادى، قاضى قضاة الدولة البويهية فى إيران، ويعتبر أكبر أعلام المعتزلة فى عصره الذى يمتد حتى سنة (٤١٥هـ)هـ وهى سنة وفاته.

له مصنفات كثيرة أهمها كتاب (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) وقد خصص الجزء السادس عشر منه لبحث إعجاز القرآن من الناحية البلاغية.

قال عنه الخطيب البغدادى: كان ينتحل مذهب الشافعى فى الفروع، ومذاهب المعتزلة فى الأصول، وله فى ذلك مصنفات، وولى قضاء القضاة بالرى وورد بغداد حاجًا وحدّث بها[٢].

وعن وفاته قال: (مات عبدالجبار بن أحمد قبل دخولى الرى فى رحلتى إلى خراسان وذلك فى سنة خمس عشرة وأربعمائة، وأحسب أن وفاته كانت فى أول السنة)[٣].

الزمخشرى ٤٦٧ - ٥٣٨هـ

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد جار الله، ولد فى (زمخشر) من إقليم (خوارزم) الفارسى فى شهر رجب سنة (٤٦٧هـ)، أى بعد القرن الرابع الهجرى، حيث كان مذهب الاعتزال ما يزال يمتلك بعض النفوذ فى إيران.

درس العلوم اللغوية والدينية، وأخذ الأدب عن أبى الحسن على بن المظفر النيسابورى، وأبى مضر محمود بن جرير الضبى الأصبهانى، وقضى شطرًا كبيرًا من حياته فى الترحال، فأقام فى بغداد مدّة، وجاور بمكة طويلا[٤]، وبها أملى تفسيره الكشاف.

---

(١) (انظر فى ترجمته: طبقات الشافعية للسبكى، تاريخ بغداد، لسان الميزان، مرآة الجنان لليافعى، الكامل لابن الأثير، المعتزلة لابن المرتضى.

(٢) تاريخ بغداد جـ١١،

(٣) المصدر السابق جـ١١.

(٤) ولهذا لقب بـ (جار الله).

توفى فى خوارزم سنة ٥٣٨هـ.

كان الزمخشرى كاتبًا، وشاعرًا ومفسرًا للقرآن الكريم، وله ديوان شعر غير مطبوع.

بالإضافة إلى (الكشاف) فإن للزمخشرى كتبًا معروفة من أهمها كتاب (المفصل) فى النحو، وقد عنى به من جاءوا بعده وشرحوه مرارًا، ومعجمه المعروف (أساس البلاغة)، و(المفصل فى اللغة)، وكتاب (أطواق الذهب) ضمنه نثرًا مسجعًا أنيقًا على غرار المقامات.

• تعريف مختصر بأهم مؤلفاته الأدبية:

١ - الكشّاف (الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل): وهو أحد أشهر وأهم التفاسير الأدبية والبلاغية للقرآن الكريم، سعى الزمخشري من خلاله إلى أن يفسر القرآن، ويقف على خباياه وأسراره عبر بيان الجوانب البلاغية منه كما يقول ذلك فى مقدمة تفسيره:

(ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح[١]، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[٢] من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز[٣] على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز[٤] أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية[٥] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوى وإن ملك اللغات بقوة لحييه[٦]، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعانى، وعلم البيان، وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنته وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله، وحرصًا على استيضاح معجزة رسول الله...)[٧].

---

(١) القرائح جمع قريحة: الطبع. وقريحة الشاعر أو الكاتب ملكة يقتدر بها على الإجادة فى نظم الشعر أو الكتابة

(٢) الألباب القوارح: يريد العقول الفطنة الذكية.

(٣) برز: تميز (٤) بز: سبق.

(٥) ابن القرية: رجل عرف بشدة ذكائه وسرعة حفظه.

(٦) اللحيان: اللحى عظم الحنك الذى عليه الأسنان، منبت اللحية.

(٧) مقدمة تفسير الكشاف.

وقد تأثر الزمخشرى إلى حد كبير بآراء عبدالقاهر الجرجانى البلاغية التى ضمنها كتابه المعروف (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) هذا بالإضافة إلى مطالعاته ودراسته العميقة والواسعة للمؤلفات البلاغية التى كتبها علماء البلاغة من قبله، وما كان يتمتع به من ذكاء، وفطنة، وقوة حدس، وذوق أدبى أعانه على أن يطبق ما توصل إليه العلماء من قبله (وخصوصًا الجرجانى) بشأن علمى البيان والبديع تطبيقًا دقيقًا ومفصلاً على آى الذكر الحكيم، علاوة على النتائج التى توصل إليها هو نفسه فيما يتعلق باكتشاف أسرار الإعجاز القرآنى اعتمادًا على معطيات علمى البيان والمعانى، بل وحتى البديع، وبذلك يكون الزمخشرى أول من فطن من بين علماء اللغة والبلاغة إلى دور ذينك العلمين فى الكشف عن أسرار الإعجاز القرآنى، وفهم معانى الآيات بشكل أفضل، كما أشار هو نفسه إلى ذلك فى النص الذى أوردناه فيما سبق من مقدمة تفسيره الكشّاف.

ومن بين إسهامات الزمخشرى الأخرى فى تطور الدراسات البلاغية، أنه كان أول من فصل بين علم المعانى، والبيان، وأول من وضع مصطلح (المعانى) على العلم الأول بعد أن كان الجرجانى يطلق عليه اسم علم النظم والأسلوب[1].

• نماذج من تفسير الكشّاف:

قوله فى تفسير الآية الأولى والثانية من سورة البقرة:

(... ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية و﴿لاريب فيه﴾ ثالثة و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق(عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرًا إلى الثالثة والرابعة، بيان ذلك أنه نبّه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريرًا لجهة التحدى وشدًا من أعضاده، ثم نَفَى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً لكماله...)[2].

٢ - أساس البلاغة:

وهو من الكتب البلاغية والأدبية الشهيرة التى خلفها الزمخشرى وقد يأتى فى الدرجة

---

(١) للتوسع راجع كتاب البلاغة لشوقى ضيف.

(٢) جـ١ - ص ١٢١ - ١٢٢.

الثانية من الأهمية بعد (الكشّاف)، ذكر فيه المجازات اللغوية والمزايا الأدبية، وتعبيرات البلغاء على ترتيب موادها، ذكره السيوطى فى بغية الوعاة، وياقوت فى معجم الأدباء، وصاحب كشف الظنون مؤكدين أنه من أركان فن الأدب بل هو أساسه.

وتكمن ميزة هذا الكتاب وخصوصيته عن المعاجم العربية الأخرى فى تفريقه بين الحقيقة والمجاز كما يذكر ذلك الزمخشرى نفسه فى مقدمة هذا الكتاب قائلاً فى معرض بيان خصائصه وما اشتمل عليه:

(. . . ومنها - أى من خصائص الكتاب- تأسيس قوانين فصل الخطاب[1]، والكلام الفصيح بإفراد[2] المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح)[3].

ولذلك فقد بقى (أساس البلاغة) واحداً من المعاجم الحية التى مازال الباحثون وعلماء اللغة يرجعون إليها نظراً إلى الطابع الجديد والمبتكر الذى تميز به عن سائر المعاجم الأخرى وخصوصًا المعاجم اللغوية البحتة التى تقدم معانى الكلمات من الناحية اللغوية الصرفة دون إلقاء الأضواء على جوانبها الأدبية والبلاغية ومواضع استعمالها، أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يعد من ضمن إسهامات الزمخشرى فى إغناء الدراسات اللغوية المتعلقة بفقه اللغة، وتطور معانى ودلالات الألفاظ حتى العصر الذى عاش فيه كما أشار إلى ذلك فى قوله:

(ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين[4]، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن، ولا تنقبض عنها الألسن؛ لجريها رسلات[5] على الأسلات[6]، ومرورها عذبات[7] على العذبات. . .)[8].

وقد أوضح الزمخشرى فى خطبة كتابه هذا اتجاهاته فى تأليفه، وأهدافه من هذا التأليف، والموضوعات التى أكد عليها والتى تصب - كما يقول - فى علم المعانى، والبيان، والتفريق بين الحقيقة والمجاز وخصوصًا المجال اللغوى، فقال فى هذا الصدد:

---

(١) فصل الخطاب: الفصل بين الحق والباطل، وهو أيضًا قول الخطيب: (أما بعد).

(٢) إفراد: فصل.

(٣) أساس البلاغة / مقدمة المؤلف.

(٤) المفلق: المبدع.

(٥) رسلات: سهلات السير.

(٦) الأسلة: رأس اللسان.

(٧) عذبات ج عذبة سائغة حلوة، والعذبات: أطراف الألسنة.

(٨) أساس البلاغة - مقدمة المؤلف.

(... منْ كانت مطامح نظره، ومطارح فكره الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء، والمغايرة على مناظم الفصحاء، والمخابرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا، وما اتتفوا عنه فلم يتقبلوا، وما استركوا واستنزلوا، وما استفصحوا واستجزلوا، والنظر فيما كان الناظر فيه أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف، حتى يكون صدر يقينه أثلج، وسهم احتجاجه أفلج، وحتى يقال: هو من علم البيان حظى، وفهمه فيه جاحظى، وإلى هذا الصوب ذهب عبدالله الفقير إليه محمد ابن عمر الزمخشرى عفا الله تعالى عنه فى تصنيف (كتاب أساس البلاغة)...).

ثم يتحدث الزمخشرى بعد ذلك عن محتويات هذا الكتاب وما اشتمل عليه من نكت، ونوادر أدبية وبلاغية، فيقول:

(... وهو كتاب.. فُليت له العربية وما فصح من لغاتها، وملح من بلاغاتها، وما سمع من الأعراب فى بواديها، ومن خطباء الحلل فى نواديها، ومن قراضبة نجد فى أكلائها ومراتعها، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلُبها، وتساجعت الرعاة على شفاه عُلبها، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعاتَ المماتنة، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة، وما طولع فى بطون الكتب، ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنة، وجوامع كلم فى أحشائها مجتنة...).

وفى نهاية خطبته وبعد أن يعدد خصائص كتاب (أساس البلاغة) ومزاياه، يذكر الزمخشرى الفوائد والثمار التى يجنيها المتأدب وطالب علم الأدب والبلاغة من قراءة هذا الكتاب ودراسته، فيقول:

(... فمن حصّل هذه الخصائص وكان له حظٌّ من الإعراب الذى هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها، ومعيار حكمة المواضع وقسطاسها، وأصاب ذروًا من علم المعانى وحظى برش من علم البيان، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة، وسليقة سليمة فَحْلَ نثره، وجزل شعره، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين، ويخاطر المقرمين...).

* نموذج من أسلوب شرح الزمخشرى لمعانى الكلمات، وذكر استعمالاتها، ومجازاتها، ودلالاتها، ومعانيها الاصطلاحية، وشواهد عليها اخترناه من كتاب الهمزة، باب (أ ب د):

(* أ ب د - لا أفعله أبد الآباد، وأبد الأبيد، وأبد الآبدين، وتقول: رزقك الله عمرًا طويل الآباد. وأبدت الدواب وتأبدت: توحشت، وهى أوابد ومتأبدات، وفرس قيد

الأوابد وهى نفر الوحوش، وقد تأبد المنزل: سكنته الأوابد، وتأبد فلان: توحش، وطيور أوابد خلاف القواطع.

ومن المجاز: فلان مولع بأوابد الكلام وهى غرائبه، وبأوابد الشعر وهى التى لا تشاكل جودة. قال الفرزدق:

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم وأوابدى بتنحّل الأشعار

وقال النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدى إلى أوابد الأشعار

وجئتنا بآبدة ما نعرفها)[1].

وهكذا يتضح لّنا مما سبق أن الزمخشرى يعتبر - بحق - أكبر وأعظم جهابذة وأساطين الأدب والبلاغة فى تاريخ الأدب العربى، وربما جاء فى المرتبة الثانية بعد الجاحظ من ناحية إسهاماته الجليلة فى إرساء قواعد وأسس علوم البلاغة وخصوصًا علم المعانى، وأسرار الإعجاز البلاغى للقرآن وتطبيقه لمعطيات علوم البلاغة على آيات الذكر الحكيم.

ومن خلال تأمُّل النصوص السابقة التى أوردناها له من الكشّاف، و(أساس البلاغة) يتضح لنا أيضًا أنه هو نفسه كان من الكتاب والناثرين المتكلمين الذين يطغى الأسلوب الأدبى والبلاغى على أسلوب كتابتهم كما لاحظنا ذلك لدى الجاحظ، وأبى حيان التوحيدى وغيرهم من أدباء وكتاب المعتزلة، فتلك النصوص تدلنا على أسلوبه الأدبى المشرق، وثروته اللغوية الغزيرة، وامتلاكه لناصية الكلام، وتأثره إلى حد بعيد بميوله واتجاهاته البلاغية، وهى صفة نلاحظها بوضوح لدى أدباء المعتزلة.

٣ - أطواق الذهب فى المواعظ والخطب:

وهو - كما يدل على ذلك العنوان - كتيب فى المواعظ والنصح ألفه الزمخشرى بأسلوبه الأدبى والبلاغى المعروف عنه، وقسمه إلى مقالات.

• نموذج من هذا الكتاب:

- المقالة الأولى:

(ما يخفض المرء عدمه ويتمه إذا رفعه دينه وعلمه، ولا يرفعه ماله وأهله إذا خفضه فجوره وجهله، العلم هو الأب، بل هو للثأى أرأب، والتقوى هى الأم بل هى إلى اللبان

(١) أساس البلاغة مادة أ ب د.

أضم، فأحرز نفسك فى حرزهما، واشدد يديك بغرزهما يسقك الله نعمة صيّبة، ويحيك حياة طيبة)[١] .

ابن أبى الحديد المعتزلى ٥٨٦ - ٦٥٦ هـ

هو عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد[٢] بن الحسين بن أبى الحديد المدائنى، ولد فى المدائن أول ذى الحجة سنة (٥٨٦هـ) ونشأ بها، وتلقى عن شيوخها ودرس المذاهب الكلامية ثم مال إلى مذهب الاعتزال فيها، حيث كان الاعتزال والتشيع هما السائدان فيها.

سافر فى مطلع شبابه إلى بغداد حيث استزاد من العلم فيها، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب، وعلى حدّ قول صاحب كتاب (نسمة السحر) أصبح فيها معتزليًا جاحظيًا، بعد أن كان شيعيًا غاليًا.

وفى بغداد نا ل الحظوة لدى الخلفاء العباسيين والوزير ابن العلقمى وخصوصًا المستنصر الذى حكم من (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) فعين كاتبًا فى دار التشريفات ثم فى الديوان، وأخيراً فوض إليه أمر خزائن الكتب فى بغداد.

كان ابن أبى الحديد متضلعًا فى الفقه والأصول وله فى ذلك مؤلفات معروفة، وكان متكلمًا، جدليًا، نظاراً على طريقة أهل الاعتزال، وله مع الأشعري، والغزالى والرازى كتب ومواقف.

وبالإضافة إلى تبحر ابن أبى الحديد فى الكلام والفقه والأصول، فقد عرف عنه، وشهدت له مؤلفاته بأنه كان أديبًا، شاعراً، ناقدًا، خبيراً بمحاسن الكلام ومساوئه، وكتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) يشهد له بقدرته الفائقة على نقد الشعر وفنون البيان، وكان عالمًا لغويًا، ومؤرخًا عليمًا بأخبار العرب، مطلعًا على لغتها، وآثارها الأدبية كالأشعار، والأمثال، والنوادر، وحافظًا ومستوعبًا لعلوم زمانه.

---

(١) أطواق الذهب ص ٤، العدم: الفقر الشديد. الثأى: الفساد يقال: فلان يرأب الثأى أى يصلح الفساد، اللبان: الصدر وما بين الثديين حرز: حفظ صيبة: الصيب السحاب ذو المطر، والصيبة: المنصبة بغزارة كالمطر.

(٢) اعتمدنا فى ترجمة ابن أبى الحديد على مقدمة كتاب شرح نهج البلاغة وعلى صور النسخة الخطية لكتاب (نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر) تأليف يوسف بن يحيى بن الحسين اليمانى الصنعانى (ت١١٢١هـ) ج٢ الموجودة فى مكتبة دائرة المعارف الإسلامية الكبرى تحت رقم (PJ-١٩) (١٤٩٢٠).

وكان كاتبًا تشهد له مؤلفاته بإشراقة الديباجة، والتفنن فى النثر، والحسن فى الترسل.

ويذكر عنه من أرخ له أنه كان شاعرًا مجيدًا، وذكر ابن شاكر، أن له ديوان شعر كان معروفًا ومشهورًا، وهكذا قال صاحب (نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر)[1].

وقد تطرق ابن أبى الحديد فى شعره إلى شتى الأغراض كالمدح والرثاء، والحكم والوصف، والغزل، ومال بشكل خاص إلى شعر التصوف والغزل الإلهى، وقد أورد الكثير منه فى كتاب (شرح نهج البلاغة).

خلف ابن أبى الحديد العديد من المؤلفات والمصنفات، ولأن موضوع كتابنا استعراض النشاط الأدبى للمعتزلة، فإننا سنقتصر فيما يلى على ذكر مؤلفاته الأدبية وهى:

١ - الحواشى علىٰ كتاب المفصل فى النحو للزمخشرى، ذكره ابن الفوطى.

٢ - ديوان شعره، ذكره ابن شاكر الكتبى.

٣ - شرح نهج البلاغة فى عشرين مجلدًا، ويعتبر أهم وأشهر كتبه على الإطلاق.

٤ - العبقرى الحسان، ذكره صاحب روضات الجنات، وقال: (وهو كتاب غريب الوضع، قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار، وأودعه شيئًا من إنشائه، وترسلاته ومنظوماته)[2].

٥ - (الفلك الدائر على المثل السائر) وهو عبارة عن كتاب نقد على كتاب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين ابن الأثير، أخى ابن الأثير المؤرخ المعروف[3].

٦ - القصائد السبع العلويات، وهى قصائد موضوعاتها: فتح خيبر، فتح مكة، مدح الرسول (قصيدتان)، مقتل الحسين، موت الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٦٢٢هـ)، ذكر ابن الفوطى أن ابن أبى الحديد نظمها فى صباه وهو بالمدائن سنة ٦١١هـ.

٨ - القصائد المستنصريات، نظمها برسم الخليفة المستنصر العباسى، ذكر كاتب مقدمة شرح نهج البلاغة أن نسخة خطية منها موجودة فى مكتبة السماوى بالنجف.

٩ - (الوشاح الذهبى فى علم الأدبى) ذكره ابن الفوطى.

توفى ابن أبى الحديد فى بغداد أوائل سنة ٦٥٦هـ[4]، ونقل صاحب كتاب (نسمة

---

(١) نسمة السحر ص ٧٣. وما بعدها.

(٢) وذكره الدكتور عمر فروخ فى تاريخه باسم (الأخبار الحسان).

(٣) وقد كتب ابن أبى الحديد هذا الكتاب بناءً على طلب من المنتصر، وطبع هذا الكتاب فى الهند سنة ١٣٠٩.

(٤) تاريخ الأدب العربى عمر فروخ جـ٢ ص ٥٨٠.

السحر) عن الديار بكرى أنه توفى قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشريومًا، وكان دخولهم إليها فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ[١] .

وذكر ابن الفوطى فى كتاب مجمع الألقاب، أنه أدرك سقوط بغداد، وأنه كان ممن خلص من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين العلقمى مع أخيه موفق الدين[٢] .

رثاه أخوه عز الدين عبدالحميد بقوله :

أآبا المعالى هل سمعت تأوهى ... فلقد عهدتك فى الحياة سميعا
عينى بكتك ولو تطيق جوانحى ... وجوارحى أجرت عليك نجيعا[٣]
أنفًا غضبت على الزمان فلم تطع ... حبلاً لأسباب الوفاء قطوعا
ووفيت للمولى الوزير فلم تعش ... من بعده شهرًا ولا أسبوعا
وبقيت بعد كما فلو كان الردى ... بيدى لفارقنا الحياة جميعا

---

(١) شرح النهج جـ١ ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

(٣) الجوانح : الأضلاع تحت الترائب مما يلى الصدر . النجيع من الدم : ما كان مائلاً إلى السواد .

١ – نماذج من القصائد السبع العلويات[١] .

أ – من قصيدته فى ذكر فتح مكة ومدح النبى ﷺ :

جللت فلما دق فى عينك الورى ... نهضت إلى أم القرى أيد القرى[٢]
جلبت لها قب البطون وإنما ... تقود لها بالقود أم حبوكرا[٣]
وسقت إليها كل أسوق لو بدت ... له معفر ظنته بالرمل جوذرا[٤]
يبيت على أعلى المصاد كأنما ... يؤم وكون الفتخ يلتمس القرى[٥]
يفوق الرياح العاصفات إذا مشى ... ويسبق رجع الطرف شداً إذا جرى
جياد عليها للوجيه ولاحق ... دلائل صدق واضحات لمن يرى[٦]
ففيها سلو للمحب وشاهد ... على كلمة الله المدبر للورى
هى الروض حسناً غير أنك إن تبر ... لها مخبراً تسمج لعينيك منظراً[٧]
عليها كماة من لؤى بن غالب ... يجرون أذيال الحديد تبختراً[٨]

ب – وقال فى قصيدته الثالثة التى يصف فيها النبى ﷺ :

لا شيء أقطع من نوى الأحباب أو ... سيف الوصى كلاهما فتاك[٩]

---

(١) اخترنا هذه النماذج من كتاب القصائد العلويات السبع شرح العلامة السيد محمد صاحب المدرك، و كتاب (الروضة المختارة) لصالح عيسى الصالح.

(٢) أيد القرى: قوى الظهر.

(٣) قب البطون: أى خيولا ضامرة البطون. القود جمع أقود: الخيول الضخمة الجسيمة. أم حبوكر: كناية عن المصيبة والبلاء الشديد.

(٤) أسوق: ذو القد الطويل الفارع. المعفر: ولد الغزال أو الظبي، الجوذر: الثور أو الفحل.

(٥) المصاد: الربوة العالية وأعلى الجبل – الوكون جمع وكن: أعشاش الطيور، الفتخ جمع فتخاء: الصقر. القرى: الضيافة.

(٦) الوجيه ولاحق اسمان لجوادين تنسب إليهما الجياد الأصلية.

(٧) تبر: من بر يبور بور الشيء إذا اختبره، المخبر: الباطن، تسمج: أى تقبح.

(٨)الكماة جمع كمى، الأبطال والشجعان.

(٩) يريد بالوصى هنا الإمام على رضي الله عنه .

الجـوهر النبـوى لا أعـمـاله ... ملق ولا توحـيـده إشـراك
ذو النور إن نسج الضـلال مـلاءة ... وكناء فـهـو لسجـفـهـا هتـاك[1]
عـلام أسـرار الغـيـوب ومن له ... خلق الزمـان ودارت الأفـلاك
. . . ما عذر من دانت لديه ملائك ... أن لا تدين لعـزه الأمـلاك

جـ- ومن قصيدته السادسة التى يمدح فيها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه :

قـد قلت للبرق الذى شق الدُّجى ... فكان زنجـيًّـا هناك يجـدع[2]
يا برق إن جئت الغـرى فقل له : ... أتراك تعلم من بأرضك مـودع[3]
فـيك ابن عـمـران الكليم وبعـده ... عـيـسى يقـفـيـه وأحـمـد يتـبع[4]
بل فـيك جـبـريل ومـيكال وإسـ ... ـرافـيلُ والملأُ المقـدس أجـمع[5]
بل فـيـك نور الله جلَّ جـلالـه ... لذوى البصائر يستشف ويلمع[6]
فـيك الإمـام المرتضى فـيك الـ ... ـوصـى البطـين الأنـزع[7]
الضـارب الهـام المقنع فى الوغى ... بالخـوف للبـهـم الكمـاة يقنع[8]
يا مـن لـه فـى أرض قلبـى منزلٌ ... نعم المراد الرحب والمستـربع[9]
أهواك حتى فى حشاشة مهجتى ... نار تشب على هواك وتلذع[10]
وتكاد نفـسى أن تذوب صبـابة ... خلقـًا وطبـعًـا لا كمن يتطبع[11]
ورأيت دين الاعـتـزال وإننى ... أهوى لأجلك كل من يتشيع[12]
ولقـد علمت بأنه لابد من ... مـهـديكم وليـومـه أتوقع

---

(١) سجف ج سجوف وسجاف : الستر ، والحجاب ، وكناء قائمة الملاءة : ثوب يلبس على الفخذين ، هتاك ممزق .
(٢) يجدع : يقطع أنفه . شبه الليل المظلم بزنجي مقطوع الأنف .
(٣) الغرى : اسم لأرض النجف
(٤) يقفيه : يتبعه .
(٥) الملأ المقدس : الملائكة المقربون .
(٦) يستشف : يظهر ويبدو .
(٧) الأنزع : المراد هنا البرئ من الشرك .
(٨) المقنع : المدجج بالسلاح . البهم ج بهمة : الشجاع الذى يستبهم ما تاه على أقرانه . والبطين : العظيم البطن .
(٩) المراد مكان رياد الإبل أى اختلافها فى المرعى مقبلة مدبرة . والمستربع : يريد المربع أى مكان الإقامة والسكن .
(١٠) حشاشة : بقية الروح فى المحتضر . تلذع : تكوى بشدة .
(١١) الصبابة : الشوق ورقة الهوى والولع الشديد .
(١٢) رأيت دين الاعتزال : آمنت بالمذهب المعتزلى .

د - وقال يمدح أمير المؤمنين ويظهر ولاءه له وحبه لأهل التشيع ثم يرثى الإمام الحسين رضي الله عنه ويذكر واقعة الطف فى نفس القصيدة السابقة :

. . . ولقد بكيت لقتل آل محمد　　بالطف حتى كلُّ عضو مدمعُ
تا لله لا أنسى الحسين وشلوهُ　　تحت السنابك بالعراء مَوزَّع(١)

* ومن أشعاره الأخرى التى ذكرها له صاحب (نسمة السحر) قوله فى مناجاة الخالق تعالى :

يا من جفانى فوجدانى له عدم　　هبنى أسأتُ فأين العفو والكرمُ
أيا المرابط دون الناس فاجف وصل　　واقبل وعاقب وحاسب لستُ أنهزم
إن المحب إذا صحَّت محبته .　　فما لوقع المواضى عنده ألم
وحق فضلك ما استأنست من نعم　　سدوالى وإن حلت بى النقم
ولا آمنت نكالاً منك أرهبه　　وإن ترادفت الآلاء والنعم

وقوله فى إحدى قصائده السبع :

بزغت لكم شمس الكنس　　وبدت لكم روح القدس
لا تلقها إلا ببشرك　　فالقطوب من الدنس
ما أنصف المكاسات من　　ضحكت إليه وقد عبس

---

(١) الشِّلو : العضو . والسنابك : جمع سنبك ، طرف الحافر .

سبقت الإشارة إلى أن كتاب شرح نهج البلاغة يعد أهم مؤلفات ابن أبى الحديد على الإطلاق وأشهرها، وقد استند فى هذا الشرح إلى كتاب نهج البلاغة الذى جمعه الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ﵁، واستغرق تأليفه خمس سنوات (من ٦٤٤ - ٦٤٩هـ) وقدمه إلى الوزير ابن العلقمى[١].

تكمن أهمية هذا الكتاب فى قيمته المتعددة الجوانب، فهو يمتلك قيمة أدبية، وتاريخية، وعقائدية، كما أنه ضم بين دفتيه خلاصة للعلوم والآداب والفنون والمعارف التى كانت شائعة فى عصر ابن أبى الحديد وما قبله، فهو بهذا النهج الذى التزمه، والطريق الذى سلكه قد نقل إلى هذا الكتاب عصارة ما فى كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازى، والسير والفقه والجدل والمناظرة وعلوم الكلام، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشى والتعاليق، وطرزه بما اختاره من روائع الخطب، ونوابغ الحكم ومصطفى الرسائل مما نطق به مصاقع الخطباء وبلغاء الكتّاب وزعماء القول فى الجاهلية والإسلام، ثم وشاه بما انتخله من دواوين الشعراء الجاهليين، والمخضرمين والإسلاميين والمولدين من فاخر القول وحر الكلام فى متنوع فنون الشعر ومذاهبه، ومختلف أغراضه ومراميه[٢].

وقد التزم فى شرحه أن يقسم الكلام فصولاً، فيشرح كلمات كل فصل شرحًا دقيقًا على (الغريب والمعانى وعلم البيان وما عساه يشتبه ويشكل من الإعراب والتصريف) ثم يورد (ما يطابقه من النظائر والأشباه نثرًا ونظمًا) ثم يستطرد إلى ذكر (ما يتضمنه من السير والوقائع والأحداث).. ويشير إلى ما ينطوى عليه هذا الفصل (من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة) ويلوح (إلى ما يستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة) ويرصعه بما يشاء (من المواعظ الزهدية والزواجر الدينية والحكم النفيسة، والآداب الخلقية المناسبة لفقره والمشاكلة لدرره، ثم ينتقل إلى الفصل الذى يليه وهكذا..[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربى عمر فروخ

(٢) انظر: مقدمة شرح نهج البلاغة جـ١.

ومن ناحية الأسلوب، فقد تميز نثر ابن أبى الحديد فى كتاب شرح نهج البلاغة بالوضوح والرصانة، والابتعاد عن الركاكة والتعسف والإبهام وكل ما من شأنه أن يعقد الألفاظ والمعانى ويخل بها.

وفيما يلى ندرج نموذجًا من كتاب شرح نهج البلاغة اخترناه من المقدمة لكى يتسنى لنا التعرف عن كثب على أسلوب ابن أبى الحديد ومذهبه فى النثر:

(الحمد لله الواحد العدل الذى تفرد بالكمال فكل كامل سواه منقوص، واستوعب عموم المحامد والممادح، فكل ذى عموم عداه مخصوص.. قدم المفضول على الأفضل [١] لمصلحة اقتضاها التكليف، واختص الأفضل من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظم عن التشبيه ويجل عن التكييف.

وبعد، فإن مراسيم [٢] المولى الوزير الأعظم صاحب الصدر الكبير المعظم العالم العادل المظفر المنصور المجاهد المرابط مؤيد الدين عضد الإسلام سيد وزراء الشرق والغرب أبى طالب محمد بن أحمد بن محمد العلقمى نصير أمير المؤمنين أسبغ الله عليه من مراقب السعادة[٣]، ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها، لما شرفت - عبد دولته وربيب نعمته[٤] - بالاهتمام بشرح نهج البلاغة على صاحبه أفضل الصلوات، ولذكره أطيب التحيات بادر إلى ذلك مبادرة من بعثه من قبل ثم حركه أمر جزم[٥] وشرع فيه بادى الرأى[٦] شروع مختصر، وعلى ذكر الغريب والمعنى مقتصر، ثم تعقب الفكر أن النغبة لا تشفى أوامًا ولا تزيد الحائم إلا حياما[٧]، فتنكب[٨] ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول فى شرحه بسطًا اشتمل على الغريب والمعانى وعلم البيان وما عساه يشتبه ويشكل[٩] من

---

(١) يريد من المفضول هنا أبو بكر وبالأفضل الإمام على.

(٢) مراسيم: جمع مرسوم، ما يرسمه السلطان للرعية ويأمرهم به.

(٣) المراقب: جمع مرقبة المكان العالى الذى يشرف الإنسان منه على ما حوله.

(٤) يخص نفسه بجمله معترضة وهو التفات ينتقل به الكاتب إلى الكلام عن نفسه كأنه قال: أخص نفسى أنا عبد دولته وربيب نعمته.

(٥) من قبل: أى قبل صدور الأمر إليه. جزم: بات وفاصل. والضمير فى بادر يعود إلى المؤلف والملاحظ أنه يتحدث عن نفسه من هذه الجملة فصاعدا بضمير الغائب احتراما لمن يخاطبه.

(٦) بادى الرأى: فى أول الأمر.

(٧) النغبة: جرعة الماء القليلة. الأوام: العطش، الحائم: العطشان.

(٨) تنكب عنه عدل عنه وتجنبه واعتزله ولا منكبه وأقبل نحو غيره

(٩) اشتبه الأمر ان وتشابها: تماثلا حتى يصعب التفريق بينهما. وأشكل الأمر: صعب تبينه ومعرفة المقصود منه أو معرفة وجه الصواب فيه.

الإعراب والتصريف، وأورد في كل موضوع ما يطابقه من النظائر والأشباه نظمًا ونثرًا، وذكر ما يتضمنه من السير والأحداث فصلاً فصلاً، وأشار إلى ما ينطوي عليه من دقائق علم التوحيد والعدل[1] إشارة خفيفة، ولوح[2] إلى ما يستدعي الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة، ورصعه[3] من المواعظ الزهدية والزواجر الدينية والحكم النفيسة والآداب الخلقية المناسبة لفقره والمشاكلة[4] لدرره والمنتظمة مع معانيه في سمط[5] والمتسقة مع جواهره في لط[6] بما يهزأ بشنوف النضار[7]، ويخجل قطع الروض غب القطار[8]، وأوضح ما يومئ[9] إليه من المسائل الفقهية وبرهن على أن كثيرًا من فصوله داخل في باب المعجزات المحمدية لاشتمالها على الأخبار الغيبية، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية...)[10].

---

(١) يشير إلى علم أصول الدين على مذهب المعتزلة.
(٢) لوح إليه: أشار إليه إشارة عارضة خفيفة.
(٣) رصعه: زيّنه.
(٤) المشاكلة: المشابهة.
(٥) السمط: الخيط تجمع فيه الجواهر عقدًا.
(٦) اللط: القلادة من حب الحنظل المصبغ.
(٧) شنوف: القرط يعلق بالأذن. والنضار: خالص الذهب.
(٨) غب القطار: بعد المطر.
(٩) يومئ: يشير.
(١٠) شرح نهج البلاغة جـ١.

خاتمة

وهكذا يمكننا أن نخلص من المباحث والموضوعات المختلفة التى طرحناها فى هذا الكتاب إلى نتائج هامة على صعيد الفكر، والاعتقاد، والأدب، والدور الكبير الذى أداه المعتزلة فى تلك المجالات.

منها أن الخدمة الكبرى التى أداها المعتزلة إلى الفكر والحضارة الإسلامية تتمثل أولاً فى أنهم أرسوا دعائم الثقافة، والتفكير العقلى والمنطقى فى هذه الحضارة، فأسهموا من خلال ذلك فى تطويرها، وإغنائها، وتوسيع مجالاتها وآفاقها، وذلك عبر تحديدهم للطريق الأمثل لمواجهة العقائد والديانات غير الإسلامية التى كانت تستخدم أساليب الجدل العقلى والمنطقى فى مناقشة المسلمين، فما كان من المعتزلة إلا أن بادروا - بفضل الذكاء الذى تمتع به زعماؤهم وشخصياتهم - إلى دراسة الثقافة اليونانية، وغيرها من الثقافات كالفارسية والهندية دراسة متعمقة متأنية مكنتهم من استيعاب، وهضم، وتمثل الأساليب والقواعد والأصول العقلية، والمنطقية، والفلسفية لدى تلك الثقافات والحضارات، وبالتالى استخدام تلك المعطيات العلمية فى مناقشة ومناظرة أصحاب المعتقدات والديانات الأخرى، والدفاع عن العقيدة الإسلامية.

وهكذا فقد تأثر المعتزلة إلى حد كبير - من هذا الجانب - بالثقافات والحضارات الأجنبية وكان لهم قصب السبق - دون المذاهب والمدارس الأخرى - فى مجال نقل التراث الأجنبى إلى الحضارة الإسلامية، والمواءمة بين ذلك التراث بمضامينه الفلسفية، والمنطقية، وبين الفكر الإسلامى بأصالته وخلوصه.

وفى مجال الأدب - الذى هو الموضوع الأصلى لهذا الكتاب - خرجنا إلى هذه النتيجة، وهى أن المعتزلة عكسوا بقوة ووضوح ثقافتهم العقلية على نتاجاتهم، وآثارهم، ومؤلفاتهم الأدبية فجاءت متميزة شكلاً ومضمونًا عن نتاجات سائر الأدباء ممن لا ينتمون إلى المذهب المعتزلى، فأسهموا من خلال العقلية التى تميزوا بها فى إغناء الأدب العربى، وتنويع أغراضه، وموضوعاته، وإضفاء البعد العلمى والعقلى والمنطقى والفلسفى عليه دون أن تفقد نصوصهم الروح الأدبية والفنية، بل أن تأثيراتهم وإسهاماتهم فى الأدب العربى بلغت درجة اعتبروا معها المؤسسين الأوائل لبعض علوم العربية وفى مقدمتها علوم

البلاغة بما تشتمل عليه من بيان، ومعانٍ، وبحوث ودراسات فى أسرار الإعجاز البلاغى القرآنى.

وفى مجال الشعر الذى لم يرق - على أية حال - إلى مستوى النثر الذى قدمه المعتزلة توصلنا إلى هذه النتيجة، وهى أنهم كانوا فى طليعة الذين أدخلوا الموضوعات العلمية والفلسفية إلى الشعر، ورغم أنهم لم يكونوا أول من سخر الشعر للدفاع عن العقيدة والمذهب، إلا أنهم كانوا يمتلكون لكمية لا بأس بها من الأشعار التى دافعوا بواسطتها دفاعًا مخلصًا وصادقًا عن مبادئ وأصول مذهبهم إزاء خصومهم وأعدائهم، كما لاحظنا ذلك فى أشعار (صفوان الأنصارى)[1] .

وفى مجال الشعر أيضًا انعكست ذهنية المعتزلة الميالة إلى طرح وبحث الموضوعات الفلسفية والعقلية بوضوح على أشعارهم فاستخدموا فيها المصطلحات والتعبيرات الفلسفية والعقلية وطوعوها للغة الشعر، كما رأينا ذلك فى الأشعار التى رويت عن النظّام.

وبعد؛

فتلك كانت - باختصار - أهم النتائج التى توصلنا إليها من دراستنا لفكر وأدب المعتزلة، علمًا أننى لا أدعى أن هذه هى كل النتائج التى يمكن التوصل إليها بشأن أدب المعتزلة، فربما كانت هناك نتائج أخرى غابت عن أذهاننا، وغفلنا عنها، وعلى أية حال فإن الباب مفتوح، والآفاق واسعة أمام الباحثين المهتمين بدراسة الأدب المتأثر بالمذاهب والمدارس الفكرية والدينية، ومن بينها مدرسة المعتزلة التى تعتبر أهم وأخطر المدارس الفكرية التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى على الإطلاق، وأكثر تأثيرًا على مسيرة الحضارة والفكر الإسلامى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) كان بودنا أن نترجم لهذا الشاعر فى الباب الثالث الذى خصصناه لترجمة شخصيات المعتزلة وشيوخهم فى الأدب، ولكن وللأسف الشديد فإننا لم نجد أية ترجمة لحياة هذا الشاعر فى الكتب والمصادر الأدبية والتاريخية التى استندنا إليها فى تأليف هذا الكتاب سوى ما أوردته له من أشعار فى الدفاع عن عقيدة الاعتزال ورجالها والتى أوردها الجاحظ فى كتابى الحيوان والبيان والتبيين.

المصادر والمراجع

١ - ابن أبي الخير، أحمد(١٣٥٠هـ. ق) شيراز نامه - تصحيح: بهمن كريمي - طهران.
٢- ابن الأثير، على بن محمد (١٣٥٧هـ) اللباب فى تهذيب الأنساب - مكتبة القدسى - القاهرة.
٣ - ابن الأثير، على بن محمد (بلا تاريخ) الكامل فى التاريخ - تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضى - دار الكتب العلمية - بيروت.
٤ - ابن الجوزى، عبدالرحمن (١٤١٩هـ - ١٩٨٨م) مناقب الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركى - دار هجر - بيروت.
٥ - ابن الجوزى، عبدالرحمن بن على (١٩٨٥م) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - دار الشروق - بيروت.
٦ - ابن حزم، على بن أحمد (١٣١٧هـ) الفصل فى الملل والنحل - تعليق: محمد بن عبدالكريم - الطبعة الأدبية - مصر.
٧ - ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٨١م) مقدمة ابن خلدون - دار القلم - بيروت.
٨ - ابن خلكان، شمس الدين أحمد (بلا تاريخ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: د/ إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.
٩ - ابن عساكر على بن حسن (١٣٩٧ - ١٩٧٦م) تاريخ مدينة دمشق - تحقيق: شكرى فيصل - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.
١٠- ابن قتيبة، عبدالله (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) الشعر والشعراء تحقيق: أحمد محمد شاكر - دار المعارف - مصر.
١١- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (١٩٧٣م) عيون الأخبار - دار الكتب - مصر.
١٢ - ابن قيم الجوزية، محمد بن أبى بكر (بلا تاريخ) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة - اختصره: الشيخ محمد بن الموصلى - تصحيح: زكريا على يوسف - مطبعة الإمام - مصر.
١٣- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (١٩٨٩م) البداية والنهاية - دار إحياء التراث - بيروت.
١٤- ابن المرتضى، أحمد (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) المنية والأمل فى شرح الملل والنحل- تحقيق: د/ محمد جواد مشكور - دار الفكر.
١٥- ابن المرتضى، أحمد (بلا تاريخ) كتاب طبقات المعتزلة - تحقيق: سوسنة ديفلد، فلزز - دار مكتبة الحياة - بيروت.
١٦- ابن المعتز، عبدالله (بلا تاريخ) طبقات الشعراء - دار المعارف - مصر.
١٧ - ابن منظور، محمد (بلا تاريخ) لسان العرب - دار صادر - بيروت.
١٨- ابن النديم، محمد بن أبى يعقوب (١٣٥٠-١٩٧١م) الفهرست تحقيق: رضا تجدد طهران - انتشارات دانشكاه طهران.
١٩- أبو ريحان بيرونى، محمد بن أحمد (١٩٨٣م) تحقيق ما للهند (عالم الكتب) بيروت.
٢٠-أبو الفداء، إسماعيل على - تاريخ أبى الفداء (١٢٨٦هـ) إيران.
٢١- أبو ملحم، على (١٩٨٧م) رسائل الجاحظ = دار مكتبة الهلال - بيروت.
٢٢- الأشعرى، على (١٤٠٥ - ١٩٨٥م) مقالات الإسلاميين - تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد - دار الحداثة.

٢٣- الأشعرى، على بن اسماعيل (١٩٩٠م) الإبانة عن أصول الديانة - تحقيق : بشير محمد عيون- مكتبة دار البيان - دمشق .
٢٤- الأصبهاني، حسين (١٩٨٠م) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - دار الحقائق - بيروت .
٢٥- الأصبهانى، على بن الحسين (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) الأغانى - شرحه وكتب هوامشه : عبد الله على مهنا، سمير جابر - لبنان .
٢٦- أمين، أحمد (١٩٦٤م) فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
٢٧- أمين أحمد (١٩٣٦م) ضحى الإسلام - دار الكتاب العربى - بيروت .
٢٨- الأمينى، عبدالحسين (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) الغدير فى الكتاب والسنة والأدب - دار الكتاب العربى - بيروت .
٢٩- بدوى، عبدالرحمن (١٩٦٥م) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية - دراسة كبار المستشرقين - دار النهضة العربية - القاهرة .
٣٠- بروكلمان، كارل (١٩٨٤م) تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة : بنيه أمين فارس ومنير البعلبكى - دار العلم للملايين - بيروت .
٣١- بروكلمان، كارل (١٩٧٥م) تاريخ الأدب العربى - ترجمة : عبدالحليم نجار - دار المعارف مصر .
٣٢- البشارى المقدسى . محمد (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم - تحقيق : د/ محمد مخزوم - دار التراث العربى - بيروت .
٣٣- البغدادى، عبدالقادر (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم - بيروت .
٣٤- التوحيدى، على (أبو حيان) (١٣٦٦هـ - ١٩٨٧) ش - ١٩٨٧ (المقابسات) تحقيق وتقديم : محمد توفيق حسين - مركز نشر دانشكاه - طهران .
٣٥ - التوحيدى، على بن محمد (١٩٤٤م) البصائر والذخائر - تحقيق : إبراهيم الكيلانى - مطبعة الإنشاء - دمشق .
٣٦- التوحيدى، على بن محمد (١٩٤٤م) الإمتاع والمؤانسة - تحقيق : أحمد أمين - القاهرة .
٣٧- التوحيدى، على بن محمد (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م) أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد) تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي- بيروت .
٣٨- التوحيدى، على بن محمد (١٩٦٤م) رسالة الصداقة والصديق - تحقيق وتعليق : د. إبراهيم الكيلانى - دار الفكر - دمشق .
٣٩- الثعالبى، عبد الملك (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر - شرح وتحقيق : د/ مفيد محمد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت .
٤٠- الجاحظ (عمرو بن بحر) - بلا تاريخ نشر - البخلاء - تحقيق وتعليق : طه الحاجرى - دار المعارف - مصر .
٤١- الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٨٦م) كتاب الحيوان، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون - دار ومكتبة الهلال - بيروت .
٤٢- الجاحظ ، عمرو بن بحر (بلا تاريخ) البيان والتبيين - تحقيق وتقديم : فوزى عطوى - لبنان .
٤٣- جار الله، زهرى (١٩٩٠م) المعتزلة - المؤسسة العربية - بيروت .

٤٤- جبر، جميل (١٩٥٩م) الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره- دار الكتاب اللبنانى - لبنان
٤٥ - الجهشيارى، محمد بن عبدوس، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م - الوزراء والكتاب - تحقيق: مصطفى السقا- مصطفى البابى - القاهرة.
٤٦- جولد تسيهر، ايجناتس (١٩٤٦م) العقيدة والشريعة فى الإسلام - تحقيق محمد يوسف موسى (دار الرائد العربى - بيروت.
٤٧- الحاجرى، طه (بلا تاريخ) الجاحظ حياته وآثاره - دار المعارف - مصر.
٤٨- حتى، فيليب (وادوارد جرجى وجبرائيل جبور) (١٩٨٦م) تاريخ العرب - دار غندور.
٤٩- حسين، طه (١٩٥٧م) من حديث الشعر والنثر- دار المعارف - مصر.
٥٠ - الحصرى، إبراهيم بن على (١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م) زهر الآداب وثمر الألباب- مطبعة السعادة- مصر.
٥١ - الحموى، ياقوت (بلا تاريخ) معجم الأدباء - دار إحياء التراث العربى - بيروت.
٥٢ - الحنبلى، عبدالحى (١٣٥١هـ) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - مكتبة القدسى - القاهرة.
٥٣- الحوفى ، أحمد (بلا تاريخ نشر) أبو حيان التوحيدى - مكتبة نهضة مصر.
٥٤ - الخطيب البغدادى - أحمد بن على (بلا تاريخ) تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.
٥٥ - الخوارزمى، أبو بكر (١٢٧٩هـ) رسائل الخوارزمى - استانبول.
٥٦- الخوانسارى، محمد بن باقر (١٣٩٠) - روضات الجنات - دار الكتب العربية - بيروت.
٥٧- الخياط، عبدالرحيم (بلا تاريخ) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد/ تقديم ومراجعة: محمد حجازى- القاهرة.
٥٨- دى بور، ت . ج (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م) تاريخ الفلسفة فى الإسلام - ترجمة وتعليق: عبدالهادى أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة.
٥٩- الذهبى، محمد بن أحمد (١٩٦٣م) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - عيسى البابى - مصر.
٦٠ - رفاعى، أحمد (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) عصر المأمون - مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة.
٦١- الروذراورى، محمد بن الحسين (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) ذيل كتاب تجارب الأمم - القاهرة.
٦٢ - الزركلى، خير الدين (١٣٩٠هـ - ١٩٦٩م) الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين - بيروت.
٦٣ - الزمخشرى، محمود بن عمر(١٣١٤هـ) أطواق الذهب فى المواعظ والخطب- شرح: الشيخ يوسف أفندى الأسير - بيروت.
٦٤- الزمخشرى، محمود بن عمر (بلا تاريخ نشر) أساس البلاغة - تحقيق: عبدالرحيم محمود - بلا اسم ناشر.
٦٥- الزمخشرى، محمود (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - دار الفكر للطباعة والنشرو التوزيع.
٦٦- السبكى، عبدالوهاب (١٤١٣هـ - ٢٩٩٢م) طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق: د. عبدالفتاح محمد الحلو، د. محمود محمد الطناحى - هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

٦٧- السمعاني عبدالكريم (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) الأنساب- تحقيق: عبدالله عمر البارودي - دار الجنان بيروت.
٦٨- السندوبي. حسن (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) أدب الجاحظ - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
٦٩- السيوطي، جلال الدين (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٧٠- الشهرستاني، محمد (١٤٠٤هـ ١٩٨٤) الملل والنحل - تحقيق: محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت.
٧١- الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (١٩٣٤م) نهاية الأقدام في علم الكلام - باريس.
٧٢- الشيباني (ابن الأثير) على (١٤٠٠هـ ١٩٨٠م) الكامل في التاريخ- دار الكتاب العربي - بيروت.
٧٣- الصالح، صالح على (بلا تاريخ) الروضة المختارة - منشورات الشريف الرضي.
٧٤- الصدر، محمد باقر (١٤٠٢هـ) بحث حول الولاية - مكتبة النجاح - طهران.
٧٥- الصفدي، خليل (١٩٩٣م) الوافي بالوفيات - وزارة الأبحاث العلمية، بيروت.
٧٦- صفوت، أحمد زكي (١٩٦٢م) جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة- عيسى البابي الحلبي - القاهرة.
٧٧- الصنعاني، يوسف (نسخة خطية) نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر - مكتبة دار المعارف الإسلامية - طهران.
٧٨- ضيف، شوقي (١٩٧١م) الفن ومذاهبه في النثر العربي - دار المعارف - مصر.
٧٩- ضيف، شوقي (بلا تاريخ) البلاغة تطور وتاريخ - دار المعارف - مصر.
٨٠- الظاهري، على (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني - بيروت.
٨١- الطبري، محمد بن جرير (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩) تاريخ الأمم والملوك - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
٨٢- العسقلاني، شهاب الدين (بلا تاريخ) لسان الميزان - دار الفكر.
٨٣- العسكري، الحسن (١٣٧١هـ - ١٩٥٢) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم على محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية - مصر.
٨٤- غربال، محمد شفيق (١٩٦٥م) الموسوعة العربية الميسرة - دار الشعب- القاهرة.
٨٥- الغزالي، محمد (١٤٠٩ -١٩٨٨هـ) الاقتصاد في الاعتقاد - دار الكتب العلمية - بيروت.
٨٦- الغزالي، محمد بن محمد (١٣٢٢هـ) المستصفى من علم الأصول - المطبعة الأميرية - مصر.
٨٧- فروخ، عمر (١٩٨٩) تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت.
٨٨- الفندي، محمد ثابت (وأحمد الشنتاوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس) (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م) دائرة المعارف الإسلامية - مراجعة: محمد أحمد جاد المولى بك- مصر.
٨٩ - القيرواني، إبراهيم بن علي (١٣٧٢- ١٩٥٣م) زهر الآداب وثمر الألباب - مطبعة السعادة - مصر.
٩٠- المالكي، أحمد (١٣٥٥هـ ١٩٣٦م) نفح الطيب - تحقيق: أحمد فريد رفاعي - مصر.
٩١- المبرد، محمد بن يزيد (١٩٥١م) الكامل في اللغة والأدب- المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.

٩٢- متز، آدم (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري- ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
٩٣- المدائني، عز الدين (ابن أبي الحديد) (١٣٨٥ - ١٩٦٥م) - شرح نهج البلاغة - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت.
٩٤- المدائني، عز الدين (ابن أبي الحديد) (١٣٧٤هـ - ١٩٩٥) القصائد السبع العلويات - شرح : العلامة السيد محمد صاحب المدارك - دار الفكر - بيروت.
٩٥ - المرتضى (الحسيني)، علي بن الطاهر (١٤٠٣هـ) أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب - تحقيق : السيد محمد بدر النعساني الحلبي.
٩٦- المسعودي، علي (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) مروج الذهب ومعادن الجوهر.
٩٧- المشرق -الخوري قسطنطين باشا الراهب - (مقال عن ثيودور أبي قرة) - المشرق - بيروت.
٩٨- المصري (ابن نباته) جمال الدين (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة.
٩٩- المقريزي، أحمد (بلا تاريخ النشر) الخطط المقريزية - المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار - دار إحياء العلوم - لبنان.
١٠٠ - المنقري، نصر بن مزاحم (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) وقعة صفين - تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون - القاهرة.
١٠١ - نيكلسون، رينولد. أ (١٩٦٧م) تاريخ الأدب العباسي- ترجمة : صفاء خلوصي - المكتبة الأهلية - بغداد.
١٠٢ - النسائي، أحمد (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي - دار الفكر - بيروت.
١٠٣ - كيري زاده، أحمد بن مصطفى (١٩٨٥م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - بيروت.
١٠٤ - كرد علي، محمد (١٣٥٥هـ - ١٩٤٧) أمراء البيان - مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة.
١٠٥ - هارون، عبدالسلام (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) رسائل الجاحظ - مكتبة الخانجي - مصر.
١٠٦ - هارون، عبدالسلام (١٩٧٣م) نوادر المخطوطات - مصطفى البابي الحلبي - مصدر.
١٠٧ - اليافعي، عبدالله (١٣٩٠هـ - ١٩٨٤م) مرآة الجنان - مؤسسة الأعلمي- بيروت.
١٠٨ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م) تاريخ اليعقوبي - بيروت.

المراجع الأجنبية

1 - Arnold, T,w., 1924, The Cailphate, Oxford.

2 - Den, O.M., 1953, Shortes Encyclopeadia of Islam, Leiden.

3 - Gimaret, D, 1993 Encyclopeadia of Islam (Mutazila), Leiden, Newyork.

4 - Hamilton, A.R, 1955 Mohammedanism, Clarendon press, Oxford.

5 - Macdonald, Duncam B., 1960 Developement of Muslim theology, Jurispudence and costitutional theory, The premier book house, Pakistan, Lahore.

6 - Mc Giffert, A,C., 1056, A Hastory of christian, Early and Easterm.

7 - Nicholson, Reynold Alleyne, 1953, Aliterary history of the Arabs, Cambridge university press.

8 - Runicman, steven, 1932, Byzantine civlization, Cambridge.

9 - Schact, Joseph, 1953, The origins of Mohammadin Jurispudence, Oxford.

10- Weber, A.N., 1982, History of philosophy, New York.

11- Zettersteen, K.V., 1987, first Encyclopaedia of Islam John of Demascus, Leiden, New-York.

الفهـرس